



عوى ضبع ليلي صحراوي تحت الجلد في حين كان الثلج يهطل منذ عدة أيام وكانت شاشة التلفاز تعرض فيلما خاصا عن الحرب من خلال جهاز فيديو تتقاطع فيه صورتني على الشاشة مع ظلي المنكسر على الجدار الأزرق المصبوغ بضوء ناعم ازرق من مصباح صغير حصلت عليه مرمياً في مكان مخصص للأشياء المتروكة.

كنت أستطيع رؤية الثلج في الخارج عبر النافذة الواسعة المطللة على الشارع والخليج والغابة المجاورة. كان يمكن رؤية الثلج من زوايا متعددة من عدة نوافذ في المنزل. بدا الثلج من طول الهطول والتناغم والسكون ، عدا صوت مرور الريح أحيانا، كما لو انه لوحة ثلجية بيضاء عن مكان شتوي منعزل لدير أو منزل أو مأوى عابر للنوم. لكن لوحات ربيعية مشرقة تملأ الجدران جعلت التنافر واضحاً والتمايز بارزاً بين مناخ الثلج الخارجي المعتم والرمادي والعاصف، وبين الخطوط الدافئة والمتوهجة للعشب والبحر والفساتين والزهور المائية البيضاء والحدائق المنزلية المحترقة تحت أشعة شمس مخفية يترك انعكاسها ألوانا بهيجة وهادئة ومشعة فوق الخطوط والأزهار والأغصان والفساتين: تلك هي لوحات كلود مونييه

التي حصلت عليها من بائع جوال في صيف منسي على رصيف  
بودابست.

كنت أراقب وجهي على الشاشة. وجه المحارب القديم. أما ظلي على  
الجدار فقد كان مبعثراً وهادئاً ومسافراً في خطوط كلود مونييه، وفي أزهار  
الماء وفي أشجار الصفصاف والصنوبر أو المنزل أو الخليج أو الجبال  
وغارقاً تحت الثلج المتهاوي.

كنت موزعاً بين حضور الثلج وبين غياب الصحراء. الريح في الخارج  
تعول منذ أقفلت الباب، هذا الصباح، على نفسي أو على جسدي أو  
على شيء آخر يشبه كومة ملابس وسلسلة مفاتيح نحاسية تحمل صورة  
محفورة لخيول عربية هائجة مستفزة في صحراء رملها رمادي كما لو أنها  
علامة على هرم الصحراء أو هرم الخيول أو هرم ذلك النهار الصحراوي  
الذي بدا لعراقته وسكونه سحيقاً كرغبة قديمة صدئة أو أرضاً مهجورة  
من المطر والنظرة والرغبة والريح.

أنا هنا إذن لكي أشاهد نفسي في حرب على الشاشة انزف ولكي  
أرى ظلي مبعثراً بين ثلج لا يكف عن الهطول ولوحات الماء والورد  
والشرفات البهيجة والقبعات المزينة بالأزهار.

أنا هنا وجهه لليل الصحراوي، للعقرب، لضبع الرغبة، للفراشات الميتة  
في حقول الألغام، الفراشات التي تقول عنها أسطورة بوذية إنها تحط على  
صدور الميتين المهزومين، وعلى صدور النائمين المنتصرين، ووجه آخر  
لكلود مونييه وأزهار الماء والثلج المتهاوي خلف النوافذ.

قال لي الصديق الذي أرسل الفيلم التسجيلي عن الحرب في الهاتف  
من لندن:

. انه فيلم طويل عن الحرب.

لم يقل أي حرب لكنه أضاف:

. حربنا ، هل نسيت؟

. كيف ينسى المرء تلك الحرب التي حولته إلى رماد وبنفسج؟

. هل تشرح قليلاً؟

. تلك حكاية أخرى طويلة.

ليت هذا الثلج يتوقف قليلا، لحظة، ساعة، كي استطيع بجميع ظلي  
المبعثر على لوحات كلود مونييه مع صورتي على الشاشة، مع الثلج  
المتساقط، مع عواء ضبع الشهوة في هذه الساعة المبعدة من الوقت  
والرمل والضوء والأمكنة. ساعة مشردة تحت الريح والثلج .

أنا أسير هذا الضبع الذي يسكنني منذ سنوات أو عصور أو منذ  
الأزل، منذ أول يوم خلق فيه ضبع أو رغبة أو صوت، قبل كل الحروب  
وربما بعد كل الحروب، هذا الضبع المهاجر تحت الجلد، هذه العاصفة  
الصامتة من الشهوة والجنون والحكاية والرغبة والعزلة التي تشبه عزلة  
الشفق أو الوحش أو الإله أو النسر.

تمر لقطة سريعة في هذا الفيلم الطويل، لقطة عابرة عن حرب لم تعد  
تعني أحداً، حرب صار سهلاً اختصارها بكلمة واحدة، تعكس  
صورتي. قد يكون هذا هو السبب الرئيس الذي جعل صاحبي يرسل لي  
الفيلم دون تعليق كي أتمتع بالدهشة التامة أو الدهول وربما الصدمة.

لقطة تائهة في الغبار والريح والصحراء والحرائق ترسم صورتي واقفا بين الجثث. ليس مهما هوية الجثث الآن، فلا قيمة لذلك، لكن صورتي الواضحة تماما وضوحاً غريباً ونافراً، ورغم قامتي المنتصبة، هذه الصورة بدت لي، ربما لي وحدي، جثة أخرى.

كنت القتل الواقف في مشهد رمادي عاصف ودخاني. في الجانب البعيد من الغرفة، الجانب الموازي للغابة، كانت لوحة مشرقة لا أعرف لمن عن قنطرة خضراء فوق جدول مكسو بالعشب والزهور والصخور المائية. صخور ذهبية مشعة متوهجة ترقص على هذا السكون الضاج بالألوان والحرائق الهادئة والجمال السري النابع من هدوء المكان والحجر والضوء ووضوح الوحشة والأمكنة والزمن والرغبة وسطوع الجسد كنمر يستحم تحت ضوء القمر.

قال لي قاسم شريف قبل ساعات عبر الهاتف من مدينة بيرغن :

. ماذا تفعل؟

. أشاهد فيلما.

. عن الجنس؟

. الحرب.

صرخ:

. أية حرب؟

. حربنا.

. العن يومك. كيف حصلت عليه؟

. من صديق. هل تدري؟ لقد رأيت صورتي.

. أنت تهذي. قلت لك أترك هذه العزلة لأنها ستقضي عليك. كيف

أخبار صاحبك الأخير؟

. من تقصد؟

. هل نسيت؟ هل لديك غيره؟ ثعبان الرغبة الأخير؟

قلت ضاحكا:

. اللعنة عليك. أنت تدري جيدا أن كاترين لا تسأل عني إلا عندما

يلتهب عش الغرام.

. ومتى يلهب؟

. لا أحد يعلم.

. اترك هذا الجحيم وتعال.

انقطع الخط. لكن لوحة القنطرة هجمت عليّ من الجدار مع رائحة أزهار ريبعية ونهار عذب وعشب مبلل بالضوء والنهار والسر. أما خيول المفاتيح فقد كانت تبدو هادئة أمام غبار الصحراء ومشهد الجثث وقامتي المنتصبة كرمح مكسور وسط عشرات الجثث المرمية في عراء مفتوح على الخوف والهاوية والظلام وعيون الضبع. إنه مشهد للخراب المفتوح .

رجل يقف فوق جثته كأنه ينظر في مرآة.

أما مصباح الشارع، وهو مصباح كبير الحجم إلى حد ما، فقد بدا تحت الثلج المتساقط والريح العنيفة، وداخل هذا الليل الإسكندنافي الأبيض، كفنار مضيء في متاهة ثلجية بيضاء. عناصر هذه المتاهة هي الليل والثلج والعاصفة والمصباح الأصفر وصحراء رملية ورجل واقف في عراء تكسوه جثث مرمية على نحو عبثي كما يحدث الأمر عادة في ساحة حرب.



كانت شاشة التلفاز قد توقفت عند هذا المشهد، عندما رن الهاتف بصورة غير متوقعة منتصف الليل. هذه ساعة موحشة، تحت الثلج والصمت والريح العاوية، لا كلب ينبح، أو ديك يصيح، أو عصفور يزقزق، أو إنسان يصيح. لا شيء، لا أحد. لا أحد يأتي، لا أحد يذهب.

صوت قاسم شريف عبر الهاتف:

. صوتك ميت. هل كنت في حفلة جلد؟

. كنت أتابع الفيلم.

صرخ:

. الفيلم؟ هل جننت؟ وعن الحرب؟

. وعن الجنس والجنون والدعارة والحب والصيد.

. أقول اترك هذا المكان، أرجوك.

. كل الأمكنة تتشابه.

. هل جاءت كاترين؟

قلت ضاحكا:

. لم يلتهب العرش بعد.

. أنت بلا شك تمزح. أنا اعرف أن كاترين سيدة رائعة وهي لا بد

مشغولة بشيء ما. هل صحيح حكاية الفيلم اللعين؟

. نعم. فيلم وثائقي عن حرب الخليج الأولى.

صرخ كعادته حين يكون مندهشاً:

. الأولى؟ اللعنة. إنها أقدر حرب في التاريخ. هل أنت غاطس في

الثلج؟ أعني كيف حال الجو؟

. إنه الجحيم الأبيض.

قاطعي برجاء:

. إذا كنت تسهر الليلة فأرجوك ابحث عن محطة أخرى. دع حكاية

الحرب الآن. هل أنت نائم؟

. أسمعك جيداً.

. القناة الفرنسية الخامسة ستعرض فيلماً رائعاً بعد ساعة. عندك

قنوات جنسية كثيرة. سأذهب الآن.

. الآن؟ وفي هذا الجو العاصف؟

أجاب بهدوء: . نعم. وفي هذا الجو العاصف لأنه بعد وقت قصير ستفرغ المراقص حملتها من بنات الثلج والإوز النرويحي الأبيض والبجع الاسكندنافي الناعم، وسأكون واقفاً عند درب التبانة في انتظار موكب النوق وغزلان بيرغن ومرور الأجراس المخبولة. هل نسيت أيام الكمائن في الأرض الحرام أيام البرد والسهر والجوع والوحل؟ هنا الحرب الحقيقية. أن تموت على صدر طليق كسهل أشقر أفضل ألف مرة من ميتة تافهة في بركة وحل أو بول. سأذهب الآن وتصبح على انفجار سيارة مفخخة أو عبوة ناسفة أو سقوط عمارة في مدينة عربية أو انهيار جسر أو انقلاب شاحنة أو سلطة.

قلت:

. تصبح على انفجار نهد.

. هذه هي الحرب الوحيدة الحقيقية. الباقي حروب ديوك.

هذا هو قاسم شريف القادم من سجون وحروب وخيبات كثيرة. قاسم الحمامة كما كنت أقول دائماً، الخجول حد الحياء الأنثوي، الهش

كسنبلة، والرقيق كنسمة، الهادئ كأمل طفولي عذب، هو الآن قاسم شريف آخر في شراسة نمر وفي هدوء إعصار وفي صخب البحر. مرة كنا خارجين من مرقص مكسيم في بيرغن بعد منتصف الليل عائدين إلى المنزل حين خط على جدار محطة القطارات المركزية القديمة بالحجارة: تعيش الثورة الجنسية. تسقط الحرب الأهلية القادمة.

أغلقت التلفاز على مشاهد الحرب ورحت أبحث عن محطات أخرى. لكن الثلج كان قد بدأ يضرب النافذة الكبيرة مع عويل الريح، كان مصباح الشارع راسخاً في مكانه كما لو انه مصباح في لوحة خارجية. كان المصباح يقف مشعاً فوق جسر صغير أو قنطرة . إنه ليس مصباح تلك الشوارع الطينية التي تبدو في الليل كشوارع رمادية متراصة.

قررت النزول إلى القبو أو عرين الأسد كما تسميه كاترين أو مأوى الأرواح كما يسميه قاسم شريف أو العالم السفلي كما اسميه أو البرزخ كما يسميه يوسف البابلي. نزلت اردد أغنية سومرية:

"بعد أن تطفئ القمر، وتسحب المزلاج":

( يا حبيبي، يا ذا الشعر الكثيف، أنت لي

يا ذا الشعر الكثيف مثل نخلة، أنت لي

يا ذا الشعر الكثيف مثل أغصان طرفاء ملتفة

يا صاحبي، يا ذا الشعر الكثيف، ستة أضعاف

شده على حضننا، يا حبيبي).

عند النزول إلى القبو نسيت أن أشعل المصباح. تذكرت قول بورخيس:

(من فرط التفكير بالخلود، تركنا الغسق يطبق دون أن نشعل

المصباح).

كنت أهبط على إيقاع الأغنية على السلم الحجري كما لو أنني كنت

أهبط فعلا إلى مثوى أسطوري. لم تعد الصور واللوحات التي كنت قد

وضعتها على جانبي السلم مرئية في هذه العتمة. صور صحارى وغابات

وقناطر وسهول وطيور ونجوم وحدائق ومساجد قديمة وأديرة حجرية

جبلية مظلمة بالأشجار وصور نساء عاريات على سواحل بحار أو في

غرف النوم أو على خيول برية، صور أسود وفهود وثيران ومعابد وعربات ملكية تجرها أيائل أو أسود.

في الظلام والسكون لم اعد اسمع صوت مرور الريح وسقوط الثلج .  
خلال الهبوط إلى أعماق القبو، سيطرت عليّ حواسي الأخرى المختبئة  
في العتمة الداخلية وفي الليل الباطني والدم والغريزة. صرت اسمع ما لم  
اسمعه في أي مكان آخر، وأرى ما لم أره في أوضاع سابقة في النهار،  
وأتحسس صلابة العتمة والصمت ورائحة معتقة لأزمة متلاشية، كنت  
أشم رائحة لأزهار ونساء وأمطار وفصول ومدن ورحلات ودروب لم تعد  
موجودة. وكانت الأغنية تتردد في داخلي:

( وعندما سيدخل القمر بيتنا

سوف أطفئ النجوم على مساراتها

أي اصهرنا، عندما يأتي الليل

أي اصهرنا، عندما يكون قد انتهى النهار

وعندما سيدخل بيتنا القمر،

وعندما أطفئ القمر في الأعالي

عند ذلك، سوف اسحب المزلاج من أجلك...)

وضعت يدي في الظلام على الجدار، فأشعلت الضوء خطأ. ظهر رأس الأيل المنحط على الحائط وقرونه الملكية المتشابكة هدية كاترين الجميلة لمناسبة ذكرى هروبي من الوطن. كانت تقول لي دائما عند الحديث عن الهروب :

. كيف يمكن لمجنون أن يهرب من هذا الجحيم والنيران في كل مكان؟  
ألغام تحتك، وعدو أمامك، ونيران خلفك؟

. نار الداخل أقوى، كاترين. لا يشرب السم إلا من في قلبه داء. هل

سنظل نتحدث عن الهروب وننسى حقلك الذهبي؟

قالت ضاحكة ومسرورة:

. هل يشبه حقول الألغام؟

. إلى أبعد حد باستثناء أن الموت في حقولك مطمئن في إثارته.

. تكلم بلغة جسدك، أرجوك.

. استلقي إذن في عرين الأسد عارية كقنطرة للشهوات.

كانت كاترين الهاربة هي الأخرى من العتمة والضجر وحروب العزلة والانتظار والثلج، تتعري داخل القبو أو عرين الأسد دون أن تكف عن النظر إلى قرون الأيل المتشابكة والمتوهجة تحت ضوء علوي. كانت تلك القرون تبدو لي عند النظر إلى كاترين وهي تتعري كطقس مقدس من طقوس عالم أسطوري منقرض حيث السرير والعري والقبلات والنوم والملامسة والنزول إلى الفراش وممارسة الحب تتم في مناخ طقوسي وقور ومثير ونقي.

كان للعري، وليس التعري، مهابة الموت والضريح. هذا الجسد المذعور من ثيابه كطائر مداهم، هذا النهذ الهارب من عرينه كفهد أفريقي صغير، هذا النهار الواضح والصريح والطلق كسهل آسيوي مشتعل، هذا الموت الأسر الشقي العذب الحار، هو الذي يمنح هذه المغارة شكلها البشري. كانت تردد كلما نزلنا إلى القبو:  
كلما نزلنا خيل إليّ أننا لن نصل إلى نهاية القبو.



كنت أريد أن أقول لها إن هذا صحيح تماماً، فنحن لن نصل أبداً إلى أعماق القبو الحقيقي مهما وصلنا النزول على هذا السلم الحجري. القبو العميق، البدائي، قبو العتمة الداخلية ومأوى السر والشهوة والغريزة والليل الروحي المعتق، ما يزال نائياً وبعيداً ومقصياً في ظلمات مستحيلة.

الآن أجد نفسي أنا الهابط من شاشات الموت، ومشاهد الجثث، وصورتي القديمة وسط الخراب والجنون والدعارة والغبار والرائحة والدخان، داخل القبو وحيداً إلا من قرون الأيل واللوحات القديمة والقناني الفارغة والتماثيل الخشبية هوية كاترين المفضلة ورائحة ليل صيفي قديم وفراش أرضي للموت العابر والجنون الطارئ تحت نظرات الأيل الضاجة بالسكون والفوضى والعتمة.

كنت أقود كاترين إلى القبو بشعور صقر أو أسد أو ضبع يقود فريسته إلى عرينه الخاص، إلى جحر الموت واللذة والسقوط والجمال والجنون والشهوة والعري. كانت هي الأخرى تمارس لذة نزولها إلى الأسفل ببراعة ولذة وإتقان. تبدو صامته وهادئة ومهتاجة كذبيحة عيد

مقدس أو كقربان إلهي في هذا المذبح السري الواقع بين مجرى العاصفة الثلجية والقنطرة وأشجار الصفصاف والسرو وآثار الأيائل في الفجر.

هل كنت أعيد صياغة جسدها من جديد كي أعيد صياغة جسدي المتناثر؟ هل كنت أدخل معها في لعبة الموت الطقسي والعري والجنون والملامسة على لحن الأغنية القديمة(بعد أن تطفئ القمر، وتسحب المزلاج) كي أنفض من قيامتي الجديدة بعد كل تلك السنوات من النفي والخراب والموت السهل ومصادرة الجسد للحروب والسجن والهروب المتكرر والبحث عن الضوء والدفء والشهوات المؤجلة؟ ولماذا يأخذ طقس النزول إلى القبو كل هذه المراسيم التي تشبه أعياد الصيف والأراجيح ومواسم الذبائح وطقوس الجنازات والدفن وأفراح الختان ونهارات موت الأطفال ومواكب العزاء والرايات السود ومشاهد ذبح الثيران والشموع والأرغفة والتراتيل في الليالي المقدسة؟

أذكر في ليلة صيفية،صعدتُ إلى السطح لكي أتفرج على مشهد ذبح ثور كأضحية في عيد مقدس على ضوء القمر. شعرت على نحو

غريب أن هذه جريمة وليست طقساً رمزياً عن القرابين. كان الثور قد قاوم حتى النهاية موته الوحشي ومحاولات إسقاطه بربط قوائمه ثم دفعه لكنه ينهض من موته وهو يرتعش، عرقاً. أخيراً انهالت عليه السكاكين وتهاوى كشجرة ببطء على بركة دم. كنت على وشك الصراخ. ماتت الصرخة في الأعماق مثل كل الصرخات لكي تخرج من الذاكرة بعد عشرات السنوات من الرقاد تحت قارات المخ الغارقة في الظلام والدم.

هذا القبو هل هو قبو حقيقي أم وجهي الآخر السري؟ هل هو قبو أم رحم؟ هل هو مكان أم نفي؟ هل جسد كاترين جسد امرأة أم جسد تاريخ الموت والحرب والشهوة والجنون؟ هل أنا رجل أم أيل معلق على الجدار؟ سمعت جرس الهاتف يرن مرة أخرى. عثرت في الفوضى والعتمة الشفافة على هاتف القبو الصغير.

. أين أنت؟

سألني قاسم شريف. قلت:

. في القبو.

صرخ:

. في القبو؟ من الحرب إلى القبو؟ هل أنت خفاش؟

سألته بصوت ذابل:

. وأنت؟

. أنا؟ أنا بين غزالة برية التقطتها تحت الثلج وهي خارجة من المرقص

إلى منزلها البعيد في ضواحي بيرغن.

. أين هي الآن؟

أجاب ضاحكا:

. الآن؟ الآن هي عارية في السرير كشجرة تلمع تحت المطر أو

عصفورة ترتعش من الحمى. هل تستطيع أن تتحمل مشهد هذا الجسد

الهارب من الثوب والقانون والعرف والعائلة والطقس والحرية والثورة

والديمقراطية والاشتراكية والتبن وان تتوازن يا حطب الحروب ومنفضة

المدافع؟

. هل هي عارية تماما؟

بدا سؤالي لا معنى له غير الرغبة في الكلام وتجنب الصمت:

. أنت مجنون؟ كيف تدخل فراشي امرأة بثياب الجنرال؟ وأين؟ في

النرويج؟ قلت أنك في القبو؟ أرجوك أخرج إلى الحرب في الأقل.

سمعتة يضحك وهو يكلم المرأة في السرير.  
قالت إنها لم تكن نائمة وهذا الحديث لا يزعجها وطلبت منك  
عندما قلت لها انك في قبو ووحيد في بلدة أورستا أن تخرج الآن وتشرب  
نخب إيفار آسين. تقول هل تعرفه؟

. طبعا، واضع اللغة النرويجية الحديثة ولد وعاش ومات في اورستا وله  
نصب تذكاري قرب البنك والكنيسة وميناء القوارب وفندق الفاينكنغ.  
. قل لي أرجوك ما هو اسم هذه الأغنية التي ترددها دائما ؟  
. بعد أن تطفئ القمر، وتسحب المزلاج.

سمعتة يتحدث معها:

. تقول هل عندكم قمر جميل؟  
. قل لها نعم. ولكن أضعناه.

قال:

. أنت تريد أن تتحدث عن كل الخسائر القديمة وهي فادحة حتى في  
هذه اللحظة. هذا سرير أيها الكاهن وليست جلسة اعترافات؟ أخرج  
من هذا القبو.  
. إلى أين؟

ضاع صوته دهنراً ثم عاد بصوت مهجور كبرية يابسة:

. كل الرعب في هذا السؤال.

قلت لكي اخفف من التوتر:

. لا تقلق عليّ. تصبح على عري .

كنت استطيع، عبر نافذة صغيرة في جدار القبو، رؤية جانب الطريق  
الخواوي والعاصف والمضاء بنور المصباح الوحيد فوق القنطرة، وبعض  
أشجار الصنوبر والدردار والصفصاف والسرو وهي تصارع الريح،  
وأضواء الخليج المنعكسة من البيوت المطلة عليه، ومنزل العجوز المجاور  
التي تعيش مع كلابها الثلاثة الصغيرة المنفوشة الشعر، وسمع هدير الماء  
المندفع فوق الصخور وتحت القنطرة.

إنه ليس جسر جومان القديم في الجبال الذي كنت حارسه في الليالي  
الثلجية في الجيش رغم أن هدير الماء المندفع تحت القنطرة وهو يرتطم  
بالصخور أعاد بعض مشاهد قديمة عن أيام الثلج والحراسات والسهر  
والريح والعواصف والليل الحجري المظلم في تلك البلدة الجبلية النائبة،

وفي وديان الجبال، أو في شوارع ديانا المدمرة خلال سنوات الحرب في عام 1974 أو في شوارع خرمشهر التي صارت أنقاضا، أو في ممرات كلي علي بك أو جبال زوزك، كورك، نواخين، هندرين، قنديل، سكران، حصاروست، أو على جسر ميركه سور، أو في مرتفعات كيلان غرب في حرب الخليج الأولى أو جبال كرده مند التي قتل فوقها قريبي وتركت جثته في العراء الثلجي لو لا شهامة صديق، أو ممرات كولينا. إنها مشاهد وأماكن من حروب وأزمنة مختلفة.

لكن هذه القنطرة أو الجسر الصغير تحت المصباح العاري والشاحب، في هذا الجو العاصف، وفي هذا القفر البشري الأعزل، الخاوي من الأقدام، حيث لا يتوقع مرور كائن أو وحش أو جنازة في هذه المتاهة البيضاء، بدا جميلا رغم كل شيء في هذه العزلة الباردة. عزلة لا يتحملها غير وحش أو إله كما قال نيتشة. عزلة الشفق أو الكوكب النائي أو الرغبة المقصية أو الأمل المعتق المنتظر أو عزلة ضبع خائف من النهار والمطر والريح والرائحة البشرية والدناءة والقتل والجنون الحقيير الساذج المفتقر لمهابة الجنون الحقيقي.

على جدار القبو لوحة قديمة لهذا الشارع الذي يلوح الآن مقفراً إلا من العاصفة والليل والثلج والريح والضوء الشاحب وهدير الماء فوق الصخور. اللوحة تعكس مناخاً شتوياً مثلجاً حيث الثلج يكسو الشارع، وتظهر السماء زرقاء مبقعة بالأصفر الشاحب. بيوت على يمين الصورة وعلى اليسار: في ذلك الزمان المنقرض البيوت متداخلة ومتراصة. تظهر نوافذ المنازل في اللوحة مضاءة بضوء عائلي حار وأليف وبهيج في مناخ الثلج المسيطر. تظهر المداخلن وهي تنفث دخانها في الريح، وفي اللوحة أعمدة مصابيح خشبية مصبوغة باللون الأحمر، وأشجار سرو مغطاة بالثلج، وامرأة وطفل ورجل يعبرون الشارع وفوق على شجرة صنوبر على الأرجح غراب يقف على غصن، في نهاية الشارع أربعة أطفال في أوضاع وزوايا مختلفة، وسلسلة جبال بعيدة مثلجة قد تكون الجبال المؤدية إلى خليج كايرنكر الشهير وهو من أجمل خلجان النرويج بجباله الصخرية الحادة، والشاهقة، وشلالاته التي تحمل حكايات كشلالات الأخوات ، أو الخطيبة المحجبة، ويجذب عبّارات السياح التي تحمل أسماءً مختلفة في كل لغات العالم، وجانب من جدران الكنيسة والمقبرة.



هي اللوحة التي استخدمتها كغلاف لرواية (سنوات الحريق).

قالت لي كاترين يوما إن الرجل الذي يظهر في يمين الصورة ويحاول عبور الشارع قد مات منذ زمن طويل، وأن المرأة الوحيدة في الصورة قد ماتت هي الأخرى، أما الطفل فهي لا تعرفه على وجه الدقة. قالت إن البيت الأول على اليمين، بيت المدخنة، قد سكنت فيه عائلة من أقاربها فترة من الوقت، أما المنزل الكبير بالطوابق الثلاثة وهو المنزل الوحيد بهذا الحجم في البلدة في تلك المرحلة، فهو الآن مطعم وبار تقليدي على الطراز القديم، كنا قد جلسنا فيه مرتين كاترين وأنا وقاسم شريف.

أكلنا وشربنا على ضوء شموع هادئة وتحدثنا كثيرا عن الحرب والصلاة والجنس والجنون والمرأة والسفر والعنصرية والدين والثلج والصيد والبحر والصخور والعري وبابل والفرات والتوراة والقرآن والحرية والموت وطقوس دفن الموتى وتراتيل الموتى وصلاة المطر والحب والحرب وجنون العرب بالنساء والخيل والخمر والحيوية والشعر.

قالت لي كاترين في تلك الليلة:

. قاسم شريف وجهك الآخر.

. كيف عرفت؟

. كيف عرفت؟ لست غبية إلى هذا الحد لكي لا أعرف.

. أريد توضيحا، إذا كان هذا ممكناً؟

. أنت تتحدث عن الحرب وهو يتحدث عن السجن أو العكس. هو

يتحدث عن عبور الحدود وأنت تتحدث عن إلقاء البوليس الباكستاني

القبض عليكم، هو يتكلم عن العشق وأنت تتحدث عن السلاح، هو

حزين لفشل الحلم في الثورة وأنت تتحدث عن الأمل في المرأة. إنه

صورتك الأخرى.

قلت :

. أنت، أي وجه تمثلين؟

. لم افهم.

. انتِ أيضا جزء من وجوه هذا المنفى الذي نعيشه. يخيل إليّ انك

أنتِ أيضا هاربة من أشياء كثيرة.

سألت وقد بدت على وجهها علامات الجدية:

. من هذه الأشياء، مثلاً؟

. العزلة، والثلج، الريح، أنانية الآخرين، طقوس العيش داخل الجسد  
والمناخ القاسي والسكون ولا مبالاة الجيران والأصدقاء. أظن انك مثلنا في  
منفى آخر.

. هل تعتقد ذلك؟

. نعم. بل أنا على يقين.

. هذا صحيح. مع فارق واحد هو أنني فوق ارضي.

. إذا كنت تعتقدين بذلك فأنت غبية. المكان الحقيقي غائب.

لا أدري إذا كانت كاترين قد فهمت أم لا، لأنني لم افهم كلامي  
بصورة جيدة. لكن قاسم شريف علّق، قائلاً:  
. كلنا أجانب على هذه الأرض.

ضحكت هي:

. قد يكون ذلك مفيداً لتخفيف ضراوة المكان.

سألته على الفور:

. بالنسبة لك؟

. لا. بالنسبة لكم.

\*\*\*

صقر قديم من صقور بلدة جومان هبط من الجبل الآن من الذاكرة  
وانحدر نحو حقول خضراء شاسعة لا حدود لها، وفوقها بساط من  
الأزهار الضاحجة بالعطر واللون والنور. انه صقر خلق لكي يعطي السماء  
جمالاً خارقاً وإضافياً. هذا الصقر اختفى الآن حالا عند مرور الريح من  
فوق الجسر، وربما هي الريح ذاتها التي مرت فوق مدخنة الصورة أو جدار  
المقبرة.

الشارع فارغ إلا من عواء الريح، وعواء ضبع الشهوة، عواء هذا العراء  
الثلجي المفتوح على الليل والنور والصخور والصمت وهدير الماء. جسد  
كاترين صورة طبق الأصل من هذا العواء. جسد خلق للنظر والشم  
والحس والتذكر.

جسد، تاريخ. أنثى متمردة على القاعدة والطقس والذاكرة والتعاليم.  
جسد منذور للمطاردة واللهات والجنون والذكرى والحسرة والكتابة

والحكاية والموت الطقسي. ليس جسداً في الواقع، بل حديقة غامضة للذهول.

قال لي قاسم شريف مرة عبر الهاتف:  
- اعتقد انك استبدلت الوطن بجسد كاترين.  
- هل تعتقد ذلك؟  
- أكاد اجزم.

قلت:  
- والذاكرة؟  
- أنت تعمل على خلق ذاكرة جديدة.  
- كيف؟

- نزولك المتكرر للقبو وطقوس الذهول والتذكر والصمت وحيداً أو أمام جسد كاترين. أخشى عليك من الجنون أو ولادة سريعة مشوهة من رحم مستعار. أعرف بصورة جيدة أنك تمارس طقس ولادتك بنفسك هذه المرة.

قلت ضاحكاً:

. كل واحد منا له قبوه يا صاحبي الأخير. ماذا تسمي عدميتك

الجديدة؟

. لم أعد أسمى. أسوأ ما فينا هو منح كل الأشياء والأحاسيس أسماءً

وهمية. في الماضي كنت أشعر بأني صرت قاموساً متجولاً. هنا فقط

تعرفت على جسدي. هل يخطر ببالك أن رجلاً مثلي بعد كل هذه

التجارب والحقب والسجون والحروب والمنافي يتعرف أخيراً وفي منعطف

شارع على حقيقة جسده كما يعثر المرء على نفسه في الطريق؟

. كاترين، يا قاسم، امرأة ورغم كل المرح الظاهري هي شقية. كل واحد

منا تعرف على حقيقة جسده بعد كل تلك المنافي السرية والداخلية التي

يفرضها المجتمع وسلالات الدم وقوانين قضاة المقاهي وكل مراكز الأوبئة

والنفاق والباطنية.

وأضفتُ بصوت متوجع:

. كنتُ أريد أن أقول أيضاً: هنا تعرفت على المطر الحقيقي، لأن مطر

السنوات القديمة كان ينهمر علينا في أزمنة شاحبة، أزمنة حروب، أو

سجون، أو فقر، أو ذهول. هنا تعرفت على غيوم الربيع لأول مرة

وشاهدت هجرة الطيور وعناق العشاق وطيран الفراشات. ربما تتذكر

كيف كنت أردد في السجن الباكستاني حكاية الأسطورة البوذية عن الفراشات التي تحط على صدور القتلى المهزومين أو على صدور المنتصرين النائمين. حدثك عن فراشات أسطورية لكن ليس عن فراشات حقيقية. كما تعرفت على جسدك في منعطف طريق، تعرفت عليه أنا في سرير أو مقهى أو على ساحل رملي معبأ ببريق أجساد تلمع تحت وهج الشمس أو أن الشمس تلمع تحت وهج تلك الأجساد. نحن لم نكن منفيين عن المكان فحسب، بل عن الجسد والرغبة والشعور والعقل والتاريخ والسلطة والحكمة. حين لا تستطيع أن تمارس جنونك العلني أو السري الوديع في حضور الآخرين أو في غيابهم، فهذا نفي. الجنون وجه العقل الآخر وليس نقيضه. إنه كالموت ليس نقيض الحياة بل وجهها الآخر. كنا نقيم في منفى الثنائيات التافهة وفي وطن الكلمات: الوطني وغير الوطني، المؤمن والملحد، الشريف وغير الشريف. من يحدد هذه المقاييس؟ نحن أسرى المؤسسة، والثكنة، والسجن، والقاعدة، ولم نكن نسكن أجساداً، بل كنا نقيم في زرائب. شعرت في النهاية أن جسدي صار زريبة عفنة. تسألني عن القبو يا قاسم؟ أنت في أقصى لحظات عريك في السرير، في أقصى حالات العزلة والشبق

والجنون، تحمل قبواً سرياً في الداخل. إنه، لكي لا تتعب، ذاكرة مؤسسة.

. عن أي شيء تتحدث؟

. عن ذاكرة المؤسسة.

. لم افهم. يبدو أنك تهذي.

. ربما. تصبح على سطو مسلح لأقرب بنك في بيرغن أو على جسد

يموت في فراشك في الليل ولا ينهض من موته الملكي إلا في النهار.

خرجت أصابعي من نافذة الجدار الصغيرة لتلتقط الثلج وتقيس برودة

الهواء وتتعرف على الحدود خارج جسدي ولكي تتلمس شكل العزلة في

هذه الدروب الموحشة والمغلقة على كل شيء ماعدا الريح والعاصفة

والثلج. في هذا المكان بالذات تعرفت على جسدي أكثر. هو الآن

يتشكل على هواه. مرة يأخذ شكل عاصفة ثلجية ومرة أخرى شكل

شجرة تكافح وسط الريح أو شكل حمامة تريد العودة إلى مآذنها الزرق

في مدن محرومة من الفرحة والرغيف والنوم والحلم.



رأت أصابعي الفجر يخرج من بين قمم الجبال الغارقة في الضباب  
والنور السماوي الشفاف. أصابعي ترى كما يسمع جلدي . ليس فجر  
الخطوط الأمامية المحمر والمحترق والمثقوب بالرصاص ورائحة الموت، بل  
فجر الحافات الجليدية المشرقة بالضوء الأبيض الخمرى الناعم، والذي لا  
ييزغ إلا على موسيقى سرية تصدر من الحجر والماء والأشجار والعزلة  
والمطر والدفء.

كنت مفتونا بهذا الفجر رغم انه يداهمني في كل مرة وأجفل منه  
كغزال تداهمه الشهوة، يجفل من المطر والسكون وصوت تساقط الأوراق  
أو تفتح الأزهار أو تشقق الأرض أو بزوغ القمر من بين الأغصان في  
الليل الغابي المعتم.

أنا جزء من هذه الغابة مثل أسراب الغزلان المجفلة من المطر والريح  
والأوراق والقمر، أجفل من هذا الضوء الفجري الزاحف على الجبال  
والأشجار والطرق والصخور والجسور والأحلام والمنازل والمصاييح والثلج

المتهاوي والنوافذ المضاءة بأنوار هادئة تسيل عبر الحيطان إلى الشوارع  
مختلطة بالثلج والفجر والعاصفة. إنها حساسية ما بعد الخوف. نرجسية  
الجرح.

\*\*\*

من داخل القبو، على الضوء الناعم، ضوء المصباح الصغير المكسو  
بغطاء على شكل زهرة متفتحة، حسب رغبة كاترين، بدأت بصعود  
السلم الحجري إلى السطح مروراً بصور ولوحات ومنحوتات لأسد بابل  
وعربات ملكية تجرها الخيول والأيائل والأسود والثيران الوحشية وصور  
لصحارى رملية، وثعابين تلتوي على أشجار وأجساد ونهود، غابات  
بكر، خنادق حربية مقلوبة، صور قتلى تحت الأنقاض، عربات عسكرية  
محطمة، شوارع من رماد، محطات قطارات ومطارات وحدود وجبال  
ومخافر شرطة وأسلحة، مراقص، مبال عمومية، حدائق وثكنات،  
سجون وأسلاك شائكة وبحار وسواحل.  
مساحات الصعود الأخرى متروكة للخيال.

\*\*\*

أفتح النافذة على النهار لكي اطرده الهواء الفاسد ورائحة عرق خيول اللوحات ورائحة جسدي وزئير اسود بابل ودوي المدافع وأزيز الرصاص وصرخات المعدومين على أعمدة الموت في الفجر أو في ظهيرة الرماد والحريق، وصوت كاترين وهي تحتضر في السرير قبل أن تقوم من قيامتها الخاصة كصنوبرة مشعة من المطر والشهوة والجنون والفتنة وإغراء الموت العابر في فراش رجل هارب من الليل والسجن والثكنة والإسطنبول ومشاريع الغدر وحراب جنود العسل وزمن شعراء السوق ومناضلي البحث عن قروض وممولين للصحف والأحزاب وعصر الوشاية العارية .

كانت تقول بعد العودة من الإغماء أو الموت العابر:

- إغراء الموت على يد هارب يبدو لي منقذاً من السأم.

- أنا رجل أم حبة مهدئ، كاترين؟

- أوه، أرجوك كنت أعني شيئاً آخر تماماً. لكنك لم تعد هاربا بالنسبة

لأحد.

. من قال؟ الخلاص الحقيقي وهم. تم إفراغنا من الرغبة وحشونا بالسلطة. كاترين اسمعي ما أقوله جيداً: نحن لسنا أجساداً بل ثكنات. طاردونا حتى في منفى الجليد. لم يتركوا لنا الهرب إلا إلى الجنون أو كوكب مهجور. إنهم كالذباب على كل فنجان وعسل وجيفة.

قالت:

. أنت تبحث عن خلاص بالمعنى الميتافيزيقي. أليس كذلك؟  
. لا. في الأقل في هذه المرحلة. أبحث عن خلاص من هذا المسلخ.  
لو كنت أبحث عن هذا النوع من الخلاص، لما وجدت في جسدك محراب عبادة. أنت نفسك قلت لي مرة أنك تمارس الحب كما لو أنك في محراب صلاة. هل نسيت ذلك؟

قالت بهدوء:

. كلا. لكن ألا ترى أنك تمزج الرغبة بالصلاة وهذا حنين إلى خلاص

ميتافيزيقي؟

. ربما يكون الأمر كذلك. لكنه يبقى خلاصاً أرضياً قابلاً للإنجاز. إن أجمل ما فيك هو أنك بعد المتعة تظهرين كمهرة في قمة توثبها. هناك

امرأة تموت ويجرفها الساحل كجثة عائمة على حافة السرير بعد الموت المؤقت. والآن اقتربي.

. أنت تبدو كغيمة مطر في لحظة الشبق.

\*\*\*

كان الخليج يلوح عبر النافذة غارقاً في الضباب هذا النهار. يمكن بين وقت وآخر رؤية الطيران الزلق للنوارس وهي تحلق ساكنة في هذا المدى الضبابي الأزرق والأبيض والمعتم. كما يحدث الأمر عند اضطراب صورة البحر والطيور والضباب والحلم، تندفع النوارس فجأة في طيران مباغت وتختفي في الضباب كطيور خرافية خرجت من العتمة والثلج والضباب واختفت في السر والريح والعاصفة.

الزوال الطارئ للطيور والعاصفة والريح والضباب والثلج والظهور العاجل للمنازل والأشجار والجبال، التلاشي المؤقت، هو أكثر الأشياء إثارة لي لأنه يقلب التقليد المألوف بسكون الأشياء ورسوخ الأمكنة، حتى لمعان الصخور المبللة يبدو برقاً نائماً على الأرض كحلم نظيف.

هل هو الخوف القديم من هروب الأشياء، الأمكنة، زوال الزمن،  
الفناء التافه للجسد، ليس الفناء الطبيعي بل فناء الرصاص والحبل  
والقنبلة، غياب الفصول، موت الأشجار العلي والمستنقعات والطيور  
والفراشات وحكايات العشق والحب والصيد والشعر هو الذي يجعل هذا  
الوجود الشيق والكثيف سريع الزوال كنشوة الموت الطقسي للدراويش؟

أفتح النهار على جسدي. ليس جسدي تماما، فهذه المساحة المثقوبة  
من النهار واللحم والجنون والصفيف والنوم والرغبة والحلم هي مساحة  
محجوزة للقتل والسجن والحرب والخوف السري وثورة جسد غير  
مكتشف وجوده. أنا، إذن، احمل الآن جسدين: الأول خرمته الحروب،  
السجون، المنافي، الفقر، الخوف، وآخر للمطر والثلج والعاصفة والخليج  
والسفر والموت الاختياري فوق جسد، هاوية، فرن، جحيم، مطهر، قبو،  
رحم كاترين.

في ولادتي الثانية أحلم في النزول من رحم ما، عاصفة، أو بحر، أو نشوة، أو امرأة، أو ثورة. أدخل فيها بكل ما في داخلي من دبابات ومشانق ومخاوف وكبت وهمم ورعب وسجون وثكنات وحدود وأسلاك وأمكث هناك، في الرحم، في الليل السري المعتم، في الدم والغريزة والظلام السرمدى، في الماء المقدس، غير مرتبط بهذا العالم سوى بالحبل السري الذي ينقل الهواء والحرية والمرح والدم والرغبة وأخبار الكوارث ومصارعة الثيران وأنباء عزلة الكتاب الأطفال في المنفى.

كاترين مشغولة بالعمل والسفر وآلام الثلج وجنون التجاعيد والخوف من الموت تحت عاصفة، وحيدة، إلا من الهاتف والنافذة والريح وقرون الأيائل والصور القديمة عن رحلات إلى جبال وخليجان وبحار وصحارى ومراقص ومدن ومرافئ ومطارات وسهول وسواحل مشمسة حيث تظهر في كل صور البحر تركض على الرمل كطائر بودلير الضخم الذي يمنعه حجمه الكبير من الطيران.

هي في حرب أخرى مع الزمن، ليس حروب الاستهتار التي تسحق الناس وهم في أسرة النوم.

حرب كاترين هي حرب الطبيعة البشرية، الشيخوخة، الهرم، الموت، العزلة، الجسد، الوحدة، الثلج، الحب، الصداقة، وليس حرب الذل.

كاترين المرعوبة من جسدها، وصورتها، وعزلتها الغابية، عزلة أنثى منهكة من الهرم والمطر والشحوب والنبذ والنبذ والصداقة، تبحث، في لحظتها الأخيرة عن ملاذ من هذا الموت الزاحف على جلدها الذهبي كحقل سنابل تحت شمس غاربة، حتى لو كان رجلاً أو كهفاً أو منحدرًا أو غابةً أو جنوناً صاعقاً يرضي قيامة هذا الجسد المصنوع من الماء والوحل والقمر وضوء النجوم.

هذه الممرضة القديمة في مأوى الشيوخ والهرم والانتظار، قد يفلت منها جبل النجاة الأخير، الدقيق، فتحلق في موت مرتجل عاجل من فوق أحد منحدرات جبل حجري إلى حيث تنتظرها الصخور المسننة. جسد في صلابة غسق صيفي وحرارة نهار آسيوي مهلك. حتى الآن، تحاول التمسك بجبل النشوة، وكما تقول أحيانا ضاحكة:



. هل تدري؟ الحكمة سجن النشوة. النشوة تحرر.  
. عندما تكونين صادقة أشتهيك بولع. الصدق عري.

ليس عندي صور رحلات صيد أو حفلات عري على سواحل  
مشمسة أو على رمال ذهبية أو في جبال زرقاء مشعة بالنور وبقايا الثلج  
أو في خلجان مسحورة غارقة بالضوء والسر والسكون والأشجار وبريق  
الصخور.

أنا أسافر على خطوط أخرى وصوري من نوع آخر: على خطوط  
الريح والشاحنات وحاملات الجنود والناقلات، أو في سيارات نقل الموتى  
بعد نوبات التعذيب، أو في عربات نقل الجنود الجرحى، أو على أذرع  
رجال الفجر في معتقلات منسية، أو في مدرعات الهجوم والهجوم  
المقابل، لأن جسدي مفرغ من الشهوة ومعاً بالثكنة. ليس جسداً، بل  
شريط أسلاك شائكة يلتف حول عنقي كي لا أخون خطوط الموت  
والعتمة.

يحلو لي هنا أن ألعب لعبة خرق حدود الخوف القديمة. لا أنام في الليل أحيانا مثلا. أخرج في العاصفة والرياح والثلج والضباب لكي أكتشف قدرتي على الحركة غير المحدودة والمقيدة. أتوغل في غابات كثيفة في الليل أو في نهار عاصف تنعدم فيه الرؤية. أريد أن أرى ابعده مما يمكن أن أرى. أريد أن أغامر بهذا الجسد المسروق والمنفي، الجسد الرهينة، إلى أبعده مدى. أمارس الجنون البشري في التيه الثلجي، أو تسلق الجبال، أو في القفز من فوق جرف صخري إلى هاوية محتملة.

أن أمارس الحب أو اللّعب حد الإغماء. أصرخ، أهرب، أتخيل، أشطح، أركض على شريط من الجمر كدرويش، افتح النافذة على النهار والخليج والضباب والأبدية. أحرق الرصانة والوقار والملاح الصارمة المستعارة من القانون وأفتح نوافذ الجسد. أمضي في دروب غسقية غير مكتشفة. أغني لنهار قادم بقلب جريح.

أحاول أن ألعب مع الهواء والفراشات وأركض مع بزوغ الغبش الأزرق، أو خطوط عزلة نجم مشع. أريد أن الانغمار في الطين، كثور أعمى، واشم رائحة الأرض.

\*\*\*

قال لي قاسم شريف يوما وهو يدخل منزلي في أورستا قادماً من بيرغن

في الصباح:

. أنت تبدو مسافراً في السرير.

قلت وأنا اجلس:

. هذا هو المواطن اللقلق، نهاجر من بلد إلى بلد ومن منفى إلى منفى

ومن قارة إلى قارة داخل وخارج السرير كما يهاجر اللقلق من منارة إلى

أخرى. هذا هو المواطن الجديد بعد ربع قرن من الشعارات. كيف

الطقس في الخارج؟

. شمس وأفخاذ ونهود في الحدائق. الصيف النرويجي مجنون وهذا العري

إرهاب. أنت تتحدث عن اللقلق وأنا عن العري. دخلت قبل لحظات

إلى محل للتسوق فغمرتني موسيقى حاملة تنبع من الحيطان أو الأجساد

شبه العارية. لكن صورة قدرة داهمتني فجأة عن معركة في الجبال أفسدت

المنظر كله وخربت أحاسيسي. أنت على حق عندما تقول أحيانا إن

النجاة من الحرب مستحيلة.

قلت:

. اندريه مالرو قال ذلك. هل يخطر ببالك أن يتذكر المرء جثة وهو في لحظة شبق؟ حدث معي ذات مرة. مرة كنت في رحلة قطار عندما داهمني كابوس عن السجن بلا توقع. تشرب في النهار؟  
. هذه زجاجة عرق محلي من صنع عراقي. الإخوة هنا صاروا خبراء في صناعة العرق المنزلي بعد الخيبة من حلم الثورة. هناك من صار خبيراً بلحس الفرج بعد كل سنوات التصوف والرهبانية والسجون التحت أرضية. كل واحد منا قد اكتشف حقيقة جسده المخفية. لم نكن في الأمكنة الحقيقية فيما مضى. كنا نسكن أجساداً من شعارات وجمل وبيانات. هنا باغتتنا أجسادنا ورغباتنا.

ضحكت، قائلاً:

. ماذا تبقى لنا من هوية كي نتمسك بها في هذا الاقتلاع؟ إذا كان الجسد والرغبة والدم والذات والعقل والسيقان والحلم والطريق لم يعد ملكنا، فعلى أي شيء نتكى، إذن؟  
قال قاسم:

. لا حاجة للاتكاء على شيء بعد اليوم. لم يعد مطلوباً المحافظة على التوازن. التوازن القديم هش وكاذب ورخيص. سأعمل على الإطاحة بكل عناصر التوازن الملقق. هل أنت مصمم على البقاء في عزلة أورستا؟ . نعم. المنفى ليس مكاناً فحسب بل هو منفى اللغة والروح والقلب. لم أعد افهم أحداً.

. حتى أنا؟

. حتى أنت لم أعد أعرفك جيداً. هل تظن أنك تعرف نفسك الآن جيداً؟ التوازن القديم الملقق والهش الذي تتحدث عنه هو كل ما كان يجمعنا. الإنسان لا يتوازن على حفنة قيم ونصائح، بل على وضع مستقر وعادل. انه جسر المعايير بيننا. الآن نحن غرباء في هذه الغرفة. بل غرباء حتى عن أجسادنا. هذا هو المنفى الثالث.

. الثالث؟

قلت:

. نعم. المنفى الأول هناك في الوطن. منفى الكلمات والعقائد واللغة. كنا نعيش في أوطان ورقية. كنا نعيش في وطن لينين وماركس وبودلير وجيمس جويس وشكسبير ورامبو وسارتر وكامو ومكسيم

غوركى. المنفى الثاني هو هذا المكان. أما الثالث فهو أكثرها ضراوة  
وشراسة وهو الجسد. ألم تقل بنفسك قبل لحظة انك لم تعد تتعرف على  
جسدك، وانه صار يتمرد عليك؟ هل كنت تستطيع سابقا أن تتمرد  
على عريف في الجيش؟ عضوك الذكري الآن أكثر شجاعة منك. ألم تقل  
ذلك؟

. نعم قلت.

. هذا هو المنفى الثالث.

قال قاسم شريف وهو يفتح النافذة على نهار مشمس ونادر في  
أورستا:

. والحل؟

قلت ضاحكا:

. اليوم خمر وغدا أمر. هات الزجاجاة أولاً.

\*\*\*

أفتح النافذة على النهار الفار والعاصفة والطريق والخليج والنوارس  
والجبل. عثرت قرب المنزل على آثار أيائل قرب حاوية النفايات. تتسلل  
في الفجر المعتم من الغابات القريبة المكسوة بالثلج بحثاً عن طعام. إذن  
زارني أحد ما، كائن، أو حيوان، أو عاصفة، أو ريح، أو طائر.

قررت الخروج في هذه العاصفة الثلجية والتجوال في الشوارع. كلمة  
تجوال ليست دقيقة. يجب أن أقول التيه في الشوارع. هذا الضرب من  
التيه تجربته مرات في أمكنة مختلفة. إنه نوع من الهرب والبحث والجنون  
والشهوة. قد يكون الخروج من المنزل والقبو وجهاً آخر لهذا الهرب أو  
التيه.

إذا كان القبو رحماً، وجسد كاترين رحماً أو مأوى أو ملجأً، فلماذا لا  
تكون العاصفة هي الأخرى وجه الرحم الثلجي الأبيض؟ لكن من سيولد  
في هذه الحالة: أنا أم الريح؟ المطر أم الجسد؟ النهار أم الرغبة؟ وعلى  
أنقاض من؟ الثكنة أم المؤسسة؟ الأسلاك الشائكة أم قضبان السجن؟  
من سيموت في هذه الولادة؟ الفأر أم الرجل؟ الحكمة أم الشهوة؟ الحرب  
أم الجنس؟ وطن الكلمات أم وطن التراب؟

خرجت إلى العاصفة ودخلت فيها كما يدخل دب قطبي في متاهة الثلج، أو كما يدخل درويش في حلقة نار، أو كما يدخل عربي في صحراء الغبار، أو كما يدخل جندي في الدخان، أو كما يدخل المرء في عرين جسد مشتعل، أو كما يرمي جواد نفسه في وجه جدار ليلي ويسقط تحت نجوم عريقة في القدم كصحراء سحيقة.

العاصفة الثلجية تضرب في كل مكان. اختفت الطرق والأشجار والمصايح والمنازل والخليج. توارت السماء. لا شيء يدل على الأرض القديمة عدا هذا الوفر الثلجي الأبيض وصوت مرور العاصفة وهو الصوت نفسه في كل الأزمنة.

دخلت في الأبيض الأبدي بقامة رجل أعزل إلا من الأظافر والمعطف الواقية من المطر والثلج والريح، وقلب متوهج لرؤية الضباب وسر العاصفة وعصف الريح وأشكال الثلج. كنت أريد أن أضع نفسي في مواجهة قوة عاتية تقتلني بهدوء وجمال ومهابة واحترام. كنت أريد، إذا كان لابد من ذلك، أن أموت في مواجهة عاصفة، أو أولد، لا أن



أموت في مواجهة قوة غاشمة تافهة تفتقر حتى لمهابة القتل وشاعرية  
المأساة. موت أو ولادة في مواجهة الأشياء الكبيرة والجميلة والساحرة  
والبهية والعاصفة والمبهرة والمعطرة والغامضة والمجنونة جنون طائر مغرد  
فقد عقله فجأة.

لم تعد هناك خرائط أو علامات سوى مصايح سيارات بطيئة في  
قلب هذا النهار الجليدي. كنت أعرف الطرق جيدا على خارطة القلب.  
إذا كانت الطرق واضحة، فما حاجتنا إلى الحكمة، بتعبير ابن عربي؟  
الآن أنحدر نحو المقهى المطل على ساحة البلدة.

قبل الوصول إلى المقهى غيرت وجهتي إلى السوبر ماركت. عند المدخل  
سمعت موسيقى هادئة ناعمة مخصصة لأفراح الخيول في الربيع ومرح  
غزلان البرية أو ممارسة الحب عند طيور صغيرة بحجم الإصبع، أو رقصة  
صبايا في بياض الحليب والثلج والفجر في مدرسة البالية القريبة من منزلي  
أو قبوي كما يحلو لكاترين أن تقول.

أنقذتني الموسيقى من عاصفتين: واحدة في الداخل وأخرى في الخارج. ضوء المحل الكبير الساطع، الزاهي، الملون، وجموع المتسوقين، وعربات الأطفال، صور أغلفة الكتب، صور أبقار البضائع والخيول والطيور والعصافير والحقول والسهول والجبال والحدائق والسيقان والنهود والوجوه والعيون الزرق والشعر الأشقر لفتاة مرت كعاصفة ذهبية من الأجراس المخبولة والشهوات المشعة، كل ذلك جعلني أدخل في عاصفة كثيفة من الوجود البشري.

العاصفة الثلجية ومشاهد البياض اللانهائي يعطي المرء انطباعاً غير حقيقي عن مساحة العالم. داخل البياض الثلجي والمتاهة الأنيقة المعتمة، تشعر أن حدودك هي كل المساحات وليس هناك، خارجك، أي وجود أو كائنات. هذا نوع فريد وآسر من النشوة والانخراط والانغمار الذي يشبه النعاس أو الموت العذب أو هدوء التعب الجميل أو نعاس ما بعد الحب. لكنه أيضاً نوع فريد من الخوف لمن تزحف الصحراء تحت جلده منذ عصور سحيقة. قد ينبثق في أية لحظة، من داخل صحراء الثلج، خطر ما أو كائن أو شبح قديم نائم في ذاكرة أيقظها الثلج والعري

الأبيض، الباذخ، الشرس، المتوهج حتى في برية البياض وعبر معاطف  
المطر.

مر معطف، خطفاً، كوهج أو برق. مر معطف يقطر منه المطر  
والشهوة والعطر ورائحة أزهار برية معتقة من أزمنة عتيقة. مر كما يمر  
قمر أشقر أمام نافذة ززانة. مرت العاصفة. مرت الأزمنة. مرت الريح.  
مرت خيول البرية، نافرة، هائجة، مستفزة، مستثارة.  
مر سرب من النجوم المحترقة وهو يدفع عربات التسوق. مرت الحرب.  
مرت القنبلة. مرت سيارات الإسعاف. مرت المشنقة. مر العازل. مرت  
السلطة. مر المنفى. مرت عربات الأسود البابلية. مر عبيد الأزمنة  
القديمة، الجديدة. مرت المرحلة التي لا تتوفر فيها شروط الثورة الموضوعية  
كما كانوا يقولون في كتب البغاء السرية.

قال لي قاسم يوما، غاضباً:

. كل قادة وزعماء العالم يموتون إلا زعماء الأحزاب السياسية العراقية.  
حتى عندما يموت أحدهم، عن تسعين سنة أو ألف، يخرج لنا بعد ربع

قرن بمنصب جديد وسيرة ذاتية عن مؤتمرات كما لو أن تاريخ العراق هو تاريخ كونفرانس، ويضع على الغلاف صورته في أيام المراهقة. من كان عضواً في مكتب للعلم السياسي في منتصف القرن العشرين، يظل هو نفسه في كل القرون. رغم كل الأخطاء والجرائم فلا أحد منهم اعتذر أو استقال أو اعترف بخطأ كما لو كانت كارثة العراق من صنع أشباح.

هذا المعطف الذي خطف أمامي كنيك أو شجرة محترقة، يصلح لحفلة دراويش أو أغنية للتصوف. من متاهة الثلج، من بركة البياض، يخرج كل هذا العري المخبوء تحت معاطف المطر. عندما كنا ندخل محال التسوق في مدينة بيرغن قاسم شريف وأنا كان يقول :  
. انظر. سرب من غزلان جهنم.

يغرق في صمت رهباني ويقول كما لو كان يحدث نفسه:  
. قضينا العمر بين أغاني الحرب وخطابات الرئيس وافتتاحيات الصحف والمنشور والسجون. هل تعلم أنني ولدت على يد قابلة عمياء؟

قلت ضاحكاً:

. لست وحدك في هذه القضية. وتاريخ الولادة المجهول؟

قال قاسم، متبرماً:

. تصور حتى الأشجار عندها تاريخ معن للولادة.

. هل يعني شيئاً أن تكون القابلة بعيون مفتوحة؟

أجاب:

. نعم يعني. في الأقل لكي يشعر المرء انه جاء إلى هذا العالم بطريقة

محترمة.

ضحك، ثم أضاف:

. هل صحيح أنك ولدت على كدس تبس وقطع حبلك السري

بمنجل؟

. صحيح.

. إذن أنت ثوري بالولادة. أنت تدري جيداً في هذه الأيام كيف يتم

تأثير تاريخ الشخص. لو أن أحدهم قطع حبله السري بمنجل لجعل

منها قضية كبرى. أنظر. جاء طائر الرخ الأسطوري.

التفتُ إلى الخلف فرأيت حقاً قامةً كحقل قمح في صيفٍ مشتعل  
تدخل المحل. قال لي قاسم بلهجة مرتبكة:  
. هذه فعلاً تفك المصلوب.  
ضحكت وأنا أجره إلى الخارج.  
وفي الخارج تابع كلامه:  
. حتى ذكري تمرد على شروط الخوف.

\*\*\*

خرجت إلى العراء الثلجي الذي صار أكثر وضوحاً رغم إن الأفراد كانوا  
ينبعون من عتمة الضباب بصورة خاطفة وسريعة كما لو كانوا يهبطون  
من ندف الثلج. هذا الانبثاق الرتيب جعل المشهد برمته معتقاً وكثيفاً  
كحلم عن الضباب والجليد والنهار الشتوي وأساطير الفايكنغ وحكاياتهم  
الغريبة عن الأشباح والوحوش والصيد والقرصنة والحرب والنساء  
والكهوف والنيران ووعول الغابات.

وجدتني جالسا على أريكة في كاليري الطابق الثاني المكان الذي أحب الجلوس فيه في هذه الأوقات من العاصفة أكثر من غيره. الطابق الثاني هو محلات تتقابل على شكل دائرة وتفصل بينها مساحة بضعة أمتار من الفراغ الضاح بالزهور والأضواء والإعلانات والعطور.

في مدخل محل الذهب تمثال لفتاة عارية تحت ضوء علوي مشع بهدوء وإنارة خاصة بحيث تبدو الفتاة تستحم في النور والحجر والفراغ وبريق القلائد والأساور والخواتم الذهبية والفضية المشعة عبر المرايا.

هذا العري الذهبي يبدو لرجل قادم من العزلة والعاصفة والقبو والنفي، رجل مهجور من النهار والصيف والحلم والأرض، باذخاً ومفرطاً في الوهج والجمال والغرابة والغموض. هذا ليس حجراً، إنه جمال بري تحت النور وشلالات الذهب وعلى أنغام موسيقى حاملة هادئة عذبة تنبع من الجدران والفساتين والأزهار والرخام والأقدام ومصايح السقف وهدوء المكان.

سيطر تمثال الفتاة العارية على المكان واحتل مساحاته. كنت أرى  
العري الحجري من الأمام، من الزاوية التي اجلس فيها. مع الوقت صرت  
اشعر أن هذا ليس عرياً حجرياً، بل العاصفة الداخلية في لحظات جنون  
الجسد الصامت الطالع من الحجر إلى الحياة. عواصف الخارج تمر  
مزجرة. العاصفة الداخلية تدور في الدم كإعصار هائج، كأسد في قفص  
يلف ويدور حول نفسه حتى الموت أو النوم أو الإغماء.

لم يخرجني من سطوع التمثال إلا وهج مدفعية قادم من صحراء بعيدة في  
الليل. أنا الآن محاصر بين وهجين: وهج العري الجسدي الصريح وبريق  
الحجر الحي، وبين وهج موت قادم من صحراء الحرب. بينهما موسيقى  
تسيل على الجدران والأرائك والثياب والزهور.

أنا موزع بين الليل وبين الرغبة، بين الجسد وبين الشظية، بين موت  
الصحراء وبين حياة الرخام العاري، بين العاصفة وبين النغم، بين الحياة  
وبين الموت، بين صلابة الحجر وصلابة الريح، بين ذاكرة الحشرة وذاكرة



الأعزل، بين السجن وبين النهدي، بين بندقية العبد وبين رمح الفارس،  
بين عباءة الجسد وبين النص العاري كنهاري عيد صيفي جنوبي من أعراس  
الحصاد أو الأعياد المقدسة، بين غبار الثكنات وبين بريق شعر كاترين،  
بين الثكنة وبين الحرية، بين عتمة السجن وبين صخب الأطفال، بين  
روث سرايا البغال وبين موسيقى النهار.  
حررني الحجر أكثر من كل الكتب.  
الحجر العاري كالنشوة يحرر.

ليس الحجر وحده بل الموسيقى والثلج والهدوء وبريق الأمطار  
الاستوائية القادم من إعلان جداري عن رحلات إلى سواحل ومدن  
وغابات وكنائس وفنادق على شواطئ ورمال ذهبية ونساء عاريات على  
الأشجار أو فوق الرمل وآثار وتمائيل رخامية تبدو، تحت شلال الموسيقى  
والذهب والحجر والثياب والأقراط، كمخلوقات مغسولة بالمطر والشمس  
والفاكهة ورائحة العشب المبلل.

حين أتحدث إلى نفسي، داخل الدهول، أشعر بأنني أتحدث من وراء جدار الموت. هذه جماليات عزلة المنشق والأعزل والعاشق والهارب والحالم فوق هذا الوفر الثلجي الذي يتشكل، الآن، كأول ثلج يسقط على الأرض.

قلت مرة، فجأة:

. أنظر، كم هي رائعة هذه الصخرة.

قال قاسم:

. الآن تأكد لي أنك مازلت حياً.

. ماذا تعني؟

. كنت أظن أننا خربنا تماماً. هل تعتقد أن كل تلك المآسي مرت على

مقبرة؟

. لا أظن.

رأيت عبر نافذة الكاليري طائراً يصارع الريح الثلجية وهو ينحدر في

اتجاه ميناء القوارب المسوّر بالصخور الكبيرة خشية الموج والعاصفة. بزغ

من الظلام الداخلي العميق سرب من الطيور الملونة محلقا في سماء زرقاء صافية في نهار صيفي مشمس. في طفولتي كنت أنام أحيانا مع طيوري إلى أن لدغني عقرب في القن . لم أر عقرباً لكني شعرت بالألم. عندما كبرت، بدأت أرى العقرب، لكني أشعر بالألم بعد وقت.

\*\*\*

قالت لي نرجس الفتاة التي كنت استأجر غرفة في بيتهم في راولبندي في الباكستان، هاربا عبر الجبال الإيرانية، أن أكون حذرا من عقارب المنزل لأنها تخرج على ضوء القمر في الصيف للتنزه والصيد.

. وماذا تصيد؟

أجابت ضاحكة:

. تبحث عن طعام.

. هل أصلح كطعام لعقرب؟

ضحكت نرجس وطار من شعرها سرب من الفراشات والأزهار  
والنجوم والأعشاب. سألتها عن عطر مثير ليس غريباً عني. أجابت:  
. قرنفل. أشتريه من الدكان المجاور.

. هذا الجحر يبيع القرنفل؟

قالت نرجس باسممة:

. والنعناع وشاي الأحلام وأزهار لتقوية...

صمتت نرجس حياءً. فقلت:

. فهمت، فهمت. أزهار الحب. أليس كذلك؟

. لا، ليس كذلك. هل يجب أن اسميه؟

. يمكن.

. انه لتقوية صاحبك.

ضحكت واستدارت نحو النافذة المطلة على منازل من الصفيح واللبن

والطين. قلت، مازحاً:

. ومن هو صاحبي؟

. الملعون.

. آه.. عرفت.

نرجس خليط من فتاة العائلة والعاهرة والبراءة البدائية المتوحشة. قلت لها يوماً وهي عارية في سريري في ظهيرة صيفية مشتعلة حيث الغبار والصمت واللهب والكلاب وحدها في الشوارع:

. هل تعرف العائلة؟

. لا، لكنهم يقبلون المال الذي أجلبه لهم بصمت.

. هل تحصلين على مال كثير؟

. ليس كثيراً سوى أول مرة.

. كيف؟

. رجل ثري في السبعين أزال بكارتي بأصابعه وأنا اصرخ في منزله

الفخم في إسلام آباد. علمت فيما بعد انه مسؤول كبير في الدولة. كنت

يومها صبية. قالت لي القوادة إن هذا يحدث كثيراً في هذا المنزل وفي

غيره. قالت أيضاً إن درب الحرية يبدأ من هذه البيوت.

. هل كان هذا صحيحاً؟

. هذا كذب. كانت البداية نحو العهر.

. أنت تتكلمين الانكليزية جيداً. كيف حصل ذلك؟

. في شقق السفراء ورجال الأعمال العرب وأبناء القناصل ..الخ..

. حدثيني عن هذه الخ... أرجوك؟

. في منازل موظفي الأمم المتحدة، ورجال المخابرات الأجنبية خلال

الحرب مع قوات الاتحاد السوفيتي في افغانستان . كنا في عام 1990 .

وجنود المارينز الذين يحرسون المكاتب الأمريكية بثياب مدنية ومع

اللاجئين العراقيين والبورميين والصوماليين واليمنيين والإيرانيين والمجاهدين

الأفغان الهاربين من الحرب.

قلت على غير توقع مني:

. ومع حراس البنك الدولي وصندوق النقد ومنظمة التجارة العالمية

ونمور التاميل وجبهة تحرير مورو ومجموعة البنوك السويسرية...هل أنت

آسيا؟

قامت نرجس عارية لتغلق النافذة فأدهشني هذا العري الأسمر المتوثب

كرملة محترقة تحت حريق صيف ساخن. لم يكن عرياً، كان سطوعاً أو

برقاً في عتمة الغرفة. عندما استدارت عائدة، خيل إليّ أنني أشم رائحة

القرنفل، ماشياً، بصورة هذا الجسد المتوهج كمهرة تركض فوق بساط من

العشب لأول مرة. قالت معلقة على سؤالي وهي تدخل عرين الموت  
والجنون والعري:  
. أنا آسيا حقا.

قالت ذلك ودخلت في أعماق السرير، تحت ذراعي ولم تخرج حتى  
اللحظة. ضاعت نرجس في السرير وفي الحلم أو في السفر أو في شارع  
ما أو في قصر مسحور أو بين ذراعي رجل أو كلب أو امرأة منحرفة أو  
خطفها ليل أو عاصفة أو هاجرت على سكين أو رصاصة أو نامت  
تحت شجرة ولم تستيقظ حتى داهمتها كلاب متوحشة أو ذئاب جائعة  
أو نمور . ربما، أقول ربما، دخلت في مرآة ساحرة هندية ولم تخرج منها  
أبدًا.

مرة نزلت في الفجر الآسيوي الأزرق الشاحب من غرفتي في الطابق  
الثاني والأخير إلى المرحاض فوجدتها تصلي صلاة الفجر، باكية. جمدت  
في مكاني كما لو أنني أصبت بطلق ناري مباغت أو تحولت إلى عمود  
ملح أو تلاشيت في الهواء عقابا على خطيئة. قلت لها فيما بعد:

. رأيتك تصلين الفجر.

قالت بلغة عربية صافية وحزينة:

. الله يسمع دعوة المظلوم حتى لو كان فاجراً.

. من ظلمك نرجس؟

تضحك وتجيب على طريقي:

. صندوق النقد الدولي، منظمة التجارة العالمية، جنود المارينز، نواز

شريف وبونازير بوتو وضيء الحق، أبناء القناصل، السفراء، شيوخ المال

العرب، المجاهدون والمناضلون والفارون العرب والأفغان والروس والروم،

دراويش كراتشي، المخابرات الدولية، البوليس المحلي...

تتوقف عن العد على أصابعها السمرء كعيدان القمح الصيفية

وتسألني مستثارة هذه المرة:

. أستمر؟

. لا، نرجس. آسف على أية حال.

قالت بصوت واهن وعميق نابع من جرح امرأة منكسرة:

. الله غفور رحيم.



\*\*\*

عندما قلت لقاسم شريف ونحن نغادر سجن كويتا في بلوجستان بعد حبس لمدة نصف عام بسبب عبور الحدود قادمين من إيران بدون أوراق أو وثائق، وباللباس الداخلي كما كان قاسم يردد، ساخراً، إن الله يغفر الذنوب حتى لو كانت غرغرة الموت في العنق، رد قائلاً:  
. لهذا يستطيع أي وحش غارق في الدم أن يحلم بالتوبة في اللحظة الأخيرة.

عندما كنت أروي حكاية نرجس لكاترين، تقول حائرة:  
. أنت تروي بطريقة غريبة. كيف يمكن لفتاة أن تدخل في سرير وتضع أو في مرآة ولا تخرج. هذا غير معقول؟  
. غير معقول لك كاترين. نحن من مكان آخر. ندخل في المرايا ولا نخرج. نذهب إلى الحمام ويخطفنا البوليس. نساfer وفي المطار نرحل إلى سجن. نكتب حكاية عن الحب فنهدد بالقتل. نحلم بالخبز والكلام والشعر فنعاقب على خروجنا على القانون. ندخل مقهى فنكتشف أنه ملحق للشرطة السرية. أنت تعتقدين بوضوح كل الأشياء.

قالت هادئة:

. أنت على حق تماما. هذا شيء آخر. لكن حكاية نرجس ليست مقنعة تماما. أنا أعتقد انك كنت تريد أن تقول شيئا آخر. كنت ترمز إلى شيء ما أبعد، عن انتهاك أوسع. قل لي أرجوك هل كانت نرجس تمتلك جسداً مثيراً؟ أقصد هل كانت جواداً مستثاراً يرتعش من الحمى كما كنت تقول لي؟ هل كنت تقول لها إن جسدها مثير كجواد هائج؟ . كنت أقول لها شيئا مختلفاً لأن الجواد لا يعني شيئا مهما عند امرأة باكستانية. كنت أقول لها في المرات القليلة إن جسدها مثير كوردة أو غزال أو ظهيرة صيف.

. هل كانت كظهيرة صيف حقاً؟

. نعم. صيف آسيوي مجنون ومحرق ومهلك.

. كم أشتهي أن أنام معك في صيف آسيوي مجنون ومحرق ومهلك.

هل تحبون ممارسة الحب في ظهيرة محرقة؟

. ليست هناك قاعدة. تعرفت على نرجس في ظروف بالغة الصعوبة

والحيرة والخطر، ذلك الصيف المشتعل كان وجودها معي حتى بصفة

عاهرة وفي سرير رجل هارب وخائف منقذاً من السأم، بل من الموت والشعور بالتفاهة.

. هل الشعور بالتفاهة يقوي الرغبة في الجنس؟

. في حالات يمكن. قد يكون دافعا لموت الرغبة في حالات أخرى.

قالت:

. هل تشعر هنا بالتفاهة؟

. ليست التفاهة الشاملة على أية حال. هناك مواقف ولحظات

تافهة. والآن إلى القبو قبل بزوغ الفجر.

سألتنى ونحن ننزل على سلم القبو:

. هنا ثلج وهناك ظهيرة مشتعلة. هل يعني هذا لك شيئاً؟

. هذا يتوقف على الجسد. هناك جسد يحرق الثلج وهناك آخر يطفئ

الظهيرة الملتهبة.

. تتكلم بلغة خبير في أجساد النساء. أليس كذلك؟

. لست خبيراً أو زيراً. في حياة كل رجل عدد من النساء وفي حياة كل

امرأة عدد من الرجل. أتكلم عن التجربة وهذا هو الفارق.

. هل أنا تجربة أيضاً؟

كانت قد بدأت تتعري على ضوء مصباح القبو الأزرق الشفاف  
الناعم الذي يعكس جسدها وملامحه على الجدران ويوزعه على أشياء  
القبو حتى صار نهدها على الحائط الداخلي، وطار شعرها على الحائط  
المجاور للشارع أما ذراعها اليمنى فلقد حلقت في السقف وتمرد انفها  
وحط على لوحة منزوعة من مجلة لحاصدات في حقل صيفي.

\*\*\*

عايدة الايرانية كانت تفعل ذلك في الواقع وليس على ظلال الجدران.  
عايدة تسكن في شمالي طهران وفي منطقة تجريش الارستقراطية وأبناء  
الطبقة الوسطى وتجار البازار. تخصص هذا الوعل الفارسي كما كان  
يسميتها قاسم شريف بالفارين العراقيين. قال قاسم يوماً إنه شرب في  
بيتها عرقاً محلياً سرياً وبدأ يحدثها عن إيوان كسرى الموجود في جنوبي

بغداد وفي المدائن، لكنها رفعت نهدها كما يرفع الإنسان حجراً وتريد ضربه.

. لم يكن نهداً، بل كان بركانا هائجا.

قالت عايدة في السكر والغضب والمرح والجنون الطارئ:

. قضيب عراقي عندي أفضل من كل معارك رستم.

قال قاسم مرعوبا حتى في الحكى:

. خفت أن تنزل إلى الشارع عاريةً وهي تهتف بذلك ونحن في عام

الحرب الأخير.

. وماذا فعلت؟

. ربطتها إلى السرير وكممت فمها حتى نامت. عندها خرجتُ إلى

الشارع وكان الثلج يتساقط فوق تجريش ومررت من قصر نيافاران مقر

الشاه الملكي ورأيت أشجار السرو غاطسة تحت الثلج وأضواء ناعمة

تنبع من غرف القصر. بصراحة شعرت بكآبة قصور ملكية مهجورة.

لكني فطنت على حقيقة أخرى للمشهد، حقيقة كوني هارباً ومتسكعاً

وحزيناً. شعرت بأني ومهما كان الأمر أقل خسارة من إمبراطور مهزوم  
وملك مضاع.

قلت ضاحكاً:

. هذه التقنية ضرورية لخداع النفس. الأمر لا يخلو من مفارقة حقيقية

على أية حال. لماذا تخصصت عايدة بنا؟ هل هناك لغز؟

. لغز؟ نحن صرنا نظن أن هناك لغزاً وراء كل عصفور يطير أو كلب

ينبح أو شجرة تورق أو نهار يطلع أو كائن يتعري أو امرأة تخون أو رجل

يسافر أو قمر يشرق. أنت لا تعرف عايدة جيداً. أنا اقتربت منها إلى

حد كبير.

. سنجد تبريراً لكل عاهرة.

رد قاسم بثقة:

. ولم لا؟ هل تعتقد أن الذين شردونا وأشعلوا هذه الحرب هم أشرف

من عايدة؟ لا أظن. عايدة لا تلعب إلا بجسدها وبلا مال، ولكنهم

تاجروا وغامروا بالوطن والناس.

. هذا صحيح بشكل ما ولا يصلح مقياساً عاماً.

قال:

. على الأقل في هذه القضية. نحن لا نذهب إلى عايذة لإصلاح التاريخ، بل للمتعة. أحذرك من الذهاب في النهار مهما كلف الأمر، وحتى في الليل بدون موعد أو مكالمة. ستكون فضيحة عند القبض بتهمتين: الزنا والخمر.

قلت معلقاً:

. والعقاب هو الجلد في ميدان عام حتى الموت.

\*\*\*

قاسم شريف كان معي في أكثر من سجن، لكننا كنا نلتقي في مقهى نادري في شارع جمهوري إسلامي في طهران، المقهى الملكي للكتاب والمثقفين. كان قاسم عندما يصاب بنوبة حنين إلى المنزل، يقول: (سأذهب إلى عايذة) أو عند الإفلاس وهو دائم: (سأذهب إلى عايذة).

حتى في أيام الغارات الجوية على طهران وقد كثرت في السنة الأخيرة،  
يقول: (مشتاق إلى عايمة) ومرة همس لي ونحن في الطريق إلى كرج،  
المأوى والسجن والمخيم للفارين في ضواحي طهران: أفكر في عايمة.

مرة خرج من مرحاض عام وهو يقول:

. هل تعرف؟ صورة عايمة سيطرت عليّ تماما؟

كنت أحبط المحاولة دائما بالجملة ذاتها:

. فكرة جيدة لكن الجلد في ميدان عام ليست فكرة مريحة.

جوابه واحد وملغز وعنيف وبصورة مثل عراقي:

. وضعت أرنبه في الطريق؟

سألني مرة في الطريق إلى منزل الأميرة شمس شقيقة الشاه الذي صار

متحفا في مدينة كرج:

. أنت تتعاطف كثيرا مع هؤلاء. ما هو السبب في رأيك؟

قال كلمة هؤلاء باحتقار بارد نابع من العقل وبلا عاطفة.

أجبت:



. لا ادري. قد يكون شعوراً أو عاطفة شخصية بسبب العرق والتاريخ والمنشأ. أنت تعرف جيداً أنني نشأت في عائلة مواكب ورايات وأضرحة و عطور وزيارات. لكن ليس هذا وحده. عندي فكرة قد تكون صحيحة عن طبيعة الصراع السياسي في المنطقة وعن اللعبة السياسية الدولية وهي لعبة قدرة. مع ذلك هناك انطباع أن هذه الجمهورية ستفسخ على مراحل ولا تسقط دفعة واحدة. ما الذي يعجبك بعايدة؟ . هل تدري؟ خطرت ببالي الآن. لن أغفر لهم مهما غفرت ما حصل معي بخصوص محكمة الأغنية.

هذه حكاية من حكايات السجن. كان قاسم شريف سارحاً شارداً وهو يتأمل حقولاً خضر عبر نافذة السجن، عندما وجد نفسه، دون توقع ، يدندن بأغنية عربية، في مناسبة دينية مقدسة. بعد تحقيق مطول، واستفسارات عن سلوك وتاريخ وأحزاب، انتهت بأن يتعهد بعدم الغناء في الجمهورية الإسلامية حتى يرحل إلى مكان آخر. كانت المحنة في لحظات التوقيع. قال لي:

. عند التوقيع شاهدت وجوهاً أخرى للشيطان الذي اعرفه. تذكرت التواقيع الإجبارية في العراق بعدم الانتماء إلى حزب عدا الحزب الحاكم. شعرت بذل فظيع وشعور بالأسر. عندما وقعت في النهاية خيل إلي أنني خارج من حفلة عري واغتصاب. إن هذا لن يحدث أبداً. سأذهب الليلة إلى عايدة ولو كانت في قصر محروس بكل رجال الشرطة السرية وحرس الثورة.

قلت تحت حالة من الهياج والغضب:

. أنا رأيت بعيني، مجبراً، جريمة إعدام أسرى من الحرس الثوري الإيراني في وديان خانقين صباح 27 أيلول 1988 وفي وحدة صواريخ أرض - أرض، في قاطع الفرقة السادسة. كان عددهم 33 شخصاً. كان معي المصور الصحافي رشاد غازي وهو تركماني والسائق أبو مصطفى وهو فلسطيني والنقابي اليساري صادق قدیر الخباز الإيراني الأصل. قرار الإعدام صادر من مكتب رئاسة الجمهورية ويقول حرفياً: (يذبح حالاً كل من يتواجد مع القوات الإيرانية من متطوعين وأكراد وشيوعيين وعرب ومهجرین في ساحة العمليات).

في منتهى الرخص والعبثية والسخرية، راح العقيد الركن ضابط استخبارات الفرقة يكلم نفسه حول تشكيل محكمة فورية ويكتب خواتمه بالقلم الأحمر وهو القلم ذاته الذي وضع خطأً فيه تحت كل مجموعة مطلوب ذبحها (أنا رئيس المحكمة ومقدم فلان...) ثم نظر إلى السقف وتابع (ورائد...). وقد تم التنفيذ بصورة بشعة في صباح اليوم التالي حتى بدون تعصيب العيون. حكاية بساط الريح أهون.

\*\*\*

في شارع قرب محطة القطارات في بيرغن، التفت قاسم شريف فجأة وقال على نحو غير متوقع:

.كيف انتهينا من أحلام الثورة إلى أحلام الجنس؟

قلت:

.لسنا وحدنا في هذا التحول ولا تقاطع بين الجنس والثورة لكن المشكلة في العدمية. دخلت مرة على برويز الإيراني فوجدت علم المقاومة الإيرانية على الجدار. في الزيارة الثانية وجدت بدله العازل الجنسي معلقاً

في المكان نفسه. حدث هذا أيضاً مع بوريس الروسي قبل أن يعاد إلى روسيا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وهو جندي هارب من الحرب في افغانستان وقضى كل أوقاته يركض خلف إلينا البولونية كجرو أو كلب سلوقي وراء طريدة.

قال قاسم:

. نعم، هذا صحيح. حدث هذا مع أيالو صاحبك الأثيوبي ومع غيره. هل تعتقد أننا نتعرف على أجسادنا هنا فجأة كما يعثر المرء على محفظته أو صورته المنسية في الطريق؟  
. نعم. العري الأبيض والحرية والوقت والفراغ وفترات التأمل في العزلة والثلج أمام الموقد، كل هذه الأشياء جعلتنا نتعرف على أجسادنا المهملة والمرمية كجورب عتيق.

قال ونحن ندخل المحطة في نهار صيفي نادر في بيرغن الممطرة دائماً:

. أنت من نرجس إلى عايدة إلى كريستينا إلى صوفيا المجرية.

لم أكن قد تعرفت بعد على كاترين. قلت:

. هل تدري؟ وصلتني رسالة قبل أسبوع من صوفيا التي لم تعد إلى شقتي مرة أخرى أبداً، وبحثت عنها في كل مكان عندما ذهبت إلى البيت في ضواحي بودابست. تقول إنها لم تعد لأن السبب بكل بساطة إن زوجها وجد منتحراً على شجرة في الفجر بعد شجار عنيف معها بسبب صور خاصة فاضحة عثر عليها تظهر فيها عارية على البحر مع أكثر من رجل خلال فترة غيابها عن المنزل.

سألني قاسم:

. أنت ذهبت معها إلى بحيرة البلاتون؟

. مرة واحدة. في اليوم نفسه الذي عادت فيه.

. أعرف ذلك تماماً. ولكن لماذا برأيك شققت نفسه على شجرة؟

. لست أدري تماماً. أظن انه أراد أن يترك لها ذكرى مؤلمة.

. تقصد الشجرة؟

. نعم. الشجرة. ربما فكر أنها قد تقتلع ذكراه، لكنها لن تقتلع

الشجرة.

. قد ترحل إلى مكان آخر وتنسى حكاية الشجرة؟

. ليس المقصود بالشجرة التي انتحر عليها، المقصود فكرة الشجرة  
وصورتها. إنها لن تقتلع أشجار العالم. المشكلة ليست هنا، بل في مكان  
آخر. هل تعرف أنني تأكدت تماماً أن كريستينا ليست كما صورتها  
أبداً. كانت سراياً خلقه العطش للحب والحنان والدفء رغم أن ذلك  
جاء بصورة متأخرة.

. بعد كل ذاك والغرام والركض والكتابة عنها في روايتك "الأعزل"؟  
. بعد كل ذلك.

. ألا تعتقد أننا نبالغ في أمور كثيرة؟

سألته جاداً ونحن نعبّر المحطة في اتجاه الحديقة الكبيرة في وسط بيرغن:  
. مثلاً؟

قال:

. نرى الحد الأقصى من المثالية أو الحد الأدنى من الدونية. هناك اللون  
الرمادي. قد تكون كريستينا صديقة معك ومبتدلة مع آخرين؟ أليس  
هذا ممكناً؟

. إنه ممكن. أنت ترى بنفسك كيف يكون معنا بعض أبناء جلدتنا في  
غاية السقوط، لكنهم يشربون بول العاهرات في مراحل المراقص. قالت

لي واحدة إنها فوجئت بشخص أجنبي يدخل خلفها إلى المرحاض في مرقص في أوسلو وتوسل أن يلحس حقلها الأشقر. أنت تعرفه وهو أيضا شاعر عراقي عاش فترة في بيروت وعمل على الهامشي الفلسطيني.

قال قاسم:

. معقولة؟

قلت:

. هل تريد المزيد؟

. هناك المزيد؟

. نعم. هل تتذكر زوج الأوكرانية الذي طاردنا أنا وأنت في إسلام آباد

بكل أنواع التهم المرتجلة والنازل من الجبل بعد نهاية الحركة؟

قال قاسم:

. تذكرته.

. كان لا ينام ليلة في راولبندي دون غلام بتياب فتاة وهي فرقة معروفة

هناك من المخنثين. مع ذلك لا يزال من أقوى الأصوات التي تنبح دفاعاً

عن الشرف والنضال والوطنية والثورة والأخلاق... الخ.

قال قاسم بمرارة:

. هؤلاء هم الذين يحكمون علينا.

قلت تحت حالة توتر:

. اللون الرمادي حقيقة موجودة وأساسية ولكن ليس إلى درجة قبول

الابتدال تحت شعار اللون الرمادي. أنت تعرف جيدا، يا قاسم، أننا

خربنا بيوتنا من اجل شعارات مهندسة بطريقة متقنة وقدمت إلينا ونحن

في مرحلة عطش معرفي وأرض مستعدة في انتظار المطر. كانت الأحزاب

بدافع من مصالح حزبية تقدر أخطاء الجماهير الأمر الذي قاد إلى هذه

الكارثة وربما أكبر منها في الطريق.

قال قاسم:

. منا من مات في سبيل تلك الشعارات. هل هذا خطأ أم جريمة؟

. هذا وذاك حسب فرضية اللون الرمادي. هل تتذكر عايذة؟

. بوضوح تام.

قلت:

. عايذة كانت تشرب وتمارس الجنس وتستقبل الرجال وهي على مقربة

من الموت وحرس الثورة والشرطة السرية. خارج منزلها كانت الرايات



والمؤسسات والبنادق والثكنات والشعارات والصور. عايدة كانت أكثر منا وضوحاً في التعامل مع جسدها ورغباتها. كانت تمارس حرمتها حتى في العري والشراب والجنس. نحن كنا ندفن ونبرر ونؤجل ونظمر ونراوغ الشهوة والجسد. والنتيجة؟ صرنا غرباء ومنفيين حتى عن أجسادنا.

قاطعني:

. ونرجس؟

. نرجس حالة مختلفة. كانت مجبرة على ممارسة الدعارة. مغتصبة. نرجس جرح آسيوي ليس نادراً في تلك القارة الشاحبة والمنهوبة. هل نسيت وجوه السجناء الفقراء في سجن كويتا الباكستاني؟ هل نسيت كيف كانوا يبيعون أجسادهم مقابل سجائر أو ورق رسائل أو رغيف؟ هؤلاء إخوة نرجس. من العجيب أننا لا نرى الاغتصاب إلا في شكله الجنسي. هل تظن أننا خارج حلقة الاغتصاب هذه؟ هناك أشكال كثيرة للاغتصاب غير الجنسي، بل أكثر عاراً ودماراً منه. اغتصاب السلطة والحرية والثروة والأرض والمستقبل والجسد والرغبة. نحن نرى العار في شكله الجنسي وليس في أحجامه المجهرية الكثيرة. هناك سلطات كثيرة غير مرئية وهي الأكثر شراسة أحياناً.

عند قاعة موسيقى بيرغن الشهيرة، صمتنا تماما. مشينا صامتين كما  
لو فرغنا من الحكايات والكلام والرغبة. قال فجأة:

. تكلم؟

. ماذا أقول؟

. أي شيء.

قلت:

. لم يعد لدينا غير الحكاية.

. ماذا نفعل إذا انتهت الحكايات؟

. نخترع.

\*\*\*

اسمه قاسم شريف، الآن. في إيران كان اسمه الحر الرياحي. سألته مرة:

. من سماك الحر الرياحي؟

. مدير السجن.

ضحكت. سألني:

. لم تضحك؟

. ألا تجدها مفارقة مضحكة أن سجانك هو من يسميك الحر؟

. هي فعلا مفارقة. لكن وأنت؟

قلت:

. أنا أطلقت على نفسي لقباً وقبلوه.

. أبو شذى؟

. نعم، والآخر مسلم عقيل.

قال قاسم:

. أنت وجهك حقا وجه أسير.

. لكن قبل هذا أيضا كانوا قد أطلقوا عليّ لقباً في سجن الأهواز هو

أبو بلال الحبشي. أما في باكستان فقد كان اسمي حازم البغدادي يوم

كان اسمك أبو القاسم. ما هو اسمك الآخر في إيران قبل أن نهرب إلى  
الباكستان؟

قال قاسم:

. منصور الحلاج.

. كيف قبلوه منك؟

. لم يقبلوه ولم انتظر. هم يعتبرون الحلاج زنديقاً. كان هذا الاسم

للتداول المحدود مثل اسمك يوم وصلنا إلى النرويج أبو زريق. لماذا أبو

زريق من بين كل هذه الأسماء؟

. مات منفيًا على رصيف في الأندلس .

تنهد قاسم وهو يقول:

. آه، ما أبشع الموت على رصيف بعيد.

\*\*\*

قالت لي كريستينا يوماً ونحن نجلس في حفل للموسيقى الإسبانية في  
مقهى الكراند كوفيه في بيرغن:  
. قاسم يبدو شرساً في مظهره.  
. اكسري قشرة الجوز وسترين الرقة والحساسية والحياء والطفولة.

علّق قاسم على هذا الحوار قائلاً:  
. من حقها أن تفكر على هذا النحو. هل نظرت جيداً إلى وجوهنا؟  
قد لا نشعر بذلك عندما نكون معاً لكن الخراب يظهر لآخرين. نحن  
كتجمع للغربان لا يبدو اللون الأسود لنا غريباً. عندما ادخل إلى مكان  
عام، أتخيل أن الناس على وشك الفرار. من أين ينبع هذا الشعور بأنك  
صرت خطراً على كل ظاهرة طبيعية أو زهرة أو عصفور أو طفل؟  
قلت:

. شعور الضحية الدائم بالخوف والظلم والخسارة يخلق في داخلها صورة  
جلادها الأصلي. إنه نوع من الارتداد إلى الذات وخلق الذئب وهذا هو  
هدف المؤسسة.

سأل قاسم عندما وصلنا إلى تقاطع طريق في مركز بيرغن يؤدي إلى

المدينة القديمة وسوق السمك والميناء:

. ما هي حكاية الجلاد الأصلي؟ هل هناك آخر؟

قلت:

. نعم. هل نسيت؟ الذي كان مسؤولاً في العراق صار اليوم زعيماً أو

قائداً في حزب معارض، والذي كان عضواً في المكتب السياسي للحزب

المعارض هو الآن، عضو مكتب سياسي، ومن كان يقف حارساً خلف

ابن الرئيس ويحمل مسدساً لحمايته هو الآن رئيس تحرير جريدة أو مجلة

في اسكندنافيا، ومن كان رئيس تحرير جريدة حكومية هو الآن، في

طبعته الملونة، رئيس تحرير صحيفة معارضة، ومن كان بوقاً وممسحة

مناضد ومسّاح أكتاف في المؤسسات الثقافية والحزبية هو الآن منظر

اليسار الجديد وداعية للثورة ويضع صورته القديمة في زاوية مقالاته

الجديدة لأن خبرة الانتهازي واحدة، ومن كان روائياً حسب الطلب،

ويكتب عن الخراب، صار اليوم، في تقمصه الآخر، مناضلاً على

طاولات الخمر، ومن كان مخبراً وجاسوساً على الأدباء والمثقفين الشرفاء،

أخرج لنفسه تاريخاً مزعوماً عن قمع خرافي. أما أنا وأنت، في عرف

هؤلاء، رغم الحدود التي عبرنا على أقدامنا، والسجون التي عذبنا فيها، هنا أو هناك، فمجرد عناكب ليل تسللت من الحدود في غفلة من النجوم، حتى من كانوا يسمون أنفسهم في مرحلة ما ثواراً ومناضلين وتقدميين صاروا وشاة لرؤساء تحرير الصحف أو عسماً على البريد القادم من قرّاء أو كتّاب ومهمتهم مصادرة أية مقالة أو رسالة نبيلة وصادقة أو عفوية كجزء من واجبهم القديم في جهاز أمن الحزب الذي زرع مخبريه في كل الصحف رغم إعلانات الخروج من الحزب، وغالبا ما يكون رئيس التحرير مغفلاً. بل ذهبوا ابعء من ذلك في الوشاية كالقول لرئيس التحرير أو الممول إن هذا الكاتب يعاني من عقدة نفسية رغم أن الناس والوطن والأشجار والحيوانات والطيور كلها تعاني من الموت والشحوب والمرض حتى الحمير ماعدا أصحاب المصالح الحزبية هنا أو هناك، أو القول بأن هذا الكاتب أو ذاك عليه علامة استفهام وهذه العلامة يضعها أرذل خلق الله ولا تسقط حتى مع موت هذا الكائن الذي هو برئ بلا أدنى شك. استبدلوا العقيدة بدولار النفط، وبالوا على شعارات الجماهير والنضال والحرية. كنا نعتقد أن موت الداعية الحزبي

سينتج مثقفا جديدا، فأنتج لنا مسخا مشوها تشويها خطيرا بقناع ثقافي.

قال قاسم ونحن نعبّر الشارع بعد اشتعال الضوء الأخضر:  
قرأت لأحد هؤلاء قبل أيام مقالة يسمي فيها مرحلة الثمانينيات بأيام الخير. هذه صفاقة. نحن كنا يومها نعبّر الحدود كالكنّاغر والشباب يموتون في الحروب والسجون وعلى أعمدة الموت في المدن والشوارع ويذبلون على أرصفة المنافي كالأزهار، وفي محطات القطار والمطارات والموانئ، وهناك من كان ينام في المراحيض كما هو الأمر مع شخص هو بطل ملاكمة قضى عدة سنوات ينام في مرحاض عمومي في طهران.  
قلت:

. إنها فعلا أيام خير بالنسبة له، لقد عهر بنات أسر شريفة بحجة الإعجاب وتعليمهن مبادئ الكتابة وحطم فتيات بريئات بحجة الوعي الجنسي والحادثة الأدبية في السرير وكان أكثر خطورة من رجال الأمن وأكثر كلبية منهم. الإنسان النظيف لا يسقط دفعة واحدة، وفي يوم واحد، بل يحتاج إلى زمن طويل وقد يجن أو يتحطم أو يمرض لأن قيمه



الداخلية تقاوم الانحطاط، لكن أمثال هذا يسقطون دفعة واحدة، بل في أقرب فرصة لأن الحواجز الداخلية ملغية. حتى سقوطهم يتحول إلى مآثرة بطولية. رغم كل الفواجع والحروب والموت السهل والذل، لم نسمع بكاتب واحد قد أطلق النار على نفسه أو صار مجنوناً، والناس تموت في الشوارع وساحات السجون والحروب وفي المصحات، كما لو كان هؤلاء الكتاب محصنين من الجنون والموت والحساسية والانتحار. بعد انتحار إبراهيم زاير في بيروت يبدو أن الموت أو الجنون أو التمرد، احتجاجاً، صار ذكرى، بل مسخرة. صحيح أن الانتحار ليس حلاً، لكنه دليل على ضخامة حساسية المثقف والكاتب والشاعر إزاء الذل والإرهاب والاعتصام والهزيمة. خليل حاوي احتج على دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت وأطلق النار على رأسه ومات، الروائي الياباني يوكيو ميشيما انتحر على طريقة الساموراي وهو يحمل جائزة نوبل، كذلك ياسوناري كاواباتا، وهمنغواي، وفان غوغ وغيرهم. هؤلاء احتجوا على الخواء والغثيان. نحن في وضع الصمت المذل على الجرائم وحملات الإبادة ولكننا اسود على أبناء جلدتنا الضحايا. الضحية تبحث دائماً عن ضحية هالكة، كما يقول فرانز فانون، وتهرب من الضحية القوية، في

سلوك انتقائي جبان غرزه فيها جلادها الأول الذي صارت تقلد أساليبه  
بمهارة نادرة نتيجة الإعجاب الخفي.

\*\*\*

عطر، مطر ناعم، رائحة وجود بشري كثيف. بيرغن مدينة عريقة  
واضحة وصريحة، تختلف عن طهران المعتمة والمتناقضة حد الخوف  
والجنون. طهران، في ولادتها الجديدة، مدينة تحتضر وتولد تحت الرايات  
والأناشيد والصور وهتافات الليل والنهار والغارات والصواريخ. طهران  
مخلوق يتفسخ في قلب نهار آسيوي محرق. سألني قاسم شريف، فجأة:

. هل يمكن وضع هؤلاء الكتاب جميعاً في سلة واحدة؟

. لا يمكن. هل نسيت حكاية اللون الرمادي؟ هناك من أُجبر على  
الكلام والصمت والسكوت. كلنا أُجبرنا على الكلام والصمت لكن  
لفترة قصيرة وليس ربع قرن. ماذا يستطيع كاتب أو رجل أعزل أن يفعل  
في مواجهة دولة تمتلك فائضاً هائلاً من الأسلحة والأموال والجيوش  
والطائرات والصواريخ ومطاحن الثرم واحواض التيزاب وسرايب الموت

وأكثر من مليوني مسلح في الخدمة، وأكثر من خمسة ملايين مسلح جاهز، وحلفاء فيهم الكبار والصغار، ومصانع الموت الذري؟ لا يمكن أن أتساوى أنا الذي عملت أقل من عام أو أكثر قليلاً ثم طردت إلى جبهات الحرب لأني سجين سابق مع آخر عمل ربع قرن لكي يظل ممسحة ومنفضة سجائر؟ صحيح أنهم يدفعونك إلى الحرب مرة كجندي وأخرى كمراسل، ولكنك لست حراً في الحالتين. أنت لست مراسلاً لوكالة الأنباء الفرنسية مثلاً لكي ترفض أو تقبل وتكون مسؤولاً عن خياراتك. إن ما تكتبه لا يشكل عبأً عليك لأنك تكتب تحت فوهة مسدس وحبلى. من يستطيع أن يقول فم الأسد عفن؟ كان غونتر غراس الروائي الألماني عضواً فترة من الوقت في الشبيبة النازية، بالقوة، وكان الروائي النرويجي الحائز على جائزة نوبل كنوت همسون قد خُذع بالنازية ووقف إلى جانبها في آخر أيامه. الفرق كبير بين الإكراه والخديعة وبين الاختيار. لماذا لم يحتجوا على حرب الثماني سنوات؟ لأن النظام خرج، حسب معاييرهم، منتصراً. لو خرج من الكويت منتصراً، لما خرجوا أبداً أو احتجوا حتى في أسرة النوم.

وتابعت بلسان مر:

. لا يمكن محاسبة الضحية على كلامها أو صمتها. نحن نتحدث عن محترفين ومرترقة لمدة أكثر من ربع قرن، وهذه المدة الطويلة تشكل خيانة حقيقية للمثقف. لقد عملت معهم فترة قصيرة وأعرف كيف تمشي الأمور. كتبت مرة مقالة عن الشاعر ناظم حكمت ولكني قرأتها منشورة في الصباح كمقالة عن الحرب المقدسة. يعثر الكاتب على مقدمات لا تخطر على بال حتى لو تحدثت عن مطرب. دُهل صادق قدير الخباز يوماً وهو يقرأ مقالة له عن المقاهي الشعبية في بغداد ودورها الثقافي عندما تحولت المقالة عن دور الحزب الحاكم في نشر الوعي الثقافي. لا يمكن أن تحاسب الناس على كلمات كتبت نيابة عنهم، أو كلام أجبروا عليه. هذا ظلم شنيع. نحن نتحدث عن محترفي تزوير وانتهازيين وحثالات. كم هي صحيحة عبارة أنسي الحاج:

( نريد أن نهرب، وأن نُسمى منقذين!

وأن نخون، ونعتبر أبطالاً!)

قال قاسم:

. أنا لا أعتقد أن هؤلاء خرجوا احتجاجاً على مبدأ الظلم، بل على مبدأ إفلاس السلطة. بمعنى أدق أنهم لم يحتجوا على دولة ظالمة، بل على دولة مفلسة.

قلت مؤكداً:

. هذا صحيح إلى أبعد حد. روى لي كاتب كان جالساً مع ناقد يساري مخضرم معروف يعيش في هولندا عندما اتصل به رئيس تحرير صحيفة معروفة صادرة في لندن قائلاً له:

- (نريد أن تكتب لنا مقالاً عن سليم بركات).

هل تعرف كيف كان رد الناقد؟ سأله فقط:

- (كيف تريد المقال؟ معه أم ضده؟). هذا الناقد هو أقوى الأصوات في الدفاع عن أخلاقيات الناقد. هذه دعارة ثقافية. هذه هي السلطة. الآن بدأت سماء بيرغن تمطر حتى في عز الصيف. إلى أين؟

قال قاسم:

. إلى مقهى الأوبرا أو البار أو الميناء أو البحر أو البيت.

قلت:

. إلى البحر.

\*\*\*

قال لي رجل في الكاليري بلطف:  
. سنغلق باب الكاليري الرئيس الآن. لقد خرج الجميع.

لم أشاهد التمثال العاري. كان الضوء المسلط من مصابيح علوية  
ينسكب فوق المكان بنور ناعم عسلي كما لو انه مطر ضوئي ملون.  
نظرت نحو النافذة ورأيت بقايا الأشجار والريح الثلجية. إذن سأخرج من  
الحكاية إلى العاصفة، وكما يعود حيوان الخلد إلى جحره أو سنونوة إلى  
عشها تحت المطر والليل والريح، عدت أول المساء إلى المنزل.

كانت الجبال مكسوة بالثلج وغطاسة في الأبيض الهائل، المتطاير في  
كل مكان . لم يكن أي شيء، منزل، شجرة، طريق، كائن، واضحاً في  
هذه العاصفة الثلجية. كنت وحيداً واعزل في عراء أبيض ممتد إلى ما

لأنهاية، حتى الحافات الأخيرة من هذا الغسق الاسكندناني المطلي  
بالبياض والنور الجليدي الرقيق الشفاف الأبيض وعويل الريح.

مزروع في هذه الأرض البباب، أو متروك كقدح قديم تحت الثلج، أو  
حكاية مهملة عن الليل والعذاب والجنون والسجن والأسلاك والحرب  
والضوء والجسد والرغبة والأمل. لا طريق، لا صديق، لا أقدام، ولا  
آثار، عدا هذه المتاهة المزججة، عدا هذا الغياب الأبيض المتنقل، عدا هذا  
الغسق المجهول، عدا نوافذ مضاءة من الداخل الغامض بضوء عائلي  
دافئ وحميمي.

لا أدري أين قرأت يوماً عبارة لهنري ميشو:

( في غياب الشمس، تعلم أن تنضج في الجليد )

ظهرت المداخن. ثم ظهرت بعض الوجوه خلف النوافذ. أنا، إذن،  
لست في برية البياض والغسق الجليدي الذي يذكر بنهايات التاريخ،  
غسق نهايات الحكاية، غسق اليوم وهو ينعق على أطلال الزمن، غسق  
الخراب والرايات والحداد، غسق رحيل نرجس الغامض الملتبس، غسق

عري عايذة وهي تطحن داخل السرير قرب الرايات السود، واحتفالات الموت التاريخية، غسق قاسم شريف وهو يرقص في الكراند كوفيه كحجل هارب من الحشد، كغزال نافر ومذعور من سقوط المطر، أو خشخشة الأوراق في الغابة، غسق كاترين وهي تنزل الى القبو على ضوء الشموع وأنا اردد معها: (بعد أن تطفئ القمر، وتسحب المزلاج)، غسق عمر الخيام وهو ينبثق من فم عايذة ومن خصرها ومن عينيها الرماديتين كبحيرتين مصنوعتين من النار والرماد والنهار الماطر) أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر) كما قال شاعر جيكور الذي مات وهو لا يملك حتى ثمن الكفن.

\*\*\*

كانت عايذة تتعري وترقد فوق سجادة مطرزة بكلمات فارسية قالت لي إنها مأخوذة من قصائد عمر الخيام. فوق الجدران لوحات وصور لبحيرات وجبال وجسور وحدائق وجنائن وفراشات وطواويس وأشجار



صنوبر وسرو وأرانب وغزلان. كانت عايذة تبدو كحكاية قديمة تنبثق من الجدران أو من كلمات السجادة أو من ريش الطواويس أو من ثلوج جبال البزر أو من حكايات ألف ليلة وليلة. صورة معتقة في الذاكرة من أيام الخلفاء والأمراء والسلاطين وقصور بغداد وجواري الخليفة.

كانت الحرب على الحدود، وفي منزل عايذة تنبثق أفراح سرية مشعة. كانت تقول عندما أزورها خلسة في الليل عابراً نقاط حراسة ومراكز شرطة وحرس ثوري ومخبرين:  
. معكم أشعر بالأمان.

لم أكن أفهم سر الأمان مع رجال خرجوا إلى البرية والتهيه وعبروا إلى الجانب الآخر، الجانب المسمى في نشرات الأخبار، بالعدو التاريخي. كنت أشعر أن العدو خلفي. نحن نخرج يا عايذة من المنفى إلى المنفى. وتلك ليست أوطانا بل زرائب.  
. لا أفهم يا خوية كلامك.

هكذا كانت تجيب صامته وهي تغرق في الشراب المحلي حتى الفجر.  
إلى اليوم، كلما تذكرت ضاحية تجريش وجبال البُرز، والشرطة السرية،  
وتمثال فردوسي، يخطر في بالي حالاً صورة عايده وهي تصرخ أو تشرب  
أو تتوهج عارية تحت النور المنبثق من لوحات العصور الغابرة.

\*\*\*

هذا الثلج، هذه العاصفة، وأنا في الطريق إلى المنزل كذئب جريح  
يعود إلى جحره في المساء، على إيقاع نهار هارب وليل قادم مجهول، هذا  
المدى الأبيض الممتد إلى أقصى نهايات الخوف والعزلة والحكاية، كل  
ذلك هو وجه آخر لعاصفة الدم. كنت أشم رائحة دمي كما يشم فهد  
أفريقي متوحش رائحة دم الفريسة. كنت فريسة عاصفة داخلية أكثر من  
أي شيء آخر. هذا الثلج الممتد نحوي هو مخلب الريح الداخلية.

ريح أن تكون هنا، منفيًا، وحيًا، وتبحث داخل هذا الجليد عن ذاكرة  
لنهار قديم هارب لم يعد موجودا في ذاكرة احد أبداً. أنت لست أكثر

من صخرة مرمية في هذا الجنون الواضح، جنون الثلج الهاطل أبداً كما لو  
انه يعيد صورة أيام الخلق. صورة الغمر الأول والضوء الأول وظهور  
اليابسة بقوة الكلمة.

لو كانت لدي مزامير ساحر أو نبي خلقت الآن مساحات من  
العشب والورد والنساء والأطفال ومدن لا تنام في الليل ولا في النهار،  
ومراكب تبخر نحو جزر النور والحجر والأعشاش والصخور المشعة تحت  
ضوء القمر أو الشمس أو المطر.

\*\*\*

أمام البحر، وقد عادت الشمس إلى الشروق مرة أخرى، كما هو  
حال طقس بيرغن، شعرنا قاسم شريف وأنا يوماً بوجه آخر للخسائر  
القديمة.

. هل جئنا إلى هذا المنفى لنعيش أم لتذكر؟

لم يجب. كان غارقا في لجة داخلية بعيدة. قلت:

. بحر، حرب، سجن، هروب، نساء، مدن، عواصم، لغات، ثلوج،  
صحارى، جبال، جنس، عزلة، حنين، أمل، يأس، خمر، صلاة، جنون،  
دروشة... اشعر أحيانا أنني مجمع أرواح.

كان البحر مضطربا كروح نرجس وقاسم وأنا وعابدة وهذا النهار  
البيروغني الصريح الذي لا يشبه النهارات الآسيوية. كانت الأجساد  
تستلقي على الساحل عارية تماما أو شبه عارية. ليس هنا، في هذا  
المكان، من يرتدي شيئا إلا قاسم شريف وأنا. هو كان يرتدي معطفه  
الأسود، معطف الشتاء والصيف، معطف السفر والغرام والسهرات،  
معطف المآتم وزيارات قبور الغرباء، معطف السينما والكاليرييه والصالة  
والسوق والقطار والمصطبة والمرقص. أما أنا فقد كنت ارتدي سترة الشتاء  
والصيف والخريف والربيع والجليد والشمس والريح والعاصفة والنوم  
والعتمة.

جلست أمامنا فتاة شقراء في أحضان رجل عاري الجسد تماماً يدخن وهو يتأمل البحر والموج والنور والجزر البعيدة المشعة تحت الشمس والنسيم. كان ممدداً فوق الرمل، وكانت هي ترقد في أحضانه في منتهى الوداعة والطمأنينة والسكون.

قال قاسم:

. هذا العري رغم إثارته يبدو مطمئناً كصلاة أو نشيد كنسي أو موسيقى دينية أو نبيد. أعتقد أنك قلت مثل هذا الكلام يوماً؟  
. نعم. في رواية (سنوات الحريق) وفي مشهد العجوز النرويحي وبطل المقاومة وهو يمارس جنسه العاجز مع نتاليا في المأوى. أذكر أنني قلت عن عري نتاليا: ذلك العري الذي يكاد لسطوعه أن يكون شكلاً من الرمز أو النصب الديني المقدس لأنه مطمئن حتى في إثارته.  
. أين صارت نتاليا الآن؟  
. ما تزال موجودة وتزورني أحياناً.

مرّ سرب من نوارس البحر، عندما قال لي قاسم:

. حتى مرحلة إسلام آباد، لم أكن قد اكتشفت حقيقة جسدي.

. حتى مع عايذة؟

أجاب بلهجة قاطعة:

. ولا مع عايذة. مع عايذة كنت أمارس جنسا مخيفاً. صحيح أنها كانت بالنسبة لي قضية مهمة، لكن ممارسة الجنس معها في تلك الظروف كانت نوعاً من الانتحار والمغامرة والجنون.

. تقصد الشرطة السرية؟

. والمناخ العام، الحرب، الحرس، الرايات، هاجس انك تعيش في دولة دينية، فكرة العيش مع عدو مخترع هو في حالة حرب مع ما يفترض انه وطنك، التسلل في الليل، الخروج فجراً تحت الثلج كلكس، مشاعر مختلطة من الذل والعار والخوف والإحباط لأنك بعد كل هذه البهجة السريعة ستعود إلى وضعك الحقيقي وهو وضع رجل هارب وأعزل ومفلس ومطارد. هنا الأمر مختلف تماماً.

قام، كما لو من الرماد، الرجل المستلقي على الرمل وقامت معه عنقاء الذهب أو مدينة من النور والوهج والبرق فتاته الشقراء وتعانقا

أمام الريح البحرية الهادئة العذبة وأمام الموج والمتسكعين والأبدية  
وشواطئ الضوء.

قلت:

. هذه الحرية هي حرية جسد حر وطليق. نحن نشرح ونحلل. هؤلاء  
يعيشون اللذة بلا شرح ولا تحليل. لكن الفضاء المفتوح لا يضيف على  
الحالة مهابة الشهوة. هذه أوضاع مخصصة للحب السري المتوهج ولضوء  
الكواكب والشهب. في مشهد دخول نتاليا إلى غرفة العجوز في رواية  
سنوات الحريق يدخل معها عطرها الوحشي.

قاطعني قاسم:

. أذكر جيداً النص من كثرة ما توقفت عنده، تقول: ( دخلت نتاليا  
الغرفة يسبقها عطرها الوحشي، المجنون، الداعر. أول مرة أرى جسد  
العطر، ماشياً) كيف يمكن لعطر أن يمشي؟

قلت متأملاً النهار الأزرق وسكون البحر:

. وكيف يمكن أن نخفض لهما جناح الذل؟ هل للذل جناح كما

تساءل المتنبئ يوماً؟

وهو يتابع قامة السرو والصفصاف وشلالات النور الأشقر وهي تلتهم شفاه الرجل الواقف، كعمود من الملح أو الرخام، قال قاسم كما لو كان يحدث نفسه:

. أتصوّر أحياناً أننا شخوص حكاية مملة أكثر من كوننا أحياءً. هل خطر ذلك في بالك؟

. نحن بالفعل شخوص حكاية يرويها معتوه كما قال شكسبير .

\*\*\*

عند مدخل المنزل، هجمت عليّ عصافير اللوحات وخيول الجدران ورائحة السرير والعزلة والأحذية وقائمة الهاتف وصورة لصحراء رملية ومهرة عربية تقفز في مرج اخضر شاسع مسرورة، والضوء البنفسجي القادم من غرفة النوم وسكون الوسائد وعطر وحشي متمرد لأنثى ملتقطة من ليلة قديمة طلبت منها مغادرة المنزل تحت الثلج، لأنها كانت



تصرخ لأتفه الأسباب، فسكبت قنينة عطرها في الغرفة دفعة واحدة وهي تقول بصوت مجروح:  
. عقاباً لكي تتذكر هذه الليلة.

من فوق جدران الغرفة، كانت صورتي بالشارب تلوح مضاءة في ميدان آزادي في طهران، وصورة لمدينة اولوسوند البحرية وهي عائمة فوق الماء. هذه المدينة الساحرة تتكون من ثلاث جزر مرتبطة بجسور، وتحت البحر نفق طويل، يؤدي إلى مطار المدينة وقرى أخرى، وهي من أكبر مرافئ صيد السمك وصناعة السفن. أما مركز المدينة، فهو عبارة عن متحف للبنىات ذات الطراز المعماري الخاص وباسلوب فني اشتهرت به اولوسوند. هي عاصمة إقليم يشمل أورستا، وفولدا، ومولدا، وكارينكرد الخليج الشهير، وأوندالسنيس، وكريستيانسوند وجزر وقرى متناثرة على مساحات واسعة من الغابات والجبال والخلجان والجزر الخلابة التي تشع تحت القمر أو الشمس أو الثلج كمدن خارجة توأ من رماد الأساطير.

على الجدار أيضا لوحة لوعل يرفع رأسه نحو الشمس. هذه الصورة هي أكثر الصور قرباً إلى قلب قاسم شريف. قال لي في آخر زيارة له قادماً من بيرغن في الباخرة إلى مدينة اولوسوند، أو فينسيا الحب والشعر والجمال وثكنات النازية لأن المدينة احتلت من قبل الألمان وحولوها إلى موقع وثكنة وبرج لمراقبة السفن القادمة من بريطانيا، ولا يزال السجن قائماً حتى الآن:

. هذا الوعل صورتك الأخرى.

. كيف؟

قال :

. شيء يصعب تفسيره في كلمات. هل يجب أن نفسر كل شيء؟

. لا، طبعاً. هل أعجبتك أولوسوند؟

. مثيرة وجميلة ومدهشة. هذه ليست مدينة، بل قصيدة.

. لقد احترقت قبل أكثر من قرن حريقاً شهيراً. توجد في مرتفعات

المدينة مواقع باقية للقوات النازية. زرت السجن قبل كل شيء.

ضحك قاسم:

. طبعاً، طبعاً. وماذا يمكن أن نزر أولاً غير السجن؟ المتحف؟ حوض السمك الداخلي؟ الساحل؟ غابات البلدة؟ أصبحنا كالحفاش لا ننجذب إلا نحو الأماكن المظلمة: المشرحة، السجن، المستشفى، الثكنة، الماخور، المقبرة، وأمكنة العزل. قل لي هل صحيح أن سالم قرداش قد انتحر في باكستان؟

قلت بمرارة:

. انتحر فعلاً. يئس من كل شيء. وجد نفسه ذليلاً وضائعاً ومهاناً في بلد لا يعرفه ولا يقدره.

. أتذكره جيداً. أين صار من كنت تسميه في سجن كويتا الباكستاني يهوذا الاسخريوطي؟.

ضحكت بهلء فمي وأنا أقول:

. استعار لنفسه نفسه اسم "مناضل". هل رأيت كيف تُشترى الألقاب بأرخص من سعر الأحذية؟  
. أين صار هذا الكلب؟

قلت :

. يواصل الوشاية والحيل حتى اللحظة الأخيرة. تعرف جيدا انه عمل مخبراً  
لسلطة ما في كل مكان هربنا إليه. في إيران عمل في الشرطة السرية بين  
العراقيين الهاربين مقابل ثمن بخس، في الباكستان عمل مع إدارة السجن،  
في النرويج ورغم مرور سنوات على الحياة الجديدة، لم يتعلم غير لعبة  
الاختباء خلف شخص ما، ويحركه كما يشاء في معارك صبيانية لتصفية  
حسابات وهو يختار ضحاياه من السذج بدقة. هذا الشخص مصاب  
بدونية عميقة ويرفض تعلم أية تجربة جديدة ككلب هرم. حتى في  
النرويج، بعد الانكشاف، يهرب من مدينة إلى أخرى خوفاً من انتقام  
ضحاياه الذين يدخلهم في معارك أو سجون أو مهالك.

. هذا شخص جبان ومريض وأنت أنقذته يوم سحله فوق الأسمنت  
في سجن كويتا سجين عراقي لأنه كان يوافق على السجناء العراقيين  
للإدارة وينقل كل شيء عن السجناء وهم في حالة إضراب عن الطعام  
للخروج من السجن . أذكر انه قال لي ونحن في راولبندي إنه يشعر  
بالمرض، حين لا يرى معركة تسيل فيها دماء العراقيين، لكن سالم قرداش  
حالة مختلفة. ظل يقاوم في داخله لكي لا ينحط أو يتنذل حتى استهلك  
كل طاقته. أتذكر أنه كان على وشك الجنون.

. عاش فترة من الوقت مع عنزة. كان الباكستانيون يسمونها عنزة  
العراقي. كان أفضل منا في هذا الجانب لأنه كان يملك شيئاً. هل تعرف  
شيئاً عن إسماعيل...؟

. لا. آخر مرة رأيته كان يهدد بحرق نفسه إذا لم يرحّل إلى أوروبا.

قلت:

. ولم يرحّل. ذهب مع المجاهدين الأفغان وقتل هناك، رغم انه كان نصف  
جثة. هل تعرف صالح الشيخلي؟

. كيف لا؟ كنت تقيم معه فترة من الزمن في راولبندي.

قلت بأسى:

. يقال إنه مجنون الآن.

قال قاسم معقّباً وهو ينظر عبر نافذة بيتي إلى الخليج الصافي في نهار

صيفي جميل ومشرق:

. الطريف في الأمر أنه قال لي عنك إنك مجنون. تلك مفارقة.

. لا توجد مفارقة. كنا مجانين وضع.

قال وقد عاد من تأمل الخليج:

. لماذا لا نترك حكايات الموت ونذهب إلى الصين الآن؟

وضحك قاسم بشغف طفولي. قلت:

. كانت رغبة مجنونة.

\*\*\*

في راولبندي، في مساء بارد، جاء قاسم، فرحاً، لكي يقول لي إنه  
سيسافر غداً إلى الصين. قلت مباغتا:

. تسافر؟ كيف تسافر؟ نحن لا نملك أوراقاً للسفر ودخول المطارات  
وحتى المطاعم؟ نحن نجلس قبالة مطاعم الشواء من أجل شم رائحة  
الشواء عن بعد.

قال ضاحكاً:

. نسافر على طريقتنا الخاصة في السفر، على هاتين القدمين العريقتين  
في الهروب والليل والزحف والنكاح المحرم والغزو والصلاة في أوقات المحن

. هل نسيت؟ كثيرون عبروا الحدود الصينية وعاشوا هناك. لست وحدي. سيكون معي رفيق درب وهو خبير في الطرق والجبال مع رسالة تزكية.

قاطعته:

. من الحزب...؟

. لا ، من قوادة عريقة في إسلام آباد إلى زبونة صينية.

. قوادة؟

. نعم. هل نسيت أين نحن الآن؟ قوادة تستطيع أن تنقذ من الشنق أو

الموت. هل نسيت حكاية القوادة جانيت أو شكرية العطار في روايتك

(المختفي) التي كانت تنقل من وإلى جبهة الحرب وتعاقب وتمنح عفواً

للجنود الهاربين من الحرب وتشارك في ترقية الضباط؟ هل نسيت هذه

الحكاية التي كررتها عليّ في شوارع طهران؟

قلت:

. لكن الأمر مختلف الآن. هذا موسم شتاء وقد تموت في الجبال. تعال

نشرب الليلة مع نرجس واترك حكاية الصين.

في منتصف الليل، على ضوء لمعان نجوم آسيوية شاحبة ونائية ومضيئة، صعدت نرجس إلى الغرفة على مهل كوعل غابي حذر، وخائف، ومتربق سقوط المطر، ضوء النجوم، بريق حشرات الليل، سكون الأشجار، خير الماء، رعشة طيور الظلام. خرجتُ إلى السطح الخارجي، كما فعلها لوركا مع بابلو نيرودا، وتركته يزحف فوق هذه البرية السمراء الملتهبة من النور والحجر والعشب والجسد والأظافر المهاجرة من اليد إلى جبال هملايا الثلجة.

الآن يسافر قاسم شريف على خطوط الشهوة والريح والموت والجمال والعرق والرغبة بلا جواز أو تزكية أو خوف. الآن هو يزحف فوق الجمر كدرويش في احتراقه الأخير.

كان العراء الليلي شاسعاً وممتداً حتى النهايات القصوى للعزلة. في أقصى حدود الليل جرح. على قمة جبال هملايا حيث الأمطار الآسيوية تهطل، الآن، في الضباب، والثلج، هناك في برية البياض والعتمة، يوجد بلا شك كائن أو حيوان يعيش في السر والجحر والظلام وهو ينتظر مثلنا قدوم النهار، نهاية المطر، توقف الثلج، شروق الشمس، نهاية هذه



الحكاية المملة عن الهروب والحرية والدم والجسد واللغز واللذة المسروقة  
من الغيب أو من الظرف أو من الخوف.

قلت:

. كيف كانت الرحلة؟

ضحك قاسم وهو يدخن بشراسة وتوتر:

. مثيرة. هل يخطر ببالك أن يتصور رجل سقوط قبلة في لحظة

القذف؟

. هذا يحدث أحيانا. هذه هي طبيعة الجسد المشطور والذاكرة

المنقسمة. هل انتهت الآن حكاية الرحلة إلى الصين؟

. انتهت تماما.

\*\*\*

شعرت بجوع شره لأني لم أذق طعاماً منذ خرجت هذا الصباح إلى

الشارع والعاصفة. أشعلت أضواء المنزل. طردت الليل من غرفتي .

حاولت أن أطرد شقتي وأنام في عطر قديم لامرأة ضاعت بين البنادق

وصمت الدراويش ودوي الحرب وسكون المآذن وخراب قيعان الدماغ،  
وعفونة عالم سري يرفع شعار الطهرانية، ويمارس القتل والجريمة والحقارة  
باسم أخلاق الرعاع.

أذكر جيداً، على بياض هذا الثلج، كيف كنا نركض في محطة قطار  
المعقل، يسرى وأنا كعصفورين هارين من القتل الطقسي، ووباء  
السلالات القذرة، وحراب القبيلة والغابة والعرق والوحش، والموت المجاني  
السهل لمجتمع تنخر فيه كل أنواع الدود وعتث التاريخ. مجتمع يخوض  
أكثر من حرب، وتنتظره أكثر من هزيمة ساحقة. حرب على الحدود،  
وأخرى في الداخل. الجنود في الحالتين هم حطب القنابل، أو علف  
المدافع. مع ذلك يضع هذا المجتمع العاشق والمعتز بفرديته والبرئ والمسلم  
والنقي والحساس في منزلة الإرهابي، ويقدم البلطجي والقوي والمقاوم  
والحزبي المنحرف والجلف. كانت الهزيمة الحقيقية مستعرة، كالنار، تحت  
الرماد، لكن أحداً لم ير دخان الكارثة القادمة، لا أحد سمع صيحات  
البطريق. من يسمع صراخ العاشق في زمن دوي القنابل وأزيز الرصاص؟

حتى شعراء الوطن، طيور البطريق، لم يسمعوا الهدير تحت الجلد، وتحت قش الرماد.

كنا نركض، كما لو أن العالم ملكنا، على خلفية ذاك المساء البصري الفاتن الذي يقطعه دوي المدافع وسيارات الإسعاف وصراخ الجرحى. كنا، في هذا الخراب المتجول، داخل الوحل والحقد وجنون الوحش، نبدو كطفلين عابثين، متمردين، على قوانين الحرب والجسد والعائلة والقبيلة والدم. فراشتان زرقاوان تحلقان في دائرة النار وتخوضان لعبة الموت الوشيك بسرور طفل مشرف على الموت وهو فرح بهدية مباغثة في آخر لحظة.

عبرنا جسر التنومة تحت القصف، كان الجسر مثقوباً في أكثر من مكان من جراء القصف المدفعي البعيد. بدا هذا العبور المغامر في زمن الحرب من عاشقين هاربين مسلياً وشيقاً وعذباً ومغرياً في مواجهة موت مقبل. هل كنا نريد الموت علناً وفي وضوح النهار لكي يأخذ موتنا شكلاً آخر غير الشكل المقرر في كهوف الوحوش والمردة وذئاب غابة ما قبل

التاريخ؟ هل هو بحث عن موت احتفالي مرئي بطريقة الفراشات وهي  
تحلق حول النار؟

في الطريق إلى فندق (جوهرة الخليج) اشتد القصف. الشوارع مقفرة.  
صادفنا أعمى في السوق القديمة، وسألته:

. ما الذي أخرجك في هذه الساعة من النهار؟

. أهلي. قالوا لي اذهب إلى الفرن لتشتري الخبز.

. ولكن القنابل؟

. القنابل؟ من يفكر بمصير رجل أعمى؟

قلت هازأً رأسي:

. ربما فعلوا ذلك لكي تموت ويعوضون هم.

قال بلغة محايدة كما لو كنا نتحدث عن مصير آخر:

. أحسن من العيش أعمى.

قالت له يسرى:

. تعرف أين الفرن؟

. طبعا أعرف.

في شارع الوطن، سقطت عدة قنابل. كنا نركض في اتجاه الفندق.  
حاولت الدخول إلى الكنيسة للاحتباء من القصف، لكن راهباً مذعوراً  
خرج من الكنيسة هارباً لا أدري إلى أين، أصابني بالقلق. قلت مع  
نفسي:

(أين يحمي الراهب الهارب من بيت الرب؟).  
تذكرت قول بودلير حول شجاعة العشاق:  
(العشاق أكثر شجاعة من الجنود والرهبان).

في الفندق طلبت عرقاً وصعدت إلى غرفتي في الطابق الرابع وشربت  
حتى منتصف الليل على دوي مدافع تلقي قنابلها فوق المدينة بلا تركيز،  
وعلى وميض جراح وحشي لمدافع ميدان بعيدة تطلق القنابل الثقيلة  
فوقنا. كانت وحدتي العسكرية خلف خط الأشجار، في مزارع وغابات،  
قرب نهر السيّاب بُويب، وقرية جيكور، في الدغل والحلفاء وتحت سماء  
رصاصية تنثر مطراً ناعماً جعل القصف والموت والانفجار والضوء  
الحارق والغرفة والمرأة والخوف أكثر كآبة وبربرية وغرابة. كنت أشعر بغربة

حقيقية، مفاجعة، مهينة، وبمشاعر إذلال لم أصادف مثلها أبدا. كيف يكون المرء هارباً في وطنه دون أن يرتكب جريمة عدا الحب؟ كيف يكرم هذا الوطن القاتل، ويطارد العاشق؟ وكيف يصير المجرم بطلاً، والبريء خائناً؟ من يحاكم من؟ ما هي معايير الشرف وما هي معايير الوطنية؟ ومن يحدد؟

مدينة تُقتل علنا بالقنابل ونجوم الجنرالات. أنا ويسرى في انتظار موت مؤجل. كيف يمكن فهم هذا؟ من الذي يموت الآن؟ نحن أم المدينة؟ من هو الجدير بالمطاردة؟ من يشعل نار الحرب أم من يشعل نار الحب؟ من يغامر بالناس من أجل مجد زائف أم من يغامر بنفسه من أجل عشق حقيقي؟ لماذا نحن أسرى في مدينة لا تفرق بين عاشق وإرهابي؟ من سيطلق الرصاص في النهاية على هذه الحكاية؟ المدفعية أم القبيلة؟ من الراح في هذا الموت في ظهيرة العتمة والرماد؟ تذكرت قول أرنست همنغواي (الراح لا يأخذ شيئاً).

كلا سيأخذ كل شيء. الوطن والتوايت والثروة والطبيعة والمقابر  
والغابات والبراري والأساطير وأحلام الجنود الذين قتلوا في الصحارى أو  
على حقول الأعشاب على ترنيمة ساعاتهم وموسيقى عيد الميلاد.

مشاهد رأيتها وموسيقى سمعتها في مستشفى البصرة العسكري، وفي  
وحدات الميدان الطبية القريبة من خطوط الموت في مفرق جوفير وبسيتين  
والخفاجية أو سوسنكرد أو على رمال شرق البصرة أو في مضيق كولينا  
في سربول زهاب وكيلان غرب وفي قرى وعلى حافات نهر الكارون أو  
في مذابح سدي كان الجبلية.

قالت يسرى وهي تحرق في لهيب المدفعية الذي يبرق في بساتين  
النخيل:

. هذه أول مرة في حياتي أشاهد حربا على الهواء.

قلت بذهول:

. هناك حروب كثيرة قادمة في انتظارنا.

كفرس محاصرة، سألت:

. ماذا تعني؟

. هذه ليست آخر الحروب. هذا كل ما أعرفه الآن. وعلى أية حال  
أفضل الموت هنا إلى جانبك في هذه الغرفة على الموت التافه في مكان  
آخر، في الميدان، حيث يسحبون القتلى كما يسحبون الحيوانات النافقة.  
. هل هناك قداسة في الموت؟

قلت بلهجة حاسمة وعلى ضوء وميض بعيد قادم من وراء النهر في  
الغسق الأحمر:

. بلا شك. الموت كالحب يجب أن يمارسه الإنسان بإرادته. بل له  
الحق في أن يختاره.  
. هل هذا ممكن هنا؟

مرت قبلة من فوقنا وانتظرتُ سقوطها. قال لي عامل الفندق وهو  
مصري إن معظم نزلاء الفندق هربوا:  
. لماذا لا تخرج من هنا إلى الملجأ؟  
قلت بلهجة قاطعة:  
. شكراً، لن أنزل.



وتابعت رداً على سؤالها:

. نعم ممكن أن يختار الإنسان موته. لماذا نحن هنا، إذن؟

. هل تعني أننا سنموت في النهاية وتغلق هذه الحكاية؟

قلت:

. ربما نموت معا أو أحدهنا. لكن الحكاية لن تموت، خاصة هذا النوع من الموت. إنه يبدأ من لحظة الموت ويتحول إلى أسطورة. والآن من صحة فراشة جسر التنومة المحلقة قرب فندق الشيراتون.

البصرة شريط أخضر من النخيل والقنابل والرايات ومواكب الحداد والموت الراكض في الطرقات كأشباح قررت الخروج من الأوكار والكتب المقدسة والحكايات والظلام إلى شوارع مدينة تُنتهك تحت النار والسجون السرية وعصابات نمل بشري شره.

ليست بصرة مواسم التمر، وعرس الفراشات، وهجرة العصافير إلى غابات القصب والبردي، وفنادق مطلة على غابات الليل والقمر والأبدية، وشرفات المطر النائي في قصائد السيّاب، ولا هي ميناء البخور

والسحرة والحكايات وصور القديسين والملائكة وعطور الهند، المدينة المفتوحة على الليل والنجوم والرائحة النهرية القادمة من أعماق الأنهار المقدسة الحقيقية أو المتخيلة، ولا ملتقى الصحراء بالماء والشعر والبواخر. كلا.

البصرة هذه متوحشة، كمخلب قط بري. راقصة، تحت النار، كعاهرة قصور الخلفاء المنحرفين، ومهجورة من البخور والعطر والنجوم وفرق أعراس الشوارع حيث يرقص الفقراء حتى الفجر في عرس اليتيم والشريد والأعزل. الفرق الوحيدة المتجولة اليوم في شوارع مقفرة هي فرق الموت للفارين من الحرب والعشاق المتخلفين عن الثكنة والكسالى والهامشييين والمنبوذين المصلوبين على أعمدة الفجر لأنهم بدل الذهاب إلى الثكنات، عادوا إلى مدن لا تنام حتى نجمة الصباح. هذه مدينة أخرى مشوهة، ملعونة، مغتصبة. مدينة لا يتجول فيها الفراهيدي، ولا الحريري، أو الحسن البصري، أو الجاحظ أو الأصمعي.

هذه مدينة يتجول فيها الجنرال ماهر عبد الرشيد، والجنرال هشام الفخري، وكل سلالات القتل والإبادة والوحشية والعفن. الكتاب الوحيد

فيها ليس أنشودة المطر بل نشيد الدم. ليس تموز العاشق هو شهر الحب فيها، بل نيسان عيد ميلاد غراب الخراب، وبوم الفجيعة والموت الداعر. إنه الشهر الرسمي لولادة مسخ، وموت الأشجار وجوع الناس لأول مرة في تاريخ هذه الأرض، وظلال الظهيرة تحت جسور مدينة كانت مفتوحة الأبواب على الأعراب والشعراء والأئمة والشهداء والسفن وكل جوقة نجوم الصحارى التائهين والحاملين بمدينة للحب والصلاة والماء والأمان ومهرجانات الفرح.

اليوم يمر الجنرال، والعقيد، والمخبر، والقنبلة، والمشنقة، والأسلاك الشائكة، وكل عوازل البر عن البحر. من هنا مر يوما سرب كواكب ملوك الليل والمائدة والشعر وتركوا على حجارة المدينة تاريخاً من العشق المبهر البطولي وغاصوا في التراب البصري كبذور السنابل. أسماء، أسماء. أبو موسى الأشعري، الفرزدق، بشار بن برد، واصل بن عطاء، رابعة العدوية، محمد بن سلام الجحفي، إخوان الصفا... الخ. مدينة بابها على البحر، وظهرها للصحراء، ونافذتها على الريح.

في هذه المدينة، نخبئ، يسرى وأنا على صوت أحذية الجنرالات  
الثقيلة وهدير الدبابات والمدافع ولمعان نجوم الوحش على أكتاف  
الخنازير. ملعونة هذه المدينة التي تسمح للقاتل أن يتجول فيها، وتغلق  
الأبواب على العاشق. لم لا؟

حلت الثكنات والسجون ومدن الموت المسورة بدل سوق عكاظ  
وأعراس الحصاد والبحر والتمر والعسل. حبال توابيت الموتى، وثلاجات  
القنص والشظايا، هي التجارة الرائجة. بدل سفن حضرموت محملة  
بالحكايات والحلوى والعطور وأقراط النساء، جاءت البوارج الحربية  
والأساطيل والدمار وموت الأشجار والظلال والأطفال ونهاية زمن  
السهر حتى الفجر في غابات النخل والعصافير والدغل. كانت المدينة  
تنتظر أعراسها من الشرق. تنتظر الخيول والشعراء والأولياء والرايات  
والدراويش من الشرق، من منابع الشمس. الآن لا تنتظر أحداً، ولا  
خيلاً، ولا ولياً. زوجها، في فندق شيراتون البصرة من جنرال معتوه، قدم  
لها جماجم أطفال المدينة كمهر وقرأ لها من كتاب هيئة رئاسة الأركان  
الحربية قواعد الهجوم والهجوم المضاد، ونام معها وفي يده سلسلة مفاتيح  
سجونها السرية تحت المدارس والفنادق والمراقص ومصانع الحليب.

نحن ننام في وطن مفخخ. وطن ملغوم. نعيش في مستودع أسلحة  
وليس وطناً. لكن البصرة رفضت الجنرال. هربت ليلاً إلى تمثال السياب  
وتزوجت الرخام على مشهد من البط والنوارس والنجوم والعشار والشط  
والظل والقوارب ومنازل السعف وغابات النخيل والغسق البصري.

قال سيويه للجنرال الغاضب:

. هذه مدينة للعشق لا للحرب. وهي لا تفهم لغتك، يا سيدي، لأنك  
تتكلم بلغة الرصاص وهذه امرأة عاشقة للبحر والنهار والمرح وجدوع  
النخل وعناق الأنهار والتوابل وأمشاط الخشب والفراشات ورائحة  
طحالب الخليج. اتركها، يا سيدي، ليس من الرجولة أن تركض خلف  
امرأة لا تحبك. قد تنتصر في ميدان الحرب على كل جيوش العالم، لكنك  
لن تنتصر على قلب امرأة. قد تفتح كل مدن العالم، لكنك لن تفتح  
قلب امرأة مغلق. هذه المدينة يا سيدي عاشقة ومتمردة. جاء قبلك  
عرسان من الشرق والغرب، على ظهور الخيل أو في البواخر، لكنها  
رفضتهم جميعاً وفضلت العيش مع بائع جوال من حي الأصمعي، أو

مسّاح أحذية من التنومة، أو حارس ليلي في أبي الخصيب. هذه المدينة،  
يواصل سيويوه، تنتحر، حالاً، من زواج الإكراه حتى وهي في سرير  
العرس وتحت أنفاس الجنرال. انتحارها، يا سيدي، كارثة لأنه علامة على  
موت الأشجار والأطفال وهرب العشاق. اتركها، أرجوك.

صرخت الحجارة:

البصرة لن تتزوج الجنرال.

لن تتزوج الجنرال .

لن تتزوج الجنرال.

. لن تتزوج الجنرال.

قالت يسرى قلقة:

. أنت محموم.

قلت هاذياً:

. لن تتزوج الجنرال.

. من؟

. أنت.

. كف عن الشرب، أرجوك. سأصلي من أجلنا.

قلت وأنا أرنو، عبر الليل البصري الموحش، وعبر غابات النخيل  
المعتمة، تحت الترقب والخوف:

. يسرى أنت هاربة من المنزل وأنا هارب من الجيش. نحن هاربان من  
مؤسستين وحشيتين: الثكنة والقبيلة. أنت جريحة العائلة والحبس والأسر  
والذل، وأنا جريح الحرب والخوف والعصابة. الحدود مغلقة على الهواء  
والنمل ولا توجد فرصة للخلاص. كلانا يواجه موته المؤجل في يوم ما.  
ما العمل؟

قالت مسحوقة تحت تأثير تحولات عاصفة سريعة كثيرة:  
. لم أعد أفكر في النجاة أو الفرار من هذا الوضع. أنا سعيدة لأنني  
عشت لبضعة أيام كما أريد. سأعود إلى المنزل عندما نساfer إلى بغداد.  
وأنت؟

. هل هناك غير خيار الذهاب إلى مواجهة مصيري والعودة إلى  
الثكنة؟

. هل تعتقد أن المحاولة كانت فاشلة؟

. أبدا. بذلنا كل ما في وسعنا. تصوري فكرتُ في اختراق حقول  
الألغام والهروب بك إلى الجانب الآخر. لكن كيف سأبرر وجودك معي  
في الأرض الحرام؟ عندي هوية صحفية ما تزال سارية المفعول ويمكن  
القول انك معي في الصحيفة ثم نطلب زيارة الحجاب الليلي ونفر من  
هناك لكنها مغامرة مخيفة. ماذا أفعل أكثر من هذا؟

كانت تجلس على حافة السرير، في الطابق الرابع، وترنو إلى الغابات  
المعتمة ووميض المدفعية البعيد، وتحسب سراً عدد الساعات الباقية لنا  
قبل أن يذهب كل واحد منا إلى موته الموعود في زمن الحدود المغلقة.  
شعرت بقلبي يختلج كطائر ينزف بصمت، والجنرال يطوف الشوارع وهو  
ينادي بمكبرات الصوت:  
. لا تخافوا مادام ماهر عبد الرشيد في المدينة.

على نحو فظيع، شعرتُ أن هذه النداءات تعلن انتحار مدينة،  
ونشوة جنرال مهزوم من قبل مدينة ترفض زواجه منها هي التي لا تحب  
سوى أناشيد المطر والظل والعصافير واحتفالات العشب والورد وأفراح



السنونو وعودة البحارة من رحلات الغياب. خفت على يسرى من صوت الجنرال أكثر مما خفت عليها من القنابل. لكي أدخلها في النفق، والملجأ، والكهف، وضعتُ رأسها على صدري، كإوزة حزينة، وبصقت عبر النافذة على الوميض الجارح، وصرخة الوحش الصحراوي القادم من أزمنة الجراد والطاعون والجفاف والعمق والقتل ومدارس الاغتيال والسحل.

شعرت أن الجنرال حتى في صوته القوي الواضح، يعلن هزيمته الكبرى، السرية، أمام رجل أعزل يحتضن في غرفة في الطابق الرابع امرأة جريحة سهام العرق والقبيلة والغابة وشرف الرجال الذين يساقون الآن إلى جبهات الحرب من قرونها كخراف المجازر في طقس اغتصاب جنسي وديني وإنساني علي داعر.

في محطة قطار المعقل، كانت تركض مسرورة على صفيح القطار، كما لو كنا راحلين إلى البحر أو جزر رملية أو فنادق غابات الصنوبر. كنت أركض خلفها، تحت نثار مطري ناعم، مخترقا حشود الجنود والجرحى، والمسافرين، مثقلا بحزن بحجم عربات هذا القطار.

عندما صفر القطار وتحرك، وفزت عصفير المحطة، كانت البصرة تبتعد  
في الفجر الجنوبي المشتعل بالنار والخوف والصمت والتعتيم والدخان  
وصرخات الغابات، وتنبثق من مساحات العشب والقناطر وأدغال  
القصب والبردي والنخيل وفوانيس السهول الجنوبية المعتمة، المعلقة في  
الليل كنجوم رهبان الأزمنة القديمة، مدن وحقول ومواسم مطر وشفق  
لازوردي متوهج على حافة صحراء دامية.

من أعماق الفجر أو عربات الجنود سمعت صوتاً هادئاً، ناعماً،  
يرتل، كصلاة، أغنية حزينة تتحدث عن قهوة وقطار الليل، ورائحة هال  
ودلال وقطا وسنابل. أغنية تروي حكاية عشق جنوية لشاعر هارب.  
كل شيء هارب في هذا الوطن أو يفكر في الهروب، كأن هذه الأرض  
التي كانت وطناً للعشق والشعر والحكايات والخصب ومواسم المطر  
والحب والعشب، قررت هذه المرة أن تتخلى عن تاريخ العشق، وتطارد  
العشاق، داخل الوطن، وخارجه، وتحتضن الوحش والجلاد والقاتل.  
تلك اللحظة بكيت.

\*\*\*

. أقول، يا قاسم، بكيت. هل تفهم؟

كان مطرقاً كسنبلة مكسورة. قلت:

. كنت أنوح في القطار كجواد جريح على حافة صحراء بعيدة.

. بقية الحكاية أعرفها. أرجوك. قرأتُ رواية الأعزل وأعرف الخاتمة.

عدتم إلى بغداد وفندق سيوان ثم عادت هي إلى الأهل وغابت وقتلت  
ورُميتُ الجثة في النهر.

قلت وأنا أضع رأسي على ركبتَي متأملاً البحر والغسق الرماني من فوق

صخور شاطئ بيرغن:

. حكاية يسهل الآن تلخيصها في كلمات.

\*\*\*

فتحتُ النوافذ على الهواء الطلق ونثار الثلج. دخل الهواء العذب.  
شعرت بأن جسدي ينتفخ بالرغبة في الطعام والنور والريح فجأة كصقر  
في ذروة شهوة الصيد والانقضاض والإثارة. أنا أيضا صقر صحراوي  
وجد نفسه مرمياً على تخوم هذه البرية الثلجية البيضاء. صقر هارب من  
سجون وحروب وحراب وديوك وأرانب وعقارب نهار لا تمتلك حتى  
مهابة العقرب. فكرت في أن اتصل بنتاليا الليلة أو قاسم أو كاترين أو  
أية عاصفة أو غابة أو بحيرة رماد أو ورد أو أي شريط ساحلي من الرمل  
والنجوم أو أي ذئب. قبل أن التهم طعامي بطريقة شرهة، سمعت جرس  
الباب الخارجي يقرع كجرس كنيسة صغيرة منعزلة في جبل أو صحراء  
منسية. صرختُ في الباب:

. هذا أنتِ؟

قالت مرتبكة:

. نعم. ماذا جرى؟

. لا شيء. كنتُ فقط أفكر في الاتصال بكِ.

قالت وهي تستدير لنزع معطف الثلج والمطر:

. لأن العاصفة أزعجتك. أليس كذلك؟

. ربما. هل أنت جائعة؟

. لا، أكلت الآن. احتاج إلى مشروب.

. أي مشروب؟

. أشعر بالبرد. هل تفهم؟ براندي، ويسكي، بيرة، فودكا، عرق. أي

شيء.

دخلت نتاليا كعاصفة من الأجراس المخبولة، الضاجة بالحوية والعفوية والتوثب والجمال الانثوي الأسر. هذه الفهدة، هذا العطر الوحشي، هذا الثلج الحار، صحراء الشهوة والماء والسكون والعتمة والفراغ والبياض الرملي المشتعل، هذه البرية الشاسعة من النهار الأزرق المتموج، هذا الصخر البركاني الملتهب، هو الذي سيطرد العاصفة من المنزل ويوقف الريح ويمحو جبال الثلج.

قالت وهي تجلس على أريكة في مواجهة النافذة المطلة على الشارع:

. شعرت بوحشة مخيفة فقررت زيارتك. قد يكون الأمر مماثلاً؟

. طبعاً. هل هجرت مأوى الشيوخ نهائياً؟

. نهائياً. أنت تعرف أن ذلك المأوى هو معاشرة للموت والهزم  
والنهاية. هذا أكثر مما أستطيع تحمله. أفكر أحياناً أن المأوى هو مسكن  
للأشباح. كيف عشت فيه كل ذاك الوقت؟  
قلت:

. أنت تعرفين أنني كنت مقعداً ذلك الوقت من جرح قديم، ومع ذلك  
كانت هناك لحظات ممتعة.  
غمزت نتاليا قائلة:

. تقصد تلصصك عبر ثقب المخزن عليّ وأنا أمارس تلك الحالة الملعونة  
مع العجوز؟

. نعم. كانت لحظات مجنونة بكل المقاييس.  
قالت نتاليا وهي تفرغ كأس الويسكي دفعة واحدة:  
. قرأتُ ما كتبه عني في روايتك (سنوات الحريق) وخاصة الفصل  
الخاص مع العجوز. حصلت عليه من كاترين مترجماً إلى النرويجية. حقيقة  
فوجئت وأنا أقرأ. لم يكن الأمر قد جرى كما تصورت أنت، ومع ذلك  
كان الوصف مدهشاً.  
قلت:

. ربما نسيت أنني كنت أنظر من زاوية مختلفة أولاً، وثانياً، أنت كنت مشغولة بتوهج جسدك ومتمتعة به، وثالثاً، أنت لم تشاهدي موت العجوز الروحي والنفسي كما شاهدتُ، ورابعاً، أنني لست مصوراً فوتوغرافياً.

\*\*\*

مرة قال لي قاسم عن وصفي له في رواية (الأعزل) في مقهى ومشرب ومرقص كرانند كوفيه:

. خفت من هذا الوصف. كنت تقول: (لمحت قاسم شريف في قلب الحشد ضائعاً، مستفزاً، كحجل جبلي. كان صورة من ذاكرتي الهرمة. كان جرحاً ناعماً في الكرانند كوفيه. كان خدشا في هذه الموسيقى). هل تعتقد أن الأمر على هذا النحو تماماً؟

- اسمع . الروائي كما يقول الكاتب فانسان جوف يصبح طوباوياً من اللحظة التي يمسك فيها القلم. اللغة تأويل وعلامة. إن خطأ البشرية

الكبير كما يقول نيتشه هو الثقة المطلقة باللغة. بعد فوات الأوان، يقول، بدأ الناس يدركون الخطأ الفادح الذي أشاعوه بإيمانهم باللغة. نحن نعتقد بوظيفة اللغة السحرية. مازلنا نعتقد أن الكلمة تعني الشيء أو الصورة وهذه طبيعة الوعي البدائي. حتى في السياسة، فنحن نستعمل لغة تحليل سياسية لأية ظاهرة مع أننا نعيش في عالم جديد، عالم الرحلات الفضائية، والاستنساخ، وبنوك الحيامن، أو تأجير الأرحام، والسفر إلى الكواكب. قاسم شريف في النص ليس هو قاسم شريف في الكراند كوفيه أو ليس هو تماماً. ما قيمة أن نقوم باستنساخ صور تقوم الطبيعة، كما يقول الرسام ماتيس، بإنتاج كميات كبيرة منها وبإفراط كل لحظة؟ عندما تدخل الصور والأشياء في مصهر الخيال والذاكرة تنعكس بصورة أخرى. أنت تدري جيداً أن غائب طعمة فرمان كان ميتاً في رواية (سنوات الحريق) لكني جعلته في الرواية يجلس في محطة القطار وينتظر. صورتك وأنت ترقص في ذلك اليوم هي فعلاً صورة حجل جبلي أو هكذا رأيتك.

\*\*\*



سمعت نتاليا تقول:

- أمس اتصل قاسم شريف وطلب مني أن أذهب إليك وأبعدك عن

فيلم الحرب. هل يوجد مثل هذا الفيلم حقاً؟

. نعم. وهل هذا هو سبب قدومك؟

. أبدأً. أنا أعرف بصورة دقيقة أن أفلام الحرب في رأسك كثيرة. هل

تستمع بأفلام الحرب؟

. لا أدري. ربما يكون الأمر هو الشعور بصدمة الخروج من الخطر. في

هذا الفيلم رأيت صورتي وأنا واقف وسط كومة جثث.

جفلت نتاليا:

- هل يمكن هذا؟ أنت تستطيع الوقوف وسط كومة جثث؟ لا أصدق.

- صدقي. في الحرب كل شيء ممكن. ألم يصف نابليون الحرب بأنها

عاهرة؟

رأيت موجة غضب تنعكس على الوجه الفاتن الرقيق بصورة غير

مألوفة. قالت بحنق مكتوم:

- لماذا لم يصفها برجل عاهر؟ من يشعل الحروب غير الرجال؟ هل هناك حرب واحدة شنتها امرأة؟

قلت في محاولة لتبديل الجو الرمادي:

- نعم. حربك مع العجوز في ذاك المأوى اللعين.

ضحكت بمرح طفولي:

- كانت أيضا حربه هو. هو الذي كان يستمتع بذاك الموت. لم يكن يقدر على فعل أي شيء عدا الركوع تحت قدمي ولحس جسدي كجرو أعمى يلحق صحن حساء. وأنت؟ أنت كنت تتلصص كثور هائج على جسدي.

- كيف عرفت؟

- قرأت ذلك في روايتك سنوات الحريق.

- هل أعجبك الوصف؟

قالت وهي تنهض لتنثر شعرها من المطر، فرأيت أسرابا من العصافير

الشقر تحلق في الصالة وتغادر إلى الجبال المكسوة بالثلج والضباب:

. قد يكون الموقف مختلفاً كما ذكرت. لكنني فوجئت حقاً لكوني  
مرصودة من رجل آخر. علاقتي مع العجوز أخذت شكل العادة.  
. كنت مستثارة إلى أبعد حد.  
. ربما. سأقرأ هذا الفصل باختصار.

قامت لكي تخرج من حقيبتها دفترًا ورياً كتبت فيه الفصل المتعلق بها  
في الرواية:  
. أنت تقول في روايتك:

( رأيت الباب يفتح في غرفته، بهدوء . أي في غرفة العجوز.  
كان الصمت، والانتظار، وحركة الباب، والضوء الناعم المنعكس  
من مصابيح السقف، كل ذلك يوحي بوقوع جريمة في اللحظات  
القادمة أو توقع إعصار أو مدهامة نجم أو نزول طائر خرافي من الليل  
أو انهيار شيء من مكانه، جبل مثلاً. وكما لو أن العجوز ذبح فجأة  
سمعتُ حشرة أو أنه حادة، طويلة، لم اسمع مثلها خلال سنوات

عديدة، وفي الحقيقة منذ طمرنا في عاصفة ثلجية يوما في الحرب على احد القمم الجبلية الشاهقة.

أما حشجة العجوز الليلة، فقد كانت أطول بكثير من تلك، وأكثر توجعاً، لأنها حشجة القوة الهشة، المغلفة بقناع الحكمة الزائفة، وهو استسلام أكثر منه حكمة. حشجة اللحظة الأخيرة المدلة. سيكون هنا وحيدا في هذه المعركة بلا رفاق سلاح، وليس في مواجهة عدو، بل في مواجهة جسد شرس، براق).

. هل تعتقد أن جسدي شرس إلى هذا الحد؟

. هل يمكن الاستمرار في القراءة، أرجوك؟ هل تشربين شراب

العجوز؟

. إذا كان ذلك ممكنا.

أعطيتها كأسا من الشراب الأحمر المنعش العذب وشربته دفعة واحدة

وهي تواصل القراءة:

. (دخلت نتاليا الغرفة يسبقها عطرها الوحشي، المجنون، الداعر.

أول مرة أرى جسد العطر، ماشياً) علقت قائلة:

. هذا المقطع يصلح قصيدة. اسمع: (كان جسدها عاصفة من

الأحاسيس والشياطين والأجراس المخبولة الضاجة في هذا المكان

المعد كمسرح للموت والشهوة المحرمة).

التفت نحوي فجأة وهي تقول:

. ولماذا محرمة، إذا كان هو يريد ذلك؟

. لكنك كنت تمارسين جنساً متوحشاً مع رجل منهك وهرم؟ جنس

يائس وعاجز وشهوة متلاشية لرجل في خريفه الأخير. هذا إرهاب؟

. على أية حال . تقول في وصفك:

(لم يتكلم العجوز، لم ينبس بحرف واحد، حين دخلت. لم يظهر

على نتاليا المنتصبة القامة كسروة، والمتوتبة كفهدة افريقية مستفزة،

ما يدل على أنها فوجئت بهذا الاستقبال البارد الذي هو خليط من

الشهوة والخوف والخجل والعجز. بدون كلام أيضاً، بدأت في خلع

ثيابها قطعة أثر قطعة أمام العجوز الهامد، إلا من عينين فارغتين،  
ومنهكتين، لكن ينبع من داخلهما بريق غامض، وبعيد، كعيني قرد  
محتضر. إنه بريق الأمطار الغاربة، والشروق القديم للأرواح الميتة في  
خريف أعزل. بريق الشهوة والنفي. رماد النار الخامدة. بريق الأحلام  
الحبيسة في الثلج والجلد والأصابع القابلة للكسر كأوراق الخريف  
الشاحبة على جدول ماء أو حليب. هنا أيضا أتلصص عبر ثقب ما  
في الحائط، بانتظار بزوغ أمل ما، ولو في هذا الغروب الشاحب،  
قرب هاوية نتاليا السحيقة وعطرها الوحشي، الضاري، ودغل  
حنطتها المشتعل، وعلى مقربة أصابع من حقلها المشرق بالسر والنور  
والشهوة وبريق الجزر النائبة، تحت ضوء القمر، التي تمتلئ بها  
النرويج.

حين صارت عارية تحت الضوء والصمت، ندت عن العجوز آهة  
هاربة من صدر مكروب. أما أنا فقد تحركت دهشة وشهوة لهذا  
الفيض والثراء الذي يفيض صحة، ونظافة، عطراً، وفتوة، كسهل  
آسيوي فسيح، ومتوهج، تحت نور خرافي، مجهول المصدر. أدهشني  
أكثر أن العجوز لم يتحرك، حتى بعد أن أصبحت هي عارية تحت

الضوء، وشعر عانتها يلمع بذلك البريق الذهبي كحقل حنطة في صيفه الأخير. كنت أستطيع رؤية نتاليا كاملة في هذا العري الواضح، الحاد، المهيج، والباذخ. عري أرض مشمسة بعد المطر.

خلال ذلك تحرك العجوز خطوة واحدة واقترب من نتاليا التي صار جسدها أكثر بريقاً. جلدها يلمع كسيف تحت الشمس، أو وردة حمراء في النهار أو فوق حافة أرض جليدية مشعة. ركع العجوز على ركبتيه.

أما نتاليا فقد كانت تبدو منتشية بجسدها العاري تحت الضوء أكثر من أي شيء آخر. كانت مأخوذة بنشوة عطرها، وربما بنشوة غامضة ناجمة من وجود رجل راكع تحت قدميها، حتى لو كان شبهاً أو جورباً...

ظهر نهداها أكثر توثباً كأرنب بري أبيض مستفز، وجاهز للانطلاق الآن. نهد صلب، حجري، مستقيم، مكتنز، باستدارة شهوانية معذبة، مهلكة، تحت النور الساطع. نهد قادر على كسر الزجاج أو الرهينة أو الحجر.

كانت تبدو غائبة عن الوعي. ليست غائبة تماماً، بل تعيش في الواقع حالة نشوة، وتوهج، ليس بسبب استمتاعها الجنسي من ملامسة العجوز وتقيله جسدها من الأسفل إلى الأعلى، بل لأنها منتشية بهذا النهد الطافح بالحياة والحليب واللوز والضوء كقمة جبلية مشرقة في ربيع مبكر.

تحركت نتاليا قليلاً في الفسحة الضيقة التي تسمح بها الغرفة. والآن صار بوسعي رؤية الجانب الأيسر من جسدها، الجانب الشرس الذي يبدو مفصلاً عن حنان النهدين وعدوبتهما الصافية. انفصال الحجر عن النور المنعكس عليه. انفصال العطر عن زهرة برية. هذا النهد نهد متوحش وغير أليف كقط شرس.

لم أر، أو ربما لن أرى مثل هذه الضراوة الجهنمية التي يفرضها حضور جسد تحت النور المنسكب من السقف كشلال ذهبي على حجر مرمرى مشتعل. هذا الجسد المتوهج، كيف يمكن حصره في



ثوب بشري، أو سرير، أو غرفة، هو الطليق كسهل آسيوي ريان،  
كبراري رملية، كسرب خيول هائجة في حقل أشقر من الجمر.  
عبر الثقب، تتوهج الغرفة بسطوع جسد نتاليا الطفل، النظيف،  
العطر، الضاج بالأجراس والحليب والشهوة والحريق والمرمر.  
حين رأيت العجوز الآن شعرتُ انه يكابد في الوصول إلى الحافة  
الأخيرة، النائبة، البعيدة، المحترقة من النهد المتوهج، كدغل صيفي  
محترق. لقد واجه الجيش النازي، وغرز علم النصر على قمة جبال  
النرويج، لكنه لن يغرز الليلة رايته على قمة نهد نتاليا الشرس،  
المقاوم. هذه آخر الحروب.

لقد تحولت كل طاقته الداخلية، كل الرغبة، كل الشهوة المحتبسة  
في القلب، إلى رغبة عارمة في الوصول إلى النهد البعيد، النائبي، كما  
لو أن الأصابع الهشة، الجافة، صارت هي التي تقوم بمهمة الاتصال  
الجسدي الآن، فوق جسد ينسكب عليه الرمل والماء والنور، حتى  
ليكاد أن يجرحه الضوء أو الماء الرقراق لفرط شفافيته.  
. أرجوك ساعديني.

نداء استغاثة أو رجاء يأس خرج من أعماق العجوز في محنته الأخيرة.

هكذا أعلن المحارب القديم الذي لم تهزمه جيوش النازية، هزيمته الليلة أمام هذا الجسد المتوهج، أمام العطر والحلمة والضوء.  
. أشكرك كثيراً، نتاليا.

قالها وهو يضع رأسه فوق كفيه متكئاً على المنضدة الصغيرة.  
و حين خرجت نتاليا كما لو أنها أفاقت من غيبوبة، وظل وحده في الغرفة، تحت الضوء المنهمر فوقه، وصوت الريح يعول فوق الصخور، أجهش في البكاء.

كانت صورته على الحائط، صورة الفتى، في الجو الخريفي المتوهج، المشرق، والصخور الرمادية المشعة، تطل على العجوز المنتحب، بسكون، حتى يكاد المرء أن يسمع صوت تساقط الأوراق في ذاك الخريف المتوهج.

من مكاني وضعت رأسي على ركبتي، بصمت.  
المطر وحده ينهمر عبر النافذة )

فرغت نتاليا من القراءة دون أي إنهاك واضح. سألتها:  
. ما هو رأيك؟

. إنه شيء ممتع وظريف. الشيء الذي تجهله تماماً هو أن اسمي ليس  
نتاليا وأنا لست روسية كما قالت كاترين كما هو متفق. اسمي الحقيقي  
دومنيك وأنا فرنسية.

قلت:

. هذا لن يغير شيئاً. صديقي وجاري الروائي بيتر بريست ظهر أن اسمه  
بيورن يانسون. قال إنه كتب رواية له بهذا الاسم المستعار لتجنب  
المتاعب. قال إنه يعتقد بوجود قمع هنا أيضاً. قاسم شريف وأنا وآخرون  
كنا نحمل أسماءً مستعارة. إذا كان ممكناً كيف وصلت إلى النرويج؟

قالت نتاليا أو دومنيك:

. حكاية طويلة أخصها: تزوجت شاباً نرويجياً تعرفت عليه في باريس.  
عندما جئت هنا وعشت معه فترة من الوقت ظهر لي انه يحتاج إلى من

يضاجعه. كان ينام أكثر الأحيان مع أصحابه في أسرّتهم ويتركني وحيدة.  
لذلك قررت الانفصال بعد محاولات.

قلت ضاحكاً بمرارة:

. أنت إذن في مواجهة جنس عاجز ويائس دائماً. بين رجل يحتاج إلى  
آخر، وبين عجوز تالف جسدياً وجنسياً.

قاطعتني بمرح:

. أو بين رجل قادم من صحراء موغلة في الشهوة والعنف والخرافة.

كان الثلج في الخارج يهطل كما لو أنه يهطل أبداً. كانت نتاليا  
مستغرقة في تأمل النهار الفار وسكون الخليج الذي يبدو مضطرباً  
وغامضاً ومعتماً بالضباب عبر الأشجار. على الحائط كان لوحات كلود  
مونييه مشعة خضراء مضاءة ومحتركة بتلك الألوان الدافئة والمتألقة.  
سألتني:

. ما الذي يجعلك تعشق كلود مونييه إلى هذا الحد؟

. ليس كلود مونييه، بل لوحاته. خذي مثلاً هذه اللوحة.

أشرت إلى لوحة (العربة La charrette). قلت وأنا أتأمل اللوحة:  
. هذه اللوحة قام الرسام برسمها يوم كان في عزلة ثلجية في مدينة هون  
فلور Honfleur مع عشيقته كاميلا عام 1865. كان حساساً إزاء  
الثلج ويرى فيه نوعاً من النقاء البري. في هذه اللوحة تظهر المنازل على  
جانبي الطريق وهي مكسوة بالثلج على شكل أشرعة. يبدو الثلج في  
الطريق وردياً كأنه ليس ثلجاً. هذه هي رؤية الرسام. ليس نسخاً بل  
خلقاً. هذا الفنان قال يوماً إنه يرسم كما الطيور تغرد. في العزلة يكتشف  
المراء معنى وحدة القلب خاصة إذا كان الذي يتكلم أو يرسم أو يكتب  
يتحدث من أعماق عزلته.

قالت لي دومنيك:

. في غرفتك تلتقي كل المتناقضات.

. مثلاً؟

. الحرب والجنس، الموت، الزهور، العتمة والتوهج، الخوف والطمأنينة،  
الثلج والصحراء، الجسد والفناء، الشهوة والقلق، الريح والنجوم، حقول  
كلود مونييه وحقول الألغام، حكايات العشق وحكايات القتل، القتلة

والشهداء، الرغبة والتابوت، المرأة العاهرة والمرأة القديسة، الرجل الخائن  
والنذل، والرجل البطل والقديس، العزلة والكتابة.

قلت:

. لا أعتقد أن هذه تناقضات. إنها وجوه مختلفة للشيء الواحد.  
القديسة، مثلا، قد تتضمن العاهرة ولا تتناقض معها. الشجاع قد يحتوي  
على شيء من الجبن، الحياة تحتوي في داخلها على موت متواصل. قد  
يكون الخائن في يوم آخر شهيدا. الخطوط القاطعة والنهائية بين الأشياء  
مستحيلة. كنت أريد أن أسالك عن شيء آخر لكنني نسيت.

قالت دومنيك:

. هل النسيان، حسب هذه الفرضية، هو أحد وجوه الذاكرة؟  
. بلا شك. الآن تذكرت. قلت لي مرة إنك هنا اكتشفت حقيقة  
جسدك. كيف كان الأمر؟

. أنت تسمي هذا المكان بالمنفى. لكن المنفى الأكبر هو أن تعيش في  
جسد لا تعرفه ولا يعرفك. قال لي زوجي انه بوغت بحقيقة جسده. أنا  
أيضا لم أكن أتخيل أن يتحول جسدي إلى ملعب غولف لأصابع الرجال  
الموتى كما رأيت بنفسك. قاسم شريف وأنت وغيركما تعرفتم على

أجسادكم هنا ومن حسن الحظ اكتشفتم السوي والطبيعي تحت  
الأنقاض.

قلت:

. والحل؟

قالت نتاليا أو دومنيك:

. قد يكون الحل سهلاً بالنسبة لي. يكفي أن أتصالح مع جسدي  
وتنتهي المشكلة. لكنك تحتاج إلى قائمة طويلة من المصالحات كي تعيش  
بسلام. مصالحة مع الذات، مع الأزمنة، مع التاريخ، الثقافة، الجسد،  
أبناء جلدتك الذين أظهروا شراسة استثنائية. هل تدري؟ خجلت قبل  
عدة شهور عندما رأيت على شاشة التلفاز النرويجي جثة العراقي القتيل  
في شوارع أوصلو مرمياً فوق الرصيف بصورة مهينة حين أطلق صاحبه  
العراقي عليه النار وهما يخرجان من الحانة بعد جلسة عادية.

قلت وأنا أنظر إلى الشارع الأبيض:

. أعرف القاتل والقتيل. هل اسم نتاليا يعجبك؟

. ليس تماماً. الوحيد الذي كان يناديني به هو أنت. هل تعتقد انك

قادر في يوم ما على إجراء مثل هذه المصالحات؟

قلت:

. إن هذا صعب. لماذا أنا هنا في هذه البلدة؟ المهمة الوحيدة عندي

الآن هي اعادة صياغة الذات. نحن مجموعة ذوات. في الخوف والإرهاب

تنشط الذات لكي تتلاءم لكنها تتحطم. عندما يتحدث الإنسان بلغة

مع نفسه، وبلغة مع الآخرين، أي مع كل واحد بلغة، ويحلم بلغة،

ويكتب بلغة، ويتأمل بلغة، ويطمح بلغة، في هذه الحالة يكون الانشطار

حتمياً. هذا هو المنفى الرهيب. هل سمعتِ نشرة أخبار الطقس؟ هل

سيتحسن الجو غدا؟

. لا أظن. لم أسمع. لماذا لا تسافر إلى مكان آخر؟

. سافرت إلى بودابست العام الماضي وتحطمت الرحلة مع نصّاب

سرق مني كل شيء حتى النوم والشرب والإيجار والرغبة تحت شعار

الوطن والثورة والاشتراكية والموسيقى والمنفى.

قالت، منزعة:



. متاجرة بالوطن، متاجرة بالمنفى. هذه حقارة بشرية فظيعة. هل تعتقد

أن السلطة مسؤولة عن كل شيء، بما في ذلك الانحطاط الفردي؟  
. مسؤولة بلا شك. لكن ليس إلى هذا القدر. هناك مخلوقات منحطة  
بالإرادة والاختيار. من هي السلطة؟ هي هؤلاء. كنا نرى السلطة في  
الحجومات الكبيرة لكن السلطة موجودة في الحجومات الصغيرة أيضا وبغزارة،  
في الجنس والنص والثكنة والسجن والمقدس والصدقة والمدرسة  
والعائلة.. الخ. والآن من صحة ميشيل فوكو؟

ضحكت نتاليا حتى طار شعرها في حقول كلود مونييه الخضراء  
وقناطره الصغيرة فوق جداول يجري فيها نور الشمس والعشب  
والصخور. دومنيك صحراء مسكونة بالليل والخوف والقلق والشهوة.  
وجه عايدة الآخر.

\*\*\*

حين كنت أقول لعائدة وهي مستلقية، ثملة، على السجادة الفارسية

كنقش لامرأة عارية:

. من صحة فردوسي.

كانت تصرخ:

. فردوسي بدر سخنة. أي ابن المحروق.

. لماذا عائدة؟

. في صحة عمر الخيام.

. لا في صحة فردوسي.

تنظر إلى بعينين ناريتين كعيني قطة هائجة تتأهب للهجوم:

. إذا لم تتراجع سأخرج عارية إلى الشارع.

. إذن من صحة عمر الخيام. ومن صحة من أيضا؟

. من صحة نيسابور.

. لماذا نيسابور؟

. عمر الخيام مدفون هناك.

\*\*\*

قالت دومنيك:

. سأخرج الآن. أرجو أن تفعل شيئاً أو تخرج إلى كازينو دبلون بوب

القريب لقضاء الوقت.

. سأنام قليلاً.

. مع السلامة.

رأيتها تمشي في الشارع عبر النافذة كشراع أزرق، وهو لون معطفها المطري، في متاهة الثلج والضباب والبياض أو كشجرة مغطاة بالريح والنور. كان الثلج يتساقط ويملاً فجوات خطواتها فوق الشارع. خطى على الرمل، خطى على الثلج. مخلوقات تعبر هذا الليل والرمل والمتاهة وتنطفئ كشمعة على حافة بحر.

بقيتُ وحيداً على حافة هذا المساء المبعد، المجهول، داخل المنزل وصور الأسود والصحارى والأشجار والنساء والمياه والجبال والثلج والرمل القادم من كتيبان الذاكرة وصرخات جنرال مسعود ومحطة قطار وفجر

عراقي شاحب ومصلوب وامرأة تدخل حلقة النار ورجال يساقون، في الحرب، إلى المسلخ بصمت.

كنت مثل حيوان شرس يحاصره الليل والنار والخطر والدم. أنا لا أعرف هذه البلدة جيدا قبل أن يطمرها الثلج، فكيف الآن في هذا العراء الأبيض كأول نهار ثلجي يطلع على الأرض؟ قررت أن أنام ودخلت السرير كسحلية مكسورة الظهر تجر جسدتها إلى جحر الموت والعزلة

\*\*\*

طفل يركض في براري الصيف المحترقة في ظهيرة الرماد وفي صيف عراقي يشعل الحجر والتراب والشوك والماء والظل والطير والبراري. صيف عراقي مجنون. صيف لإنضاج التمر والثيران والرغبة والموت والجسد والصبايا واللوعة والشهوة والغريزة والحجر.

يبدو هذا الطفل كما لو أنه وجد مزروعاً مع نباتات الشوك والعوسج  
والصبار. طفل يخرج في الفجر مع قطعانه إلى براري الصيف. طفل لا  
يكبر رغم مرور الوقت. طفل مقيم في الطفولة كما تقيم المحارة داخل  
الصدفة أو كما يلتف ثعلب على فروه في المطر والريح والدخان. إنه نوع  
من العصيان البدائي داخل مغارة طفولية مشعة. كنت أشاهد وجهي في  
صور مهربة. كل الأشياء، الأشجار، الشوارع، المدن، الناس، النجوم،  
الفصول، كل الأنهار والعواصف والسهول تكبر إلا هذا الطفل. إلا هذا  
الطفل.

\*\*\*

قلت لسليم مطر عبر الهاتف في جنيف:

. متى نكبر، سليم؟

. لا أدري. صدقني لا أدري.

. هل سنظل أطفالاً إلى الأبد في عالم الأبالسة والشياطين؟

. ربما. لكن أرجو أن تفهم انك لو كتبت (الإخوة كرامازوف) مرة أخرى لما اعترف بك أحد. المناخ الثقافي فاسد. الطبقة السياسية نفسها والمعايير ذاتها. نحن في السياسة والثقافة أمام حرس قديم وحرس جديد. هل تقرأ ما يكتب هذه الأيام في صحافة الدفع التي أفسدت كل شيء، الأرواح والنفوس والضمائر، عن قيمة الرقابة على الأدب؟

قلت:

. نعم، ومن نفس الوجوه الكالحة التي خربت حياتنا هناك. خذ هذا المثل الفاجع الذي يلخص مأساتنا هنا أو هناك: رفضت سلطات بلد عربي دخول روايتي (سنوات الحريق). كان هذا مفهوماً ومنتوقاً. لكن أقصى حالة سخرية عندما رفضت جريدة عراقية في لندن نشر خبر المنع، وتركوا عاملة الهاتف تبلغني بقرار رفض نشر الخبر لكي لا يتركوا أثراً على طريقة اللصوص. لكن المفارقة المفجعة ليست هنا رغم كل شيء. إن الشخص المسؤول عن الصحيفة هو الشخص نفسه الذي طُردت من الصحافة في الوقت الذي تولى هو فيه مسؤولية القسم مؤقتاً قادماً من القصر الجمهوري في جريدة استدعيت للعمل فيها بأوامر عسكرية وطردت منها بأوامر عسكرية. بل أرادت الأقدار والصدف الساخرة أن

تلعب دوراً مسرحياً في غاية الابتذال عندما عرفتُ أن تاريخ منع الخبر في هذه الصحيفة يصادف نفس يوم طردي من الصحيفة إلى جبهات الحرب لأنني سجين سياسي سابق كما أبلغ مدير الاستخبارات العسكرية الصحافية ساهرة نايف التي حاولت التدخل والمساعدة. أي أنك في الحالتين، هنا أو هناك، في مواجهة ذات الرموز والأسماء والعلاقات والقوى. هذه الوقائع موجودة في وثائق وصحف وسجلات. إنهم دجاج كل مزبلة. مرة باسم الأدب الملتزم، ومرة أخرى باسم الأخلاق والحياء، كما لو كنا نعيش في وطن معافى، والقيم مستقرة، والعدالة متوفرة، ولا يعكر صفو هذه الجنة الأرضية إلا رواية أو قصيدة أو لوحة.

هم يخرجون إلى المنفى أبطالا ومقاولين ومسؤولين ورؤساء تحرير صحف وأعضاء لجان سياسية حزبية ووزراء مع الخدم والحشم والسيارات والشقق والأرصدة والأعوان، ونحن نخرج إلى المنفى عراة وفقراء بلا جواز ولا نقود وبلا أطفال أو عائلة أو ملابس إضافية ليتحكموا بنا مرتين. أولادهم يذهبون إلى أرقى المدارس، ونحن وأولادنا نذهب إلى المصححات العقلية. هم يسبحون في بحيرات سياحية، ونحن نسبح في بحيرات الدمع

والفجيرة. قدرنا أن نكون مشردين، وقدرهم أن يكونوا زعماءً وقادةً. هنا تكمن جذور النظام الفاشي القادم. المستقبل في خطواتنا الآن. هؤلاء هم أسوأ أنواع النخب السياسية في العالم، بما في ذلك نخب العالم العربي التي أنتجت الكثير من الحالات الإيجابية. كل نخب العالم تركت فلسفات ومدارس أدبية وثقافية وفكرية وتقاليدي حوار إلا النخب السياسية والحزبية العراقية. لم تخلق إلا سجلات التشهير والتحقير والوشاية والمطاردة والكذب والاختيال والسرقة والمتاجرة. كل ساسة العالم عندما يصبحون في الستين أو السبعين من العمر يصيرون مربين وخبراء للجيل الجديد، إلا السياسي العراقي فهو عندما يصير في هذا العمر يتحول إلى شاذ، يطارد الصبايا أو الأطفال الصغار في محاولة للانتقام من مرحلة الالتزام الشكلية، حتى جرائمه هذه تصبح مبررة على أن النضال السياسي الطويل، ألغى رغبات الجسد. الجريمة تصبح حالة تصوف، وعلى العكس تصبح كل حالة نبيلة ونقية عقدة نفسية. قلب عجيب للمعايير لا يحدث حتى في اشد المواخير وساخة.

توقفت قليلاً وسألته:



. سليم هل أنت معي؟

أجاب بصوت مذبوح:

. معك تماما.

واصلت:

. نحن كنا ومازلنا نعيش في عراق ثقافي وأدبي وسياسي وأخلاقي.

والمفجع أن معظم هؤلاء هم من صنف اللصوص والمتاجرين بالوطن

والثروة والمستقبل كما لو أن الوطن صار ملكية عقارية لهذا القواد أو ذاك

المجرم. هؤلاء يجب أن يحاكموا في المستقبل بتهمة المتاجرة بالعراق هنا أو

هناك ويجب ألا تسقط هذه التهمة عنهم مهما تعاقب الزمن إذا أردنا

فعلا أن نبني وطناً نظيفاً وجميلاً. ليس من المعقول ولا من اللامعقول

أن تعود هذه الحثالات من المنفى عودة الأبطال من المنافي هم الذين

تاجروا بلحم الوطن والناس ومارسوا القتل المادي أو المعنوي أو

مطاردة الشرفاء في المنافي ونصبوا أنفسهم قضاة على هياكل وأشباح

بشرية كانت تريد العيش، مجرد العيش، في منفى مقرف.

قال سليم بصوت مبحوح:

. والحل؟

. نواصل البراءة.

. هل البراءة خيار؟

. لا، إنها قدر.

\*\*\*

صورة معتمة بكاميرا الخمسينات لطفل يجلس ساكنا أمام شجرة  
يوكالبتوس وعلى كرسي في حديقة عامة. صورة لهذا الطفل في حفل  
مدرسي. صورة أخرى له في مأتم، عرس، سجن، حرب، بار، صحراء،  
جبل، ثكنة، فندق، شاطئ، مقبرة، مكتب، ليل، نهار، ساحل، سرير،  
مقهى، غابة، وهو يعبر حدود الليل والقتل والمشقة بلا نقود أو أوراق  
ولا ملابس أو حقيبة. سفر على متن الريح والخيمة وقطارات الهزيمة وعار  
سنوات الحريق والذل والجوع.

صور ملتقطة في مدن أخرى: أهواز، كهريزك، طهران، كرج،  
تجريش، زاهدان، تافتان، كويتا، إسلام آباد، حيدر آباد، كراتشي،  
راولبندي، أمستردام، بودابست، كوبنهاكن، كوتبيرغ، مالمو، أوسلو،  
بيرغن، أورستا، الدار البيضاء، يزد، قم، بغداد... الخ.

هذه أورستا، الجسد الأخير لحيوان الخلد الهارب من العتمة والليل  
والموت والكآبة. عند مدخل المدينة، قرأت، أول يوم، على مدخلها،  
عبارة مكتوبة بخط يدوي خجول وسريع على ورق ملصق على شجرة:  
**فرانك يحب أنيتا.**

قلت إنه مدخل رائع لمدينة جديدة. مدن الشرق القديمة التي دخلتها  
تمتلئ جدرانها بشعارات الموت والقتل وهتافات الإبادة. لم يجرؤ أحد،  
عايدة أو نرجس أو قاسم أو سالم قرداش أو يوسف البابلي أو غيرهم ،  
أن يكتب على الحيطان إلا هتاف الموت الأصم في مرحاض مهجور:  
تسقط الحكومة.

لكن يسرى كتبت بدمها على تاريخ النهار. يسرى طالبت بحصتها من الضوء والنهار مقابل قبر في ظلمات الماء. عادت إلى السر، الجوهر، الأصل، حرية الملائكة، وموت خيول الفرسان بعد القتل والهزيمة. موت بطولي حتى في الفشل. في هذا البرية البيضاء الموحشة، في هذا العراء المثير، أنتظر خلف النافذة كلما صرت وحدي، قدوم يسرى من منعطف الشارع.

قلت لها يوم افترقنا:

- ربما نموت معاً أو أحدهنا، لكن الحكاية لن تموت، خاصة هذا النوع من الموت. إنه يبدأ من لحظة الموت، ويتحول إلى أسطورة.

\*\*\*

اخترقت عبادان في الليل مع السائق الإيراني محمود قادمين من خطوط الحرب ونحن نتكلم بالإشارات بعد أن هربت من خطوط الموت الأمامية، وقرأت شعارات الموت والحرب والفردوس على حيطان المدينة. كنت أرى الجحيم والفردوس والشهداء وآثار القصف في الشوارع.

هذه هي إذن عبادان مدينة الصواريخ والكارون والميناء والدم والحكاية:  
تعودنا القول في المثل العامي :  
(لا توجد وراء عبادان قرية).  
على أساس انها نهاية العالم.

مدن مغطاة بالذباب والجوع والخوف. تلك مدن آسيوية. مدن  
مسوّرة بالحرية والرقص والجنون والخمر والضحك والثلج. تلك مدن  
أوروبية. مدن غارقة في الرمل وأخرى غارقة في الثلج.

ثم إلى أين وقد وصلت الحدود الأخيرة؟ إلى أين يا وحيد؟ هذه هي  
حدود المسافات بين الأرض والخوف والجريمة والمطاردة والهروب؟ إلى أين  
أيها الهارب من المدينة والكاتم وطرق الباب ومخاوف السرير ولوعة صراخ  
الفجر خلف الحيطان في مدن لم تعد آمنة حتى في الحلم؟

\*\*\*

قال شأؤول في آخر زيارة له إلى أورستا:

. أنت سلكت درب الشاعر العراقي إبراهيم عوبديا. هل تعرفه؟

. أعرفه وكتبت عنه. إنه كذلك درب عبد الله كوران ودربك ودرب

الجواهري وغائب طعمة فرمان وثمران الياسري وقاسم شريف والنبي

إبراهيم وسارة .. الخ.

قال شأؤول :

. إبراهيم عوبديا هرب من العراق سنة 1948 إلى طهران عبر بلدة

خسروي.

أذكر بلدة خسروي المقابلة لخانقين. أذكر جيدا كيف دخلنا في أيلول

عام 1988 كمراسلين حربيين، الكاتب والنقابي صادق قدر الخباز،

ومحمد حبيب المعروف بأبي سلام المسؤول السياسي عن حركة و

الانقلاب الشيوعي الوحيد حسن سريع في معسكر الرشيد الذي انقلبت

بشرته بيضاء في أيامه الأخيرة، والمصور التركماني رشاد غازي، والسائق

الفلسطيني أبو مصطفى وأنا.

كان صادق الخباز يسمي البعثة بالفريق الأممي. وجدت صادق الخباز

يقراً في كتاب في مكتب مهجور قال لي عنه بلهفة وشوق:

- إنه رواية (البومة العمياء) للروائي صادق هدايت.

كان صادق يجيد الفارسية.

سألت صادق الخباز:

- هل صحيح انك فارسي الأصل؟

- جدي فارسي لكني ولدت هنا.

هرب صادق قدير الخباز إلى إيران مع جوقة الهاربين من انقلاب

الثامن من شباط 1963 عبر خسروي بالتعاون مع حزب تودة، الحزب

الشيوعي. عمل مع الحزب في طهران وكان مخترقاً من قبل السافاك أو

الشرطة السرية. سُلم إلى العراق عن طريق عبادان بعد انقلاب 18

تشرين الثاني 1963 وأطلق سراحه من السجن بعد شهرين.

\*\*\*

قال شأؤول:

. عاد إبراهيم عوبديا إلى بغداد عام 1949 ثم هرب مرة أخرى على اثر الحملة الغوغائية والطائفية التي قامت بها السلطات مع بعض الصحفيين الذين كانوا يتقاضون رواتب شهرية ومخصصات سرية من أجل التحريض على الفتنة والدس والافتراء. كتب قصيدته: (ضاق بالصمت فانفجر) فدوهم بيته لكنه عرف عن طريق أحد الشرفاء وكان قريباً لضابط شرطة بخبر القبض عليه فهرب إلى إيران ثانيةً.

قلت:

. أحفظ عن ظهر قلب قصيدته الرائعة عن هذا الهروب وهي لسان

حالي:

(من يدري، من سيكون غداً

في هذا الدرب رفيقي

وأنا أتلمس كالأعمى

في جوف الليل طريقي)

قال شأؤول:



. عاش متخفياً في كرمنشاه وطهران، وتبريز، وهو مثلك أحب كثيراً  
ميدان وتمثال فردوسي الشاعر الفارسي مؤلف ملحمة الشهنامة، وكذلك  
شارع الشاعر سعدي الشهير.

يتابع شأؤول تحت وهج خليج أورستا في تلك الليلة الصيفية:

. حتى في غربته لم ينس بغداد ومقاهيها. كتب عن مقهى حسن  
عجمي قصيدة في طهران عام 1951. كانت مقهى حسن عجمي في  
ذاك الزمان مكاناً يجتمع فيه خيرة شعراء وكتاب العراق أمثال الجواهري  
وعبد الكريم الدجيلي وعلي الخطيب وحسين مردان وبلند الحيدري واكم  
الوترى وعدنان الراوي... الخ. كنت في طريقي إلى مدرسة فرنك عيني في  
شارع الرشيد أرى صورة إبراهيم عوبديا داخل واجهة استوديو آرشاك  
وهو أشهر مصور في بغداد في منتصف القرن العشرين. كانت بغداد  
معروفة بمقاهيها التي تتباهى بها كل محلة أو حي. أشهر المقاهي: مقهى  
المصبغة أو الشط الذي تحول إلى ملهى بعد الحرب العالمية الأولى،  
ومقهى باب القلعة، والقهوة المعلكة لأنها في الطابق الثاني، ومقهى  
الشابندر، ومقهى الزهاوي، مقهى سيد علوان، مقهى عبود، مقهى

الباشا في شارع السموأل، مقهى الوقف في باب المعظم، ومقهى عزاوي  
التي اشتهرت بهذا الأغنية:

(يا كهوتك عزاوي بيها المدلل زعلان).

يتهدج صوت شأؤول وهو يقول:

. بعض المقاهي تحولت إلى أمكنة للرقص والغناء والطرب والموسيقى  
خاصة مقهى سواس في شارع الميدان وأشهر عازف قانون في المقهى هو  
يوسف زعرور. ثم نشأت الملاهي وأشهرها ملهى بغداد وألف ليلة وليلة  
والفارابي والجواهري وأبو نؤاس. كان صوت سليمة مراد وسلطانة يوسف  
وزهور حسين وناظم الغزالي وعزرا هارون وصالح الكويتي وسليم زبلي  
والياهو جوري وعزرا يامين ولطيف منشي وزكية جورج يلعلع في مقاهي  
بغداد في الليل حتى الفجر:

(كلي يا حلو امين الله جابك

خزن جرح كلي من عذابك).

قلت وقد قدحت في القلب شرارات الغضب:

. اللعنة على جراد الصحراء و الضباط والأحزاب. خربوا وطناً في  
جمال الفردوس.

قال:

. هل تعرف عفيفة اسكندر؟ كانت ابنة المغنية ماريكة ديمتري وشقيقة  
انطوانيت اسكندر التي صارت مغنية أيضاً، وابنة اسكندر عازف  
الكرمان الشهير؟ هل تذكر سليمة مراد؟

تابع شاؤول وهو ينظر إلى الخليج الساكن في ذلك المساء الصيفي  
المشرق:

- لم تكن هناك مناسبة وطنية أو انتفاضة أو سجن أو مظاهرة لم يكن  
إبراهيم عوبديا حاضرا فيها، وقصيدته عن انتفاضة الوثبة ومقتل جعفر  
الجواهري كانت صحيحة مدوية من شاعر شجاع:

( الجسر يصخب بالهتاف

وبالصراخ وبالصياح

وكتيبة تعدو من

الحرس المدجج بالسلاح

ومكبرات الصوت تنقل  
صوت بغداد الكفاح  
ويسود صمت حين ينطلق  
الرصاص على الرعايا)

تابع شأؤول وهو يجرع كأسه دفعة واحدة:  
. جرائد العملاء والمرتزة شحنت رؤوس الناس بالأكاذيب والضغائن:  
(من ذا يحاسبهم على أعمالهم  
ملكون أم عوني أو السمعاني؟)

. هل تعرف هؤلاء؟ أضاف شأؤول، ملكون هو جبران ملكون  
صاحب جريدة الأخبار وعوني هو عادل عوني صاحب جريدة الحوادث  
والسمعاني هو توفيق السمعاني صاحب جريدة الزمان وطه فياض  
صاحب جريدة السجل وسلمان الصفواني صاحب جريدة اليقظة.  
السجل واليقظة صحف فاشية.  
قلت:

. التاريخ يعيد نفسه اليوم على نحو ساخر هذه المرة. رغم أننا في الخارج الآن ونستطيع قراءة ملايين الصحف والمجلات والنشرات على شبكة الانترنت، ومشاهدة آلاف القنوات الفضائية، فإن الطبقة السياسية تتعامل معنا كجمهور المنشورات والافتتاحيات القديمة التي كانت مصدر المعلومات الوحيد. هل تغيرنا؟ يبدو لي أن هذه العاصفة مرت على مقبرة.

قلت في الغسق الليلي الفاتن في صيف مثير ونحن على حافة خليج أورستا:

- حدثني عن الفرهود، أرجوك. نحن لا نعرف عنه كثيراً.

زفر شأوول وهو يرفع كأسه لليل والنجوم ومياه الخليج:  
. تلك حكاية مريرة وقد ذكرت في كتب كثيرة ومنها كتاب الأستاذ عبد الرزاق الحسيني(الأسرار الخفية في حركة السنة 1941 التحررية) وفي هذا الكتاب بالذات نص التقرير الرسمي للجنة التحقيق في حوادث يومي 1،2 حزيران عام1941. في هذا اليوم عاد الوصي الأمير عبد

الإله من الحبانية بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني ودخول الإنكليز بغداد. يصادف هذا اليوم العيد اليهودي شفعوت أو عيد الزيارة، وحصل احتكاك بين الجنود والضباط المسرحين والمهزومين من الحرب مع نفر من اليهود كانوا متواجدين في المطار في انتظار الأمير العائد. حدث شجار أسفر عن جرح خمسة عشر يهوديا وموت اثنين وكان اليهود فرحين بنهاية حركة الكيلاني وفشله لصلاته مع هتلر. تمكنت الشرطة من إعادة الأمن، لكن بغداد كانت بلا حكومة فعلية، فاندفع غوغاء لنهب البيوت والأسواق فأصدر الوصي أمرا عن استلامه المسؤولية وطالب الجيش والشرطة بحفظ الأمن وإطلاق النار على المشاغبين والمعتدين. قام لواء الخيالة بحماية أمن العاصمة وشرعت المصفحات بإطلاق النار فقتل مائة وعشرة أشخاص وانتهت الفوضى في الثالث من حزيران.

يتنفس بعمق ويضيف:

. تقرير اللجنة الرسمية برئاسة محمد توفيق النائب، اتهم الجيش والشرطة بالتقصير والمشاركة بالقتل والسلب، لكنه تناسى الدور الإنساني الشريف الذي قامت به كتيبة الخيالة الأولى أو كتيبة الهاشمي التي قامت بحماية

اليهود في باب الأغا قرب ساحة الأمين. هناك من يعتقد أن الوصي تأخر في التصرف حتى وصول جنود أكراد يوالونه وغير متأثرين بالدعاية النازية، وشرعوا بإطلاق النار حال دخولهم إلى بغداد. حدد التقرير مسؤولية هذه الأحداث في نقاط عدة منها دور رجال الجيش والشرطة في السلب والقتل والتقصير، ودور المفوضية الألمانية في نشر الدعاية والكراهية ضد اليهود وقد استخدموا نساء ألمانيات جميلات لهذا الغرض في صفوف الجنود، كذلك دور محطة الإذاعة الألمانية باللغة العربية، إضافة إلى إذاعة رشيد عالي الكيلاني وهي تحمل راية العنصرية والفاشية والعرقية المقنعة وكذلك الغوغاء. تلك الأحداث تبدو لي الآن أنها كانت مدبرة من أطراف داخلية وخارجية أدت إلى نزوح اليهود من وطنهم العريق.

لا أدري اذا كان شأؤول يعرف ام تجاهل الأمر ان الموساد الاسرائيلي كان يقف خلف تلك الحوادث لدفع اليهود الى الهجرة.

سألته:

. أين كنت تسكن في تلك الأيام؟

. في محلة السنك. هنا أيضا داهموا البيوت وسُرقت ممتلكات بنت إبراهيم حايمم نائب بغداد. أما في الكرخ فقد قام الجيش بالسلب ونهبوا ثلاثة عشر دكاناً وبعض الدور. في الأعظمية داهموا وكسروا ونهبوا المحلات والبيوت مع الغوغاء. في الكرادة الشرقية وفي الثاني من حزيران بدأ الجيش بالقتل والنهب وجرحوا ستة من اليهود وقتلوا مسلماً كان يحرس دار يهودي في موت إنساني مؤثر ودليل حي على شهامة ويقظة الضمير العراقي. يقول اليعيزر بئيري في كتاب له: (إن كل السكان من المسلمين لم يشتركوا في سفك الدماء، حتى إن بعضاً منهم خبأ قسماً من اليهود وحافظوا على حياتهم وممتلكاتهم) كان لليهود مكانتهم وحقوقهم الدينية والاقتصادية والسياسية في العراق على مر العصور، وكما يذكر الدليل الرسمي العراقي فإن الكنس اليهودية كانت قائمة على مر التاريخ وأشهرها: الكنيس الكبير، وشيخ اسحق، وعبد الله ساسون، وريمه، فرحه عزرا، ونعسة، نسيم الياهو، منشي كرجي، شماس، راحيل شحمون، مسعودة سليمان، سوفير... الخ. كانت المدارس اليهودية معروفة في بغداد مثل فرنك عيني، البير داود ساسون، لورة خضوري للبنات، وشماس وهي مختلطة، سيلاس خضوري في البصرة.



كنت أتأمل اللون الغسقي والوردي المحترق المنعكس فوق جبال قرن  
الرمال في أورستا لشمس منتصف الليل.

كان الليل شفافاً وعذباً والهواء نسيماً في صيف إسكندنافية نادر. كان  
وجه شاؤول الآن كوجه جواد منهك مبلل بالعرق والذكرى والعاطفة  
والحيرة. كان غاطساً في حكايته التي صارت حكايتنا في تاريخ جديد.  
حكاية النهب الأكبر، لكن هذه المرة ضد وطن أعزل في جمال الفردوس  
الموعود الذي تحدثت عنه الكتب وأساطير سومر وآشور وأكد، ورسمت  
وصفاً دقيقاً للجنة السماوية أقرب ما تكون للمستنقعات الجنوبية في  
زمان عذريتها البدائية وبدايات تفتح الأزهار والكروم والقصائد والأرض  
والحكايات ومواسم العشق والخصب وولادة الآلهة. أليس غريباً أن آلهة  
بلاد النهرين مجنونة بالعشق والجسد والنبذ والصلاة والجمال والانوثة  
والموت أو الممر إلى مدن وحياة وعالم أجمل؟

قلت في الحيرة والسرحان :

. يذكر شلومو هليل . ضابط استخبارات إسرائيلي . في كتابه (رياح شرقية) تجربته في سنوات 1946 و 1950 وفي عملية نزوح أشرف عليها بنفسه وأطلق عليها(عملية عزرا ونحميا) تذكيرا بعودة اليهود بعد سقوط بابل على يد الملك الفارسي كورش 538 ق.م، أكثر من مئة ألف من اليهود نقلوا في مدة سنة في عملية عزرا. الآن، يا شأوول، غرقنا في وحل واحد. لكنك أفضل حالاً. أنت في وطن وأنا في منفى. هل تقبل بهذه المقايضة؟

. أبدأ. هل أعيش طول عمري كنزّاح مراحيض؟ إما الموت في بالوعة خراء أو في منفى؟ واش ساغ - ماذا يحصل - لو وجدت شبرا أموت فيه؟

قلت وأنا أرنو إليه بمودة:

. شأوول، اسمع دَقْلُكْ - أقول لك - لا تجبرني على كسر المجرشة. الشبر الذي تريد الموت فيه، هناك من يحلم به. هذا ليس إنصافاً منك. نزّاح في العراق ولا جنرال في الجيش الإسرائيلي.

. لا جنرال ولا بطيخ. تشفع لي وأعود إلى العراق؟

. وهل أشفع لنفسي. ظهر أننا كنا متسللين إلى العراق ولسنا مواطنين. لم تعد تلك البلاد الجميلة لي أو لك. بدأ زمن السبي العراقي.

شرب شأؤول متأملاً الخليج الساكن والجبال الوردية تحت شمس منتصف الليل. قال لي فجأة بصوت متوجع:  
- غن خوية، غن. لا تقل شأؤول يهودي وخائن النعمة. أنا عراقي كما أنت.

غنيت على وجع رمل يزحف تحت الجلد أغنية عمي يا بياع الورد.  
قلت بصوت جاف:  
- يمكنك النوم هنا الليلة؟  
- أنا عائد إلى حيفا الليلة.

قال جملته الأخيرة وهو يرشف آخر بقايا الكأس. قلت وقد فاجأني  
هذه الجملة:

- وحدك؟ أم مع غسان كنفاني؟  
نظر إلى بعتاب مر، وهو يقول:

- أنت تعرف جيداً أنني انتظرت أكثر من نصف قرن لكي أراجع إلى العراق، وأنا الآن في الخامسة والسبعين. أنا عائد إلى حيفا الليلة لأنني لا أستطيع العودة إلى بغداد. أنت أيضاً لا تستطيع العودة إلى بغداد. هل رأيت؟ لقد تساوينا في المنافي والعذاب والانتظار . هذا هو التيه الآخر. هل تريد شيئاً من إبراهيم عوبديا؟

. قل له شكراً على ديوانه (ورود شائكة) . قل له سنعود يوماً.

- إلى أين؟

قلت وأنا أتأمل آخر وهج برتقالي على جبال قرن الغزال بعد

انسحاب شمس منتصف الليل:

- إلى مدن الملح.

\*\*\*

الثلج، الثلج.

هبط الليل كصقر فوق القمم الجليدية. صقر العزلة والغياب. صقر أن تكون وحدك في هذا المدى الأبيض على أرض أخرى. لكن هذه العزلة المشعة، عزلة الرب أو الوحش، عزلة الشفق أو المحار، عزلة الطفل الذي حوّله وحوش الأزمنة الحديثة إلى ذئب يعوي في صحارى الثلج، عزلة الفراشة على ظهر تمساح في بحيرات الرعب، عزلة نجم بعيد انفصل عنه الضوء، هذه العزلة هي نوع من الصلاة والرهبنة والنشوة والخلوة المقدسة بعيداً عن ضباع شرسة جاءت لتتعبنا، بحاسة شم مدربة، حتى في هذه الأراضي المهجورة من احتفالات الصيف وأعياد الفقراء في مواسم الحصاد ومواسم النجاة من الموت أو من الريح أو الطوفان.

جاؤوا خلفنا عبر المدن والقارات والبحار والمحيطات والجبال والسهول كما لو كانوا يملكون حاسة شم تشتهر بها كلاب الاثر. كلاب تستكف منها حتى الكلاب. أفاع، تزديها حتى الأفاعي، كما يقول بابلو نيرودا.

في الجحيم الأبيض النازل من السماء، ومن القلب، من الأشجار، في  
عزلة الأعزل، عزلة فهد جريح، أو أسد يحتضر في خلوة العشب، عزلة  
الراعي الذي اختار الاحتضار بعيداً وحيداً، في هذه الوحشة والقفر،  
كانت رسائل قد انهمرت عليّ من وحش، أو ديناصور قديم، أو كلب  
مسعور، رسائل لا يمكن أن تكون صادرة إلا من شيطان أو جن، وأنا  
في هذه العزلة البيضاء، تحت الثلج، والكابوس والحلم ومرارة انتظار  
الحلم، يقول بخط يده بلغة انقرضت من زمن حثالات الحانات القديمة  
على أنه قادم لمداهمة المنزل وخلع الثياب، عن نزع السروال في البيت،  
عن حرب لن تنتهي، عن القتل، عن أشياء كثيرة، وفي نهاية الرسالة  
توقيع بالاسم الصريح.

قلت، ضاحكا، وأنا أنظر إلى قاسم:

. هذه مبادئ علم النص كما يراها نصّاب وحرامي هرب من العراق بعد  
سرقة متجر في الشورجة. هل هناك أكثر بشاعة من هذا؟

عندما قرأ قاسم شريف هذه الرسائل وضع يديه على جبهته وصمت  
كما لو انه ذبح فجأة. رفع رأسه الذابل، الشاحب، الهرم كوجه حجل  
ميت، قائلاً بصوت مخنوق:

. كنتَ على حق حين كنت تقول دائماً إن الخروج من الجغرافيا ليس  
خروجاً من العقلية وهؤلاء أكثر وحشية من السلطة.

أضاف وهو يضرب الحائط بعنف:

. عندما يسرقون منك العمر ويعطونك قبراً، فهذه مكافأة مقبولة،  
وعندما يسرقون منك الوطن، ويمنحونك منفى فهذه مقايضة مفهومة  
على أية حال. لكن عندما يسرقون منك الوطن والمنفى فهذه  
فضيحة. إلى أين نذهب وقد وصلنا آخر الحدود؟ أذكر جيداً أنك قلت  
في رواية سنوات الحريق عن هؤلاء بأنهم: (حرمونا حتى من الشعور بلذة  
عذاب المنفى).

أضاف بحرقه:

. سرقوا الوطن، سرقوا المنفى.

قلت:

. هؤلاء لم يحتجوا على مبدأ الظلم بل على مبدأ الإفلاس

زفر قاسم قائلاً:

. ألم يقل شكسبير(هناك نوع من البشر مجرد التعرف عليهم يعد رذيلة؟) عن أي شيء يكتب هذا الفارغ؟ يقول إنه أعلن عليك الحرب وأنها قد بدأت الآن. كل تلك الحروب الدموية لم تحرك ضميره الميت. من أين تنبع كل هذه الحقارة؟

. لا أدري. صدقني لا أدري. إذا دقت جيدا ستكتشف ما هو أكثر فظاعة: يقول انه سيأتي إلى المنزل ويخلع الثياب... الخ البذاءة. هل تعرف أن ثقافة نزع ثياب الناس في منازلهم واغتصابهم هي ثقافة هذه السلطة؟ المرء لا يتعلم هذه المعايير بين لحظة وأخرى بل يتربى عليها والكلمات كما يقول البسطاء جالسة على فمه. الزمن سيكشف الكثير.

قال قاسم:



- أنت كتبت مرة عن الموت الفاجع للفيلسوف الفرنسي الشاب بول نيزان وكيف قتل بعد حملة قامت بها جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي الليمونتيه في منتصف الخمسينات متهمه إياه بالعمل في المخابرات الفرنسية ووضعت صكاً على صفحتها الأولى تقول فيه إن بول نيزان يقبضه كل شهر من المخابرات الفرنسية. بعد مقتل نيزان قامت نخبة من المثقفين الفرنسيين ومن بينهم سارتر في التحقيق بتلك الجريمة واكتشفوا أن الذين شهروا بنيزان هم عملاء للمخابرات الفرنسية في صفوف الحزب الشيوعي و طروحات نيزان الفكرية ومحاربه للسلطة وللإرهاب الفكري لستالين هي التي عجلت في موته وهو بريء وإحراق كتبه.

وأضاف قاسم:

. من يكتب بهذه اللغة هو جزء بنيوي وعضوي من عقلية السلطة. في أي شيء يتعارض معها؟ السلطة ليست مؤسسة وثكنةً وسجناً فحسب، بل بنية عقلية ولغوية ومعايير. إنها مفارقة عجيبة بعد كل حالات الفرار المتواصل من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، ومن قرن إلى

قرن، أن تجدد، على سيرك الأخير، قاتلك في انتظارك، وبدعوة منك لكي يزورك ويعلم موتك.

- أرادت الأقدار أن تقدم لي رسالة مثيرة وهي ان الخروج من الوطن، ليس خروجاً من العقلية والذهنية. هؤلاء سياج كل سلطة. باختصار شديد هذا الرجل هو صورة مجسمة للمأساة الحقيقية التي تظهر في هذه التفاصيل أكثر مما تظهر في الشعارات والإعلانات والعناوين.

قال قاسم بآلم:

. هل كنت بحاجة إلى هذا الدرس الذي صرت تترده كنشيد وطني في كل ما كتبت؟

. كنتُ بحاجة فعلاً. نحن ننسى ما نؤمن به أحياناً. هذا النموذج قناع لشريحة من أهل القلم تستروا خلفه ولبدوا في الظلام. هذا الشخص يشكل سلوكاً عريقاً في القدم كصحراء قديمة. صار ينبح في كل مكان. كان العرب القدامى يسمون هذا النوع بكلب السحاب لأنه ينبح على الغيوم والسحب. النصباب على استعداد لإعلان حرب، كما قال

بنفسه، عند الانكشاف، لأن شعور الفضيحة هو كل ما يخافه لذلك  
يبنى واجهات مزيفة ويعلن عن أعمال وهمية من أجل متانة الواجهة.

قال قاسم وهو يتأمل في أوراق على الطاولة :

. كيف تفسر هذه الحقارة ؟

قلت:

. بكل بساطة هؤلاء عاشوا على هذا الرياء والزور والترويج. هناك  
صحف تدفع ثمن هذه البشاعة، وكمثال، نشر هذا المحتال ديواناً بائساً  
كتب هو نفسه إعلاناً واحداً عنه في عدة صحف يقول فيه بطريقة  
ملتوية ( إن الرسام الاسباني فلان الفلاني هو الذي قام بتصميم الغلاف)  
وظهر فيما بعد أن هذا الرسام ميت منذ قرون، كما كتب في صحف  
كثيرة خيراً كثيراً وبالطريقة الخادعة نفسها عن فوزه بجائزة عالمية للشعر  
في أمريكا، وظهر فيما بعد أنها جائزة وهمية. لم يجد من يكتب عن  
ديوانه، فكتب عنه شقيقه المتحذلق باسم مستعار يقول عنه حرفياً  
إنه: (شاعر يوتوبي، ميتافيزيقي، جدلي، مشاكس، لولبي). كل هذه

الحقائق موجودة أمامك في صحف ورسائل. هل تشتهي المزيد من السم؟

وتوقفت لحظة ثم تابعت:

- هذا جزء من تيار وسخ خرب علينا حياتنا في الخارج كما خربها في الداخل، وصادر منا حتى الدمع والألم والمنفى وعذاب الانتظار ولذة الخروج من الكابوس. هل خطر ببالك في هذه الأصقاع الجليدية، هارباً، منفيماً، حزيناً، أن يأتي من يتبعك إلى هنا ويهددك بدخول المنزل وقتلك؟ كيف صار اللص والنصاب قاضياً؟ هل السلطة مؤسسة أم عقلية؟ هل القمع ثكنة أم ذهنية؟ هل نحن أجساد متجولة أم أسلاك شائكة؟ أسئلة كثيرة أطرحها على الليل والثلج. لماذا خرست؟  
. ماذا أقول؟ هل ثمة قيمة للكلام بعد الآن؟

قلت وأنا أنظر إلى سماء بيرغن المطيرة:

. نحن لا نعرف ظاهرة المثقف المختلف في تاريخنا السياسي وغير السياسي. نحن كتل وقطيع حسب ثقافة الأيديولوجيا. ثقافة دمج وحذف وإقصاء ووصم. إنه أمر غريب أن المثقف عندنا بلا تقاليد. لا

يراجع، لا يعيد النظر، لا يتضامن مع آخر، إلا إذا كان من الحزب نفسه أو الطائفة أو المدينة أو القبيلة. مثقف وكاتب على ورق، لكنه خارج الورق شيء آخر. ظهر أن مثقفنا، كالسياسي حتى في أدق التفاصيل لدرجة انه يجهل أبسط الأعراف والتقاليد الثقافية.

. هل يجوز التعميم؟

قلت:

. لا. هناك قلة رائعة لكنها تضيع في حفل التنكر والضجة. مثقفنا يؤمن عن قناعة عجيبة أن حساسيته ورقته وشفافيته لا تتجاوز مساحة الورقة التي يكتب عليها. هو عاشق العصافير والأطفال والزهور والنجوم على ورق، وخارج مساحة الورقة مخلوق آخر. بنية اللغة الداخلية تختلف وتتقاطع مع بنية اللغة الأدبية والسياسية التي يعمل عليها. الأولى غارقة في الدم والغريزة والتراث والذاكرة الشخصية والعامية والثقافة المحلية... الخ.. اللغة الثانية لصق، سطحية، عابرة، لغة كتب، قد يتذكرها مرة وينساها مرات. هناك أصولية ثقافية لا يتحدث عنها أحد أكثر خطورة من غيرها. التمسك بالحرفيات، الإيمان المطلق بسحرية اللغة، أسبقية القواعد على التجربة، التمسك الأعمى بالبديهيات، الخوف من

الآخر المختلف، الخوف من الكشف والتعرية والرغبة الجامحة في ممارسة حياة باطنية، سرية، منحرفة، وفي جانب آخر حياة، سياسية، أو ثقافية، إعلانية، عن جماهير وحقوق وحرية وأخلاق. هذا النوع من الازدواجية، هذا الاستمناء الثقافي، هذا الانشطار اللغوي، هناك من يستمتع به حد الموت، والويل لمن يكشف للمصاب عن التناقض الفاجع بين حياة سرية عفنة، وحياة علنية منافقة. وظيفة الرواية خاصة والفن عموماً هي الكشف. لقد روى الجميع الحكاية: الجنرال والسفير والوزير والرفيق والجلاد والقواد والدعي والتاجر والفقيه والمقاول. آن الأوان للضحية لكي تروي. فليس من المعقول ولا من اللامعقول أن نُحرم من حق الحياة ومن حق روايتها؟

سألني قاسم:

- لماذا المختلف أعزل ووحيد وهامشي؟

أجبتُه بسرور غريب:

- إنه يتيم في عالم الأرقام والزور. هو من الرحم العام ومنفصل عنه. إنه

يبدو، بتعبير مفكر عربي، بلا أصل كونه بلا تكوين مسبق. هو يرضى

بالحامشية والنبذ ولا يقبل السلالة، لكنه الهامش الوحيد الباقي في زمن قادم يتحول فيها هؤلاء إلى شواهد مهجورة . هو منشق عن جذوره، لا أسلاف له كما يقول أدونيس: (وفي خطواته جذوره . يمشي في الهاوية وله قامة الريح). كيف تتوقع أن يكون الأعزل مقبولاً في عالم الأشباه؟ . أليس من حق الإنسان أن يمارس قلقه وحتى موته في عزلة عن وصاية الآخرين؟

قلت:

. المنشق، داخل القطيع والكتلة والأرقام، يتحرك خارج النظام العام. إنه قوة مضادة للتشابه. هذا هو السبب الذي يجعل الغوغاء يصورونه على انه منحرف واستثنائي ومجنون. . أليس هو كذلك فعلاً؟

قلت:

. هو كذلك لأنه ليس عادة أو رقماً أو داخل السرب. هو وحيد واعزل حتى داخل العائلة والسلطة والمؤسسة والصدقة والمكان. غربته ليست غربة الوحش، بل غربة طائر مغرد بين الأنقاض. غربة كناري وسط الغربان. ينتظر في العزلة والعاصفة والنبذ، بزوغ الأمل، الحب،

الجمال، البراءة المطلقة، شروق الروح الحية من بين حطام عالم فاسد. غربته ليست غربة الشاذ، بل غربة المبهر والمدهش، إنه هامشي في المؤسسة، لكنه خارج الاختزال والتصنيف. هو ليس غريباً وأعزل عن المكان، بل الزمان. عزلته في فرادته، وهي فرادة صقر أو فهد، أو شفق، أو ساحل في مساء صيفي، وليس في تشابهه.

نظرت إلى قاسم بمودة وهو يتأمل البحر وتابعت:

- إنه الريح التي في المخاض. إنه مهيار الدمشقي (يقبل أعزل كالغابة وكالغيم لا يرد. لا أسلاف له وفي خطواته جذوره). هذا الأعزل والوحيد والمطرود والهامشي والمختلف هو غريب في حفل تنكري للأقنعة، كيتيم دخل صدفة في أعراس المقاولين والأدعياء والنسخ وصّناع المؤسسة والثكنة والإعلان، لأنه حامل فأس القطيعة مع عالم الزور العلني، وبتعبير مفكر عربي " هو يدخل سوسة التباين في المؤسسة لأنه رؤيا وليس نظرية". هذا المفرد في عالم الجمع يشبه وجوده وسط حفل الأقنعة كوجود طائر خرافي في حقل للغربان: إنها غربة النوع، وغربة الشكل. هو لا يبحث عن العزلة، بل هو مقذوف ومحكوم عليه بالنفي.



منفى الزمان والمكان. إنه يمضي، بتعبير كاتب، إلى الحد الأقصى من الحلم والهديان.

قال قاسم وهو يسحب نفساً عميقاً من سيجارته وينفثه نحو البحر:  
. لكنه مطارِدٌ أبدي.

. هذا هو مجده. ماذا تتوقع من نسر محبوس في مرايا الزجاج هو المحلق فوق الغابات والجبال والسهول والبراري؟ هذا الباحث عن الأبهى والأجمل والأنقى عندما لا يجد من يطارده يصاب بالعطب والخيبة لأنه يخاف أن يقع في التشابه القطيعي والمستنقع. غربته غربة زمان ومكان ويعاني من غيابين: حاضر ليس من صنعه، ومستقبل لا يريد أن يأتي. مادام يعيش، مرغماً، في منفى الأزمنة والأمكنة، فلم يبق له إلا الحلم والانفصام والترقب والذهول والقلق والعزلة والشك والأسئلة والمطاردة. هذا الغزال النافر تزداد سرعته كلما كثر عدد الذين يطاردونه. لكنه الأسرع حتى لو مشى بطيئاً وهم يركضون. خطواته لا تقاس بالأقدام، بل بالضوء. هو ليس مختلفاً عن سواه، بل عن نفسه. لغته غريبة، وهامشية، لأنها ليست لغة جزم وقطع، بل لغة احتمال ونسبية.

قال قاسم:

. هذا الكائن خائن بلا شك.

فرحت لهذه الصورة. قلت:

. هذا صحيح. الخيانة حلم الأعزل. هو خائن الأرقام واللغة الميتة

الصارمة والتافه واليومي وحفلات الوشاية. حين ينتهي المهرجان، ويقفل

السيرك أبوابه، يتكئ وحيداً كنسر على جرح أو شجرة أو عمود نور

مهجور تحت الثلج ويواصل النسيج لا الضوضاء. إنه، في قلب عزلته،

يصغي إلى ديب أزمنة مشرقة قادمة وبجفل لا يكون فيه الأخرس

الوحيد، بل هو المغني في حفل الاختلاف والعشق.

قال قاسم بإعياء واضح:

. يظهر أننا كنا ننام على خدع كثيرة سياسية ثقافية مهندسة بطريقة

متقنة. أسماء كثيرة كنا نقرأ ونسمع بها ونعدها في يوم ما كبيرة ظهر أنها

صناعة حزبية مروّج لها بصورة دقيقة جداً. هذه السلطة كشفت عن

خراب داخلي عميق الجذور، كشفت عن المخبوء والمستتر والمخدوف  
والمطمور.

قلت:

. وهذه هي وظيفة الفن. أعتقد أن هذا المجتمع، حتى بدون حرب،  
كان يجب أن ينفجر في يوم ما، لسبب ما.

قال قاسم معلقاً:

. هناك خلط خطير بين التمرد وبين الصفاقة، بين الجرأة وبين السوقية،  
بين العصيان الشعري النبيل والجميل وبين الدونية. هذا الصنف من  
الناس يعاني مما يسميه علماء النفس (العتة الخلقي) لكنه مموه على نحو  
دقيق، وهو يصيب شخصيات مختلفة في المجتمع بما في ذلك الأطباء  
ورجال السياسة والأعمال والباعة وأصحاب الفنادق وباعة الخمر  
وسماسة البغاء والشعراء والرهبان والكتاب. بعض العلماء يعرفه على أنه  
سلوك سيكوباتي وهو شكل من أشكال الانحطاط العاطفي بحيث يعجز  
هذا المصاب عن إدراك قيمة أفعاله وأقواله على الآخرين، ويتصرف وكأنه

بلا ضمير، ويمتاز بذهنية إجرامية دون أن يظهر ذلك في ملامحه التي  
ينجح في حجبها وراء قناع، وكما يقول طبيب عربي: يتصرف هذا الفرد  
وكأن القواعد الاجتماعية لا تنطبق عليه، بل أن الدكتور كيليكلي  
ذهب في كتابه **قناع الجنون** إلى أن سلوك السيكوباتي: " هو نمط من  
الهزيمة، لأن السيكوباتي مهما أغرى الناس في بادئ الأمر، فسرعان ما  
يفشل وينكشف أمره، ومن الناحية الانفعالية يلاحظ عليه انه أجوف  
ومفرغ وعاجز عن ممارسة المشاعر الانسانية" ورغم كل استعراضات القوة  
إلا أن هذا الصنف من البشر هم في الغالب جناء لذلك فهؤلاء لا  
يجب مناقشتهم كأصحاب وجهات نظر، بل كمرضى بحاجة إلى  
مصحات عقلية. من الغريب أن حياتنا تمتلئ بأصحاب العاهات الذين  
يحاولون تمويه جنونهم خلف قناع الكلمات وهو قناع ملفق.

قلت وأنا أنهض لأرتدي معطفي:

- تنجح حملات الديوك مع السياسي لا مع الأديب.

قال قاسم بضجر واضح:

- كنا ننام على جيفة مغطاة على نحو خارق وفوضى معايير وتداخلها  
وليس غيابها. أشم في الهواء رائحة مذبحة قادمة. لنذهب الآن إلى  
الكراند كوفيه كي نشرب شيئاً على حسابك أو أتركك للبحث عن لحم  
شهبي في مرقص مكسيم في الليل.

\*\*\*

ثلج، ثلج.

ثلج فوق الجبال وعلى قلبي. ثلج حتى النهاية الأخيرة للأرض أو  
النجوم. من قال أن الثقوب السوداء هي نهاية الكون؟ أقصى نهايات  
الأفق عذلة. عذلة النمر أو عذلة صقر مصاب ينزف وحيداً على قمة جبل  
مهجور من المطر والغيوم والحجر والريح. الموت وحيداً وأعزل وصدرك  
للريح بلا نظرة أو وداع أو شهقة أو يد أو دمعة. هذا هو الموت الجميل  
للسور والصقور على القمم وصدورها النازف للريح والأبدية. أنت الآن  
وحيد مع الاحتضار والخراب والجنون الجميل والعذلة والليل. القتلة، هنا،  
الآن، أيضاً، مثل كلاب صيد.

قلت مع نفسي وأنا في حالة قيء:

هذه هي الحدود الأخيرة؟ ثم إلى أين؟ إلى أين نذهب؟

قال لي جلال أمن غاضب في مديرية الأمن العامة في 23 مايس  
1978:

- انزع ثيابك بسرعة كي تعرف.

- ليس عندي غير الثوب.

- انزعه، قلت لك.

- إذا نزعته، ماذا سيحدث؟

- لن يحدث أي شيء. أقول لك اخلع.

رأيت في الزنزانة المكتظة المهندس علي شمة النعماني، مقبوضا عليه  
توأ.

أذكر قبل ليلة كنت أجلس معه في الحديقة الصيفية في حانة (ليالي  
بغداد) نتحدث عن منح فيدل كاسترو وسام خوزيه مارتية إلى الدكتاتور  
النائب خلال زيارته إلى كوبا وحملة المطاردة مستمرة. قال لي علي بلغة  
يقينية:

. الرفيق كاسترو يعرف أفضل منا.

قلت، غاضباً:

. ماذا يعرف؟

. لا أدري ماذا يعرف. لكنني واثق منه.

قلت وأنا أوشك أن أتعرى في البار من الغضب:

. هذا الوباء هو مكافأة على قتلنا جميعاً شيوعيين ومستقلين وشرفاء،

ومع أنني لست عضواً في تنظيم، إلا أننا، يا علي، ستجمعنا يوماً زنزانة  
واحدة.

ها هو أمامي صامتاً، منكسراً، مصعوقاً، في الزنزانة. تجنبتني لكي لا

ينقل، وهو في وضع نفسي حرج جداً، حديث الليلة الماضية. لكنه رأي  
دون أن أعرف.

في الأهواز (1989) في إيران، وفي منزل مزهر النعماني قال لي علي إنه

أصيب بالحرس من التعذيب وعند خروجه كتب إلى مزهر انه شاهدني

في السجن مهشماً ومنهكاً. كان إلى جانبي أيضاً الشاعر عريان السيد

خلف الذي قبض عليه فجأة. لم أكن قد شاهدت عريان إلا ذلك  
اليوم. كنت معصوب العينين كباقي السجناء. طرق عريان الباب عدة  
مرات. جاء حارس وسأله بسخط وتهكم:

. ماذا تريد؟

أجاب عريان:

. سمعتهم ينادونني.

رد الحارس، زجراً:

. ما هو اسمك؟

قال بصوت واضح وهادئ:

. عريان السيد خلف.

. لا أحد يناديك.

عندما أُغلقت الباب، رفعت العصابة عن عيني. عندها عرفت أن  
الجالس ببذلته الرمادية الموحدة إلى جانبي هو الشاعر عريان السيد  
خلف. لقد خدع الحارس وعرف السجناء بحضوره لأن الموت في  
سراديب الأيمن كان ممكناً وعادياً إلى ابعد حد.



قبل بضعة أيام كان عريان قد نشر قصيدة في جريدة طريق الشعب  
بعنوان (الشجرة الخاوية).

لا أدري، الآن، في غمرة الفوضى والقلق، هل الحرس الذي قاد عريان  
إلى نوبة التعذيب قد قال له بلغة سوقية:  
. الآن ستعرف من هي الشجرة الخاوية.

كان معنا في الزنزانة الدكتور صفاء المحافظ وصباح الدرة - اختفيا فيما  
بعد - وكفاح الجواهري الذي خارج من الغرفة بلحية كثة وشعر أشعث  
فعاد بعد دقائق وقد حلق لحيته واغتسل. قال:  
. سأخرج. لقد تدخل الوالد.

قال لي مزهر في إيران في ذلك اللقاء:  
. اختفى صفاء المحافظ وصباح الدرة. وربما أعدما.  
سألته:

- وأنت؟ أين اختفيت؟

قال بمرارة:

- ذهبت إلى الجبل وعدت بجيئة. نزلت قبل شهر من الجبل إلى

طهران ثم إلى الأهواز.

سأله:

- هل مات حلم حرب الشوارع؟

- نعم، وأحلام كثيرة. هل ستسافر غداً إلى طهران؟

قلت:

- نعم. وسأحاول الهروب إلى باكستان.

قال مزهراً:

- أشجعك على ذلك. أما أنا فقد تزوجت.

سأله:

- أين صار عبد الأمير جابر؟

- بائع عربة جوال في سوق الخضار.

عبد الأمير جابر صفصافة ممشوقة القوام، أو زهرة برية تتفتح في ليل  
النعمانية، كما يتفتح قلب أحمر صغير للفراشات، أو كما يفتح شرع  
ملون في وجه الريح، وجدته ينزف على أرصفة سوق الخضار في مدينة  
الأهواز. عندما وضعت يدي على عينيه من الخلف، قال لي:

. تكلم وسأعرف من أنت.

تكلمت. فصرخ عبد الأمير:

. هذا أنت؟

. هذا أنا.

يومها تعانقنا كما يتعانق المشردون والشهداء قبل الصعود إلى أعمدة  
الموت. كنت سأرحل في اليوم التالي إلى طهران والمجهول وسيبقى هو  
يذبل بصمت وكبرياء مثل أزهار الرصيف. في مقهى صغيرة، بعد  
الحديث الطويل عن الحرب والثكنة وذكريات الجيش في أربيل في  
منتصف السبعينات، والهروب السياسي بعد حملة مطاردة الشيوعيين  
والمستقلين والمثقفين، أعطاني كل ما في جيبه من نقود. خجلت أن أمد

يدي لأن عبد الأمير كان أكثر حاجة مني للمال. قال وقد رأى  
ارتباكى:

. خذ. لا تخجل. أنا غير محتاج. عندي عائلة وعربة. أنت لا تملك  
شيئاً. اعتبره قرضاً مؤجلاً، لكنك لم تقل لي كيف نجوت من حقول  
الألغام؟

. أي ألغام، فهي كثيرة؟

حاول أن يغير الموضوع. عندما مغادرته، شعرت بنفسى أغادره للمرة  
الأخيرة. لم أر عبد الأمير جابر منذ أواخر عام 1989، لكنني حتى اليوم  
مازلت أمسك بيدي نقود بائع العربة الجوال الذي ظل مصمماً في كل  
مكان ذهب إليه، هو المثقف العفيف، أن يكون نظيفاً حتى لو كلفه  
ذلك الموت، نزفاً، على رصيف بعيد بلا دمعة أو ذكرى أو صرخة. اليوم  
تعود صورة العربة إلى الذاكرة لا كعربة لبائع جوال، بل كعربة ذهبية  
أسطورية لأمير عراقي مطرود من مملكة النعمانية والحكاية والزمن.

عبد الأمير جابر فضل العيش مع العربة، وآخرون فضلوا العيش على  
أبواب السفارات الأجنبية. قلت له وأنا أغادره للمرة الأخيرة:  
. إذا عدنا يوماً، ستكون في قلوب كثيرة.

رد علي بسخرية مهذبة:

. هل تتوقع هذا؟ هناك كلاب صيد تتربص. سيكون الجبناء في  
الواجهة. وربما ينصبون لنا المشانق بتهمة أو بدونها. هؤلاء لصوص  
كل الثورات. ماذا ستفعل؟

. سأواصل الهرب إلى نهاية الدنيا من أجل حرיתי.

. أخشى أن تجدهم أمامك.

. هذه كارثة. في هذه الحالة قد ارتكب جريمة علنية مروّعة ستكون

آخر صرخة من أجل الحرية. إلى أين نذهب، إذن؟

\*\*\*

ثلج، ثلج غزير يهبط خارج النافذة، وداخل القلب. ثلج من أقصى

نهايات البحر، من أقصى قمم الجبال، من النجوم المطفأة في هذا المدى

العاري من الجنون الطبيعي الجميل والعاصف. كنت قد بدأت أسمع صوت ارتطام الكتل الثلجية بالمنزل. رأيت عبر النافذة الأشجار وهي تتشبث بالأرض وتقاوم العاصفة الثلجية.

نست نتاليا أو دومنيك قفازيها الواقين من البرد والثلج. شعرت أنهما مازالا حارين كما لو أنها نزعتهما قبل لحظة. كان قفاز اليد اليسرى مرمياً فوق ذراع الأريكة متديلاً إلى الأسفل كأصابع هاربة في عتمة الليل، وكان القفاز الآخر محشوراً داخل الأريكة بقوة. نتاليا ليست امرأة عفوية بحيث تترك شيئاً يتداعى منها على حاله، لذلك صرت أدقق في التفاصيل الصغيرة التي تتركها خلفها لأن الشيطان، كما يقول المثل الإنكليزي، موجود في التفاصيل. أحيانا تترك مفاتيح المنزل كي تعود بعد منتصف الليل وتقول إن الوقت غير مناسب للعودة إلى المنزل:

. هل يمكن النوم هنا الليلة؟

. بالطبع نتاليا.

\*\*\*

ها هو جرس الباب يدق. لقد عادت نتاليا كما توقعت. كلا، ليس نتاليا. إنه يوسف البابلي جاء في هذه العاصفة الثلجية من عزلته الجبلية البدائية. قلت له:

. في هذا الجو العاصف؟

. في هذا الجو العاصف. شعرت برغبة قوية في المجيء. هل يضايقك

هذا؟

. أبدأ يوسف.

. شعرت بخوف مفاجئ من الموت والوحدة والعاصفة فهربت إلى هنا.

متى يتوقف هذا الجحيم الأبيض؟ هل سمعت؟ قال أحدهم عن هذه الأمكنة إنها المنفى الأنيق كتابوت من الرخام.

يوسف البابلي رمح عراقي قديم من زمن الانقلابات والأحزاب والمظاهرات والزلازل السياسية التي تجعل الناس يستيقظون من النوم على نشيد وطني، وطابع، ورئيس، وعلم، وحكاية جديدة. فرّ يوسف في أواخر السبعينيات إلى بيروت وتنقل بين عدة عواصم: موسكو، دمشق،

صنعاء، وارشو، براغ، وأخيرا النرويج بعد هروب متواصل حتى داخل  
المدينة الواحدة.

يضحك يوسف عندما أقول له مازحاً:

. يوسف أنت بندقية عتيقة من الزمن العثماني.

. نعم، بندقية لصيد الهواء.

ندخل، حالاً، في حوار مستمر:

. ما هذه الحماسة والحساسية التي يبيدها جيلك الستيني إزاء أية كلمة

أو ملاحظة أو رأي فيه؟

يضحك يوسف البابلي بامتلاء مر:

. هل نسيت؟ نحن ولدنا وعشنا في أحضان انقلابات الضباط.

أقول له:

. والحداثة، والشعر، والتمرد الوجودي، ورامبو وسارتر وكافكا وكامو

وأدغار ألان بو وغوغان وبيكاسو والماركسية والسريالية وبريتون وماركس

وفرويد ومشاريع الكفاح المسلح؟

يرد علي بحدة:



. أقول لك كنا في منفى، هل تفهم؟ كان الوطن في مكان بعيد. ما

هذه اللوحة المشرقة؟

قلت:

. للرسام بول غوغان واسمها منظر طبيعي قرب Arles عام 1888  
وكان وقتها يعاني من ثقل عاطفي في هذه البلدة، ثم رحل فجأة. هذه  
اللوحة رؤية غوغان إلى جنوب فرنسا بعيون أخرى أقرب إلى عيون سيزان  
كما يقول النقاد. المنظر منازل ريفية متداخلة، متراسة، ملتحمة مع  
بعضها، ولون جبس الحيطان يعكس الضوء البرتقالي للسقف والأشجار  
الخضراء. يظهر كدس تبن بلون أحمر واصفر وأخضر على بساط من  
عشب متوهج بألوان دافئة هي الأحمر الفاتر وهو لون سنابل متوهجة أو  
في آخر صيف، والأخضر الهادئ، وخطوط أشجار صنوبر خضراء على  
خلفية من الأزرق الفاتح والأخضر المشع بهدوء وصمت. طبيعة صامتة  
في الظاهر لكنها تتوهج بألوان ستتلاشى بعد برهة من الوقت. كدس  
التبن المشع وسط اللوحة موجود في لوحة تحمل اسم قش في صيف  
متأخر لكلود مونييه أنجزت 1867. كان هؤلاء يمثلون تيار المدرسة

الانطباعية في الرسم وقد تأثروا ببعض. والآن إلى أحاديث الموت والجثث.

قال يوسف:

. هذه اللوحات المشرقة تخفف من شراسة الطبيعة في الخارج.

مرة اتصل بالهاتف وقال لي بلا توقع:

. غدا مسافر مع جثة.

. مع من؟

. أقول لك جثة. مات عاشور اللقلق وسأخذه إلى الأردن بناء على

وصيته كي يدفن في العراق. ظهر أن اسمه عاشور علي.

كنا نلقبه بالقلق من كثرة محاولاته في الهروب إلى أوروبا: في باكستان

هرب إلى الهند ووصل حتى بورما مشياً على قدميه أو في القطارات. قال

لي مرة وهو يعود من الهند، مقبوضاً، عليه:

. صدقني دخلت دولاً من الظلم أن تسافر لها بجواز سفر وبطاقة

طيران وتأشيرة دخول ومطار. دول هي قبائل وطوائف وعوائل لها أعلام

وشيوخ وجيوش ومقرات. شاهدت شعوباً خارج التاريخ. هناك من يعبد

الله ومن يعبد البقر، الأفعى، الفرج، الفأر، الجرذ، القضيب، المرأة، وحتى  
التمساح، والنمر.

حُبس في دهلي عدة شهور بتهمة التجسس، ثم هرب إلى الصين وعاد  
خائباً بعد أن حاصرته الثلوج. هرب في باخرة فرنسية واقفة في ميناء بندر  
عباس الإيراني فتوقفت البخرة في ميناء العقبة الأردني ليعاد ثانية إلى  
إيران، ثم هرب إلى الباكستان فسجن معي في سجن كويتا ستة شهور،  
وأخيراً أبحر في بحر ايجة الذي صار مقبرة بحرية للعراقيين، إلى اليونان،  
ومن هناك إلى بودابست، النمسا، ثم النرويج بجواز سفر إسباني. يومها  
علّق عاشور اللقلق على تلك الكبسة:

. الفقير فوق ظهر البعير وعضه الكلب.

قلنا له:

. هذا أفضل من أن تجد نفسك في ميناء أم قصر. ماذا كنت ستقول؟

قال عاشور لسلطات ميناء العقبة:

. أنا أهوازي وكنت أريد الفرار من الجمهورية الإسلامية.

قال يوسف بعد رحلة التابوت:

. الموت أفضل من تلك الرحلة.

. كيف؟ عيب يا رجل يموت واحد منا هنا ويدفن في الثلج.

قال يوسف بعينه الصقريتين المكسوتين بأهداب بيضاء طويلة:

. أعرف أنك تمزح. لكن تفاصيل نقل التابوت من مكان إلى مكان

وطقوس السفر والتسليم، أكثر شراسة من الموت. إنه ليس موتاً، بل

إهانة. مع الوقت ستكتشف أنك لا تحمل جثة رجل، بل جثة وطن. لا

أتحدث عن عدم الاحترام الذي تعامل به جثث المنفيين واللاجئين في

بعض المطارات، حيث يحمل التابوت في عربات البضائع كحقيبة، بل

أتحدث عن المشاعر المصاحبة لهذه الرفقة. كنت أشعر وأنا في الجو أن

الجثة على ظهري كصخرة سيزيف. لكن سيزيف ضحية عقاب آلهة

ونحن ضحية رعا.

قلت:

. لكن المفارقة ليست هنا. المفارقة أن يسافر عاشور اللقلق لأول مرة

بجواز سفر حقيقي وبطاقة سفر غير مزورة.

قال يوسف وهو يزفر، ناراً:

. هذه ليست مفارقة، بل إهانة. أين الشراب يا رجل؟ هل سنظل نحكي عن الموتى وبحر إيجة والمقابر والحرب؟ هل تدري أننا نتكلم بلغة من الصعب جداً على غيرنا أن يفهمها؟ صارت أكثر الأوضاع المأساوية، أشد حالات الموت بشاعة، كل حكايات الموت والجنون والانتحار والإبادة، كل هذه الصور والأخبار عادية في لغتنا اليومية. أنت لا تستطيع، مثلاً، أن تقول لألماني أو فرنسي أو سويدي وانتم على مائدة طعام أو في مقهى أو في مرقص إن مقبرة جماعية قد اكتشفت تضم عشرة آلاف أو أكثر، أو إن أكثر من ربع مليون مواطن قد اختفوا.. مثل هذه اللغة تصيب غيرنا بالغثيان.

سألته، قلقاً:

. كيف إذن تقبلنا هذا النوع من الحوادث واللغة؟

يجيب بكل بساطة:

. هذا هو التشوه.

ويضيف بضيق:

. قم يا رجل وهات الموسيقى. جثث وحروب وكوارث.

لكنه يتابع:

. هذا موت فئران.

. كيف تريدنا أن نموت يا يوسف؟ ونحن نختف فوق المشانق؟ انتهى زمن الهتاف فوق المشانق. هذا النوع من الموت الاحتفالي مات هو الآخر. الآن يضعون الزجاجاة في أستك وأنت تنشد النشيد الوطني.

نظر إليّ تلك النظرة المعاتبة التي أعرفها فيه حين أفتح جرحاً قديماً.  
تابعت المناكدة:

. نموت على سرير؟ هذا الموت عار في ثقافة العربي. نحن نتباهى بالموت تقطيعاً بالسيوف ولو من أجل كلب أو حصان أو دجاجة. هل يعجبك هذا الموت؟ على أية حال جئت في وقتك. داهمتني العاصفة منذ أيام. أنا مثلك من ثقافة تقطيع السيوف ولا أحب موت الفئران. هل تشرب شيئاً؟ لكن قبل ذلك أين وضعت السيارة؟

. تركتها في مكان لا يسمى. هل يمكن أن تسمى الأمكنة في متاهة الثلج؟ هات الشراب بسرعة.

. زجاجة عرق من اختيار نتاليا. أنت تعرفها جيداً؟

. طبعاً، تعرفت عليها في بيتك مرة. هذه المرأة تحيي الميت. من صحتك.

. صحتك وصحة كل فهود العالم.

. هل بدأ الغمز؟

شرب يوسف البابلي كوعل عطشان إلى الشراب والصداقة والكلام والدفاء والعائلة والصوت والضوء والحنين. قال وهو يمسح فمه بكم قميصه، عادته عندما ينتشي:

. اسمع. هل يمكن أن تترك حكاية جيل الستينيات هذا اليوم؟ لقد سئمت من هذه الحكاية.

. تتكلم، جاداً؟ وكيف نجلس في هذه العلبة الجلدية بدون حكي؟ أنت تعرف أننا نعيش هنا بدون شغل عدا تكرار الحكايات. عن أي شيء نتحدث؟ انقلابات وحروب وسجون ومجازر وأسلاك وألغام وعبور حدود وغرق وهرب وموت. هل لديك حكاية أخرى؟ قال، ضاحكاً:

. ماذا تسمي هذا النوع من الخراب؟

. لا أسميه. لكن هناك من قال عنه (الخراب الجميل). هل توافق على

هذه التسمية؟

. لا، قطعاً. أخشى أن أقول حتى مع نفسي أن هذا الخراب كان

قديراً لا فرار منه. هناك أشياء كثيرة قد تعفنت وكان يجب أو تنفجر

بصورة ما، حرب أو مجزرة أو كارثة. أين قاسم شريف الآن؟

. في بيرغن. قال لي البارحة إنه نائم مع وعمل أو غزال. لم اعد أتذكر

جيذا. قاسم كما تعرف يحاول التعويض عن خسارته القديمة ولو عن

طريق الجنس والتخلي والتجوال والمشى والسكر والعدمية والنسيان.

قال يوسف وهو ينظر عبر النافذة الكبيرة إلى الشارع المغمور بالثلج:

- كل واحد منا يحاول التعويض بطريقته الخاصة. هو عن طريق

الجنس، وأنت عن طريق الكتابة، وآخرون عن طريق الخمر أو المخدرات

أو السفر أو الجنون أو الوشاية. هذا خمر حاد ومنعش. هل يمكن أن

تغلق النافذة بروح قضيب "النفذك"؟

. هل دب دبيها؟



. نعم، يجب أن يدب. ما فائدة هذا اللهب بلا ديب؟ ماذا تبقى لنا  
غير السكر والنوم ورواية الحكايات والعيش عاطلين إلا من الحكايات؟  
عيني على الزجاجاة حتى لو كنت ميتاً. على رأي المثل: تموت المزبلة  
وعينها على الدجاجة.

هذه هي عادة يوسف البابلي في قلب الأمثال عند السكر لأنه كما  
قال له يوماً عاشور اللقلق:

. لم تعد تجمّع زين عند الشرب، يوسف. كبرت.

رد عليه يوسف:

- اسمع لقلق، بعد كل هذه الكوارث لا يوجد فينا من يجمّع حتى

الحمار.

مرة كنت معه في أحد شوارع كوبنهاغن عندما خرج من دكان دعارة

منتشياً، ثملاً، ومشوشاً، وهو يقول بعد قلب المثل:

. الريح التي تريك منها الباب، سدها واستريح.

. ما هذا الكلام، يوسف؟

. مثل عراقي. هل نسيت؟

تابع بعد أن صححت له:

. هل بقى شيء على حاله، كي تبقى اللغة؟

عندما يسكر يوسف البابلي تنهمر علينا ذخيرة الموت من ساحة الميدان، لأن ذكرى انقلاب شباط 1963 محفورة في ذاكرته كوشم على القلب. هذه الذكرى كيوم موته المقترح. أيام العيش الأخرى جاءت مجانية ومصادفة عندما فرّ من سجن خلف السدة وترك الآخرين للرصاص والذبح والسواطير وقطار الموت والشنق والتقطيع والكلاب والوحوش.

في غرف الموت الكثيرة في تلك الحقبة التي مهدت للخراب القادم رأى يوسف الوحش النائم فينا، الوحش الجميل، الوسيم، الناعم، الديناصور الراقد في الدم والظلام والليل الروحي العميق تحت شعارات وعناوين وأقنعة براءة. لكن ذاكرته ليست رصاصاً وعقداً ودبابات. إنها مسكونة بأعوام الدهشة والطفولة والعفوية والفرح البدائي الشفاف والتسكع والمقاهي والحانات والتشرد في الطرقات أو النوم في بيوت الأصدقاء أو

السهر حتى الفجر في الحقائق العامة. تلك، يقول يوسف دائماً، مرحلة الأحلام الوردية. لكنها أحلام مجهضة. أقول له لكي أحفز الذاكرة:

. هل بدأ الغمز؟ هل انتشيت؟

. أنت تعرف أن ذلك حصل منذ حكاية الدجاجة والمزبلة.

. إذن، هل تستطيع الحكيم في هذا الليل الثلجي؟ أعني، هل سنجلس

هنا في انتظار العاصفة والثلج؟ قل أي شيء. تكلم.

. ماذا أقول؟

. أي شيء. الحكاية نفسها. حكاية الثعلب والضباط والشعر

والسياسة والانقلابات. لنبدأ من مقاهي بغداد. هل نسيت قصيدة

حسب الشيخ جعفر:

( فما من بحار

تشد شراعي إلى راحلة دون عوده

وما من مقاه سوى كهوة . في الرشيد! ).

كنت تقول لي إنك من رواد مقهى البلدية. أليس كذلك؟

. نعم، لكن هذا كان في البداية. هذه المقهى كانت شاهداً على ولادة الدولة العراقية ودخول الانكليز وتنصيب الملك العربي. شهدت البلدية في الستينيات ضيوفاً ورواداً مختلفين قادمين من مدن عراقية بعيدة بعد أن كانت مقراً للسياسيين والحزبيين وكتاب بغداد. في الستينات خاصة كانت الحانات والمقاهي في بغداد قد لعبت دوراً كبيراً في صناعة أحداث كبيرة ومهمة. هناك مؤسستان متعاديتان تعملان في آن واحد: البار والمقهى من جهة والثكنة من جهة أخرى.

أسأله:

. والناس؟

. الناس نيام حتى إذا ماتوا استيقظوا.

. أنا لا أمزح، يوسف.

. ولا أنا. هناك طبقة سياسية في بغداد هي التي تقرر. باقي المدن

كانت مخصصة للمظاهرات بناءً على أوامر أو الموت في الشوارع وفق

تعليمات حزبية. حضور الناس الحقيقي هو حضور فعالية ومشاركة في

القرار وليس حضور الجثة. هل أستمر؟

. تفضل.

. هناك من يقول إن بعض فصول ثورة تموز 1958 قد تمت في بار شريف حداد. أشهر مقاهي بغداد في تلك الحقبة هي: البرلمان، عارف أغا، البرازيلية، الزهاوي، مقهى مجيد، أو مقهى إبراهيم أو مقهى المعقدين ومقهى حسن عجمي، والبيضاء، وسمر، وياسين. قلت لك مرة إنني هربت من سجن خلف السدة إلى منزل صديق في بلدة سلمان باك جنوبي بغداد حتى انقلاب 18 تشرين الثاني 1963 .

. لكنك تزوجت وعملت وأنجبت وسافرت وتظاهرت وسجنت وتملكت. كنت تستطيع أن تفتح فمك في حقبة في غاية التناقض والالتباس. نحن الجيل الذي جاء بعد تلك الفترة في السبعينيات وجدنا الدبابات والمشانق في الشوارع. لم تعد السلطة هي صراع جنرالات في ثكنات، بل صارت كابوساً.

قال وهو يمص سيجارته بقوة:

. نعم، نعم، هذا صحيح. هي في الأساس لم تكن صراع عقداً كما تظن. كانت حقبة مشحونة بكل ما هو غريب واستثنائي في الثكنة والشعر والسياسة والمجتمع والعالم. لكن الفارق هو أنها لم تكن سلطة

مشروع سياسي أو فكري. كانت أيديولوجيا. كانت مقدمة لصعود الفاشية الذي تم بصورة سرية ومنظمة وعجيبة. كانت مرحلة فوضى مهدت للكارثة في غفلة من الجميع، ضباطاً ومثقفين.

قلت:

. إنه مخاض لكن الولادة جاءت مشوهة. كان هناك في الثكنات صراع الضباط، والأحزاب، والعقائد، والمصالح الدولية، وكان هناك في المقاهي صراع من نوع آخر. مثقفون وكتاب شباب تدفقوا على بغداد من البصرة وكركوك والعمارة والكوت والنجف والموصل وغيرها، يريدون ليس تغيير الوطن، بل العالم. من فاضل العزاوي القادم من كركوك مع سركون بولص ومؤيد الراوي وأنور الغساني وجان دمو وصلاح فائق إلى الأب يوسف سعيد من الموصل، إلى إبراهيم زاير النازل من العمارة، وسعدي يوسف القادم من البصرة، إلى عبد الرحمن طهمازي من سامراء والخب. هؤلاء وغيرهم كانوا قد عاشوا بدرجات متباينة السجن والتصعلك والتشرد والحرمان والقمع والشعر والبراءة والالتزام. هذا المخاض الجميل أسفر عن أقدر فاشية على وجه الأرض. كيف يمكن تفسير هذه الجريمة؟ أين كان المثقف والكاتب والشاعر؟

قال يوسف البابلي وقد بدأت رموشه تضطرب علامة السكر:  
. هؤلاء كانوا إما في السجن، أو خارج المؤسسات والأحزاب رغم  
الانتماء. كان القرار يتخذه الضباط في الثكنات وينفذه جهاز دولة  
فاسد. هؤلاء كانوا مبعدين سواء من السلطة أو من الأحزاب ومن  
مصادر القرار. كانوا مشغولين بقصيدة النثر كما هم الآن في هذه المحنة،  
والريادة الشعرية وتعلم اللغات الأجنبية في السجون أو كتابة الروايات أو  
القصائد والتفكير في كتابة سيرتهم في السجون حتى قبل خروجهم منهم.  
كانوا أطفالاً مبهورين(سحرتهم بحار ومظاهرات ومسيرات البشر  
الراقصين والمغنين في الشوارع المتحولة إلى أعياد قائمة ليل نهار  
وانتموا إلى كل ما اعتقدوا أنه سيقودهم إلى الحلم بعالم جديد) كما  
كتب عنهم فاضل العزاوي في كتابه(الروح الحية) عام 1997.

أضف وهو يشهق شهقة طالعة من الخراب:  
. قلت لك أنها مرحلة الأحلام الوردية. هل نسيت؟ هل جسد نتاليا  
خرب ذاكرتك؟ كنا نريد الحصول على الممكن والمتاح. هل تفهم؟ كنا

نفكر على طريقة المثل القائل: عشرة عصافير في الشجرة خير من واحد في اليد.

قلت مصححاً:

. عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة.

. على أية حال. في الحالتين لم نحصل على أي عصفور. جاءت

الشركات الأجنبية وسيطرت على كل شيء وصرنا قطع مشردين في

منازلنا. الضباط كانوا لعبة. كان صراعاً على النفوذ وتقسيم العالم ولعبة

الأمم ونحن جنود شطرنج نموت في سبيل أهداف مموهة سواء كنا

يساريين أو قوميين أو شيوعيين أو مطيرجية.

قلت وأنا أغلق النافذة على فجر أبيض، حيث الثلج ما يزال يهطل:

. كان الضباط يظهرون شراسة وخطرسة واستقلالية.

. مع الناس فحسب، لكن معظمهم، وبلا تعميم، كانوا أذلاءً وعبيداً

وأجراءً للملحقين العسكريين الأجانب ورجال المخابرات الدولية

وشركات النفط والبنوك. ماذا يستطيع أن يفعل شاعر كالجواهري مثلاً أو

السياب أمام عقيد أرعن وشرس مثل طه الشكرجي؟



قلت:

. لعلك سمعت عن المكالمة الهاتفية التي جرت بين الزعيم عبد الكريم قاسم وبين الشكرجي عندما كان الزعيم محاصراً في وزارة الدفاع في الثامن من شباط 1963؟

قال يوسف البابلي وهو يزعم شفتيه:

. لم تكن في الحقيقة بينهما. كانت بين الزعيم وضابط آخر للاتفاق على شروط خروج الزعيم من الوزارة وتسليم نفسه. لكن الشكرجي دخل على الخط وقال للزعيم بوقاحة: (بلا شروط. أو تأكل خرا) هل يمكن أن تصل قلة التهذيب إلى هذا الحد؟ مهما كان الموقف لكن الزعيم كان قائد الدولة في تلك اللحظة. هذا العقيد الأرعن هو الذي ارتكب جرائم إبادة اللواء العشرين في مضيق كلي علي بك عام 1974 وعرضه للتدمير.

لم يكن يوسف البابلي يعرف أنني كنت شاهداً على مذبحه المضيق. كنت حاضراً حضور الرصاص المنهمر من فوق قمم جبال نواخين وكورك والصخور والأحجار والغيوم والأشجار. قلت له:

. كنت هناك عندما تم تغيير خطة دخول المضيق بفتح درب خلف  
جبل كورك لصعود الدبابات.

ضحك يوسف:

. طبعاً. أنت الشاهد الأبدي على كل المجازر والسجون والحروب  
والأسلاك وحالات الموت والجنون والعشق والفرار والقتل. هل ستأتي  
نتاليا الليلة؟

قلت وقد شعرت أنه يتكلم وهو نصف نائم:

. هل تشتهيها الآن؟

تجاهل السؤال الساخر قائلاً:

. في عام 1963 علّقوا الشاعر محمد بحر العلوم من يديه إلى جدار  
المرحاض. من لا يكون ضحيةً، يكون جلاداً. هل تعرف عبد الستار  
سبع العبوسي؟

قلت:

. منفذ مجزرة العائلة المالكة الذي انتحر عام 1970 في ظروف  
غامضة بعد أن أدمن الخمر.

. لم يكن وحده. هجم الغوغاء على الجثث وجروها بالحبال في شوارع بغداد. كانت كلمة سحل هي المهيمنة في فكر الإبادة والموت ونداءات القتل وشعارات الموت لدى كل الأحزاب. أنت تسأل عن دور المثقف. أليس كذلك؟ سواء في عام 1958 أو في كل الانقلابات لم يشترك فيها أي كاتب أو مفكر أو مثقف. كان المثقفون مبعدين من مراكز القرار في السلطة أو خارجها، وكانوا في كل الانقلابات إما في السجون أو في الملاهي أو الحانات أو المنافي أو في الغرف يناقشون الريادة الشعرية والبيان الشعري الذي قد يكون كتب تحت تأثير بيان حركة الشعراء العدميين في كولومبيا المنشور وقتذاك في مجلتي Mito و Eco الصادر سنة 1958 باسم (البيان العدمي الأول) وملخصه كما نشر في الصحافة الإنكليزية والفرنسية (ثورة في شكل النظام الفكري السائد وفي محتواه) وفي الوقت نفسه كان تيار (الانفجار) Boom يهز أمريكا اللاتينية. كانوا، في غمرة الانبهار لتغيير العالم، قد تعاملوا مع قضية السلطة والحرية والتغيير كمشروع قصيدة. لذلك كانوا نياماً، حتى عاهرة في الموصل كانت تعرف سر انقلاب شباط 1963 عن طريق ضابط متوله وعاشق تعرف عليها في ملهى. متى تأتي نتاليا؟

. لن تأتي الليلة. قد تأتي غدا. هل تعرف جان دمو؟  
. نعم، بلا شك. جان صديقي. تعرفت عليه في مقهى سمر الواقع في  
الباب الشرقي في فرع يربط شارع الرشيد بشارع الجمهورية وقرب سينما  
الخيام. هذا المقهى يلتقي فيه في تلك السنوات الشعراء والقوادون  
والمخبرون والحشاشون واللوطيون والسياسيون والضباط والعاشرات، حتى  
أن ضابط أمن قال لي بعد نهاية الأحداث: نحن لم نكن نعرف هل كنتم  
سياسيين أم "مناويك"؟ كان يسجن الجميع على الهوية، أي كل من  
يجلس في المقهى. هناك تعرفت علي جان وهو مخلوق نظيف وقلق  
وظفل.

قلت وقد بزغ الفجر عبر النافذة والثلج يهطل ويوسف البابلي عاد  
إلى صحو طارئ وهي حالة اعرفها فيه جيداً وتشبه حالة ما قبل الموت:  
. جان عمل محرراً في جريدة الجمهورية في حرب الخليج الأولى عندما  
طلب منه مدير التحرير مرة أن يجهز صوراً عن الحرب. فسأله جان دمو:  
الحرب؟ أي حرب؟

ضحك يوسف بعمق وامتلاء لأول مرة هذه الليلة وقال:

. جان في حرب أشباح دائمة.

رحت أقرأ قصيدة لجان:

( عاش بقلب مفعم بالألغام

طوال حياته

في صيف كله أسرار وطلاسم

أكتشف

أن تحت مياه الجرح

كناراً

لا تخبروه بأن في الصحراء، سحراً

فقد عرف ذلك

بعد طفولته).

تلك هي بغداد، يا يوسف. أين كنتَ في ذلك الزمن الوحشي حيث  
الموت يزحف في طرقات المدن، عارياً، داعراً، كوباء مكتسح يجرف  
ضحاياه في قسوة غول مستثار؟ إنه الزمن الغول والغوريلا التي تستحم في  
الشوارع تنادي الجثث والقتل. هل كنت في البئر؟

\*\*\*

قال لي محمد حبيب المسؤول السياسي عن انقلاب حسن سريع  
الفاشل حيث عملنا معا في مجلة واحدة في السبعينيات وتحول لونه إلى  
الأبيض من كثرة البياض الزاحف على الجلد والقلب والروح:  
. لو أُعدمت مع حسن سريع لكان ذلك أشرف.

. لماذا، أبو سلام؟

. تلك حكاية طويلة.

. قل أرجوك. هل تقصد طبول فرق الرده و حروب الديوك؟ هل  
هناك ما لم نخسره بعد؟ ماذا يريد هؤلاء منك لأنك في الأقل شاركت في  
ثورة فاشلة في معسكر الرشيد أجهضوها هم أيضاً، ثم صاروا بعد ذلك  
بسنوات شركاء مع جلاديههم؟ من يحاسب من؟

خرجت من منزل محمد حبيب في البلديات قرب المشتل وحي الأمين،  
إلى الحانة مباشرة لكي أطفىء نار حرائق القلب في تلك الظهيرة المهلكة  
حيث الغبار والموت والشرطة وجنازات الحرب وحدها سيدة الشوارع.

\*\*\*

الفجر الأورستي الزاحف من خلف الجبال، الفجر العاري الأبيض،  
فجر بداية الحكاية، ينهمر على وجه يوسف البابلي كشلال من الضوء،  
أو ظلال الصيف في ظهيرة الرماد والموت. هذا الرجل الحالم، القادم من  
أزمة الذكرى والخوف والجنون المفضوح، هذا الرمح البابلي البراق كقمر  
برية، أو غسق صحراوي، هذا الحزن البغدادي المدفون تحت الرمل  
كخناجر العجر في قصائد لوركا، يستريح الآن على حافة هذا الفجر  
الأزرق من حكاية السجن إلى سجن الحكاية. لقد تحرر وجهه بعد أن  
رؤى وصار طليقاً كقارب متوثب على حافة خليج أورستا الذي يُرى  
عبر النافذة. قلت لكي أحفزه على الحكاية أكثر:

. أنتم، أقول أنتم. هل كنتم حزبا أم قبيلة؟

ضحك النمر الآسيوي الهرم. ضحك صقر براري الفراغ والفلقة:

. الحق أقول لك، كنا قبيلة. كل اليسار العراقي كان قبيلة. الآن أفكر

ملياً في تلك الأحداث واسأل نفسي: ماذا كان يحدث لو كنا في

السلطة نحن؟ لن تتبدل سوى التفاصيل. ألم يعدك شويعر ونحن هنا في

النرويج بأنك يجب أن تحاكم في العراق ( في النظام الديمقراطي المقبل على

رواية سنوات الحريق؟). لماذا لا تحاكم هنا؟ هذا ليس نظاما ديمقراطيا.

هل تعرف لماذا؟ لا توجد هنا مشانق. هل رأيت كيف تصير السادية

والجنون والعتة والبلادة والحقارة والأمية وجهة نظر؟ إنني خائف ليس

على ما حدث، بل على ما لم يحدث بعد. ألم يصرخ كاظم النجار في

رواية (سنوات الحريق) في ساعات احتضاره: الحريق، الحريق؟

قلت:

. نبوءة نوستراداموس قد تحقق بعضها:

(سوف يدخل، شريراً، مؤذياً، سافلاً،

يفرض الإرهاب على ما بين النهرين

كلهم أصدقاء أولاد ابنة الحرام



أرض فظيعة، وهو أسود الوجه).

- من هم أصدقاء هذا الشرير؟

يصرخ يوسف البابلي:

- أقول لك نحن. أتصور الآن أنه صورة علنية مفضوحة وعارية

مضخمة ومجسمة لنا. هل هذا يكفي؟ هل نواصل الحكاية ونترك النوم؟

لماذا حين نحكي ننسى الطعام والنوم والموسيقى والجنس والسيارة والثلج؟

- هل تريد النوم؟

- أنا منهنك تماماً الليلة. لن أعود إلى هذه الحكاية مرة أخرى. من يعضه

الحبل، يخاف من الأفعى.

- كيف قلبتها يا رجل؟ صحيح كلام عاشور اللقلق: أنت لم تعد

تجمع. من تلدغه حية، يخاف من جرة الحبل.

نام يوسف على نتف الثلج الهابط وفجر إسكندنافي أزرق. نام

كنسر هرم وحيداً على قمة جبل بعيد. نام على الحكاية الأخيرة كطفل

وهو يحتضن وسادته وزرقة الفجر ورائحة الثلج وصوت مرور الريح والرمل

ومشاهد الجبال والاضغتيالات وصور الخيبة. لماذا حين تنتهي الحكاية لا نخرج إلى الحقل أو الضوء، بل ننام؟ نزلتُ إلى القبو. ونزل يوسف البابلي إلى الحلم.

منتصف النهار ذهبت إلى السوبر ماركت بعد ترك يوسف البابلي نائماً. رأيت صديقي الروائي بيورن يانسون يغادر المحل مع طفله. سألتني عن الأحوال والثلج والعاصفة والرمل. قال:

. لو كنت مكانك لسافرت. كيف تحمل هذا الجحيم الهابط من

السماء وأنت ابن الصحراء؟

قلت:

. هذه لست المشكلة الآن . تركت أحد أبطال الرواية، نائماً، الآن.

لا أدري ما هي الخطوة التالية؟

. من هو؟ نتاليا أم كاترين أم شريف؟

. يوسف البابلي، أنت تعرفه جيداً.

. نعم، وبلا شك تحدثتما طوال الليل عن الحرب والسجن

والهروب. أليس كذلك؟

قلت:

. طبعاً، طبعاً. عن أي شيء نتحدث إذن؟ السفر والجنس والمرقص

والجبال والموسيقى؟

. اسمع. دعه يذهب إلى اسبانيا أو اليونان.

سألته:

. في الرواية أم في الواقع؟

قال:

. في الرواية طبعاً. ماذا يفعل رجل عجوز في هذا الطقس الثلجي غير

رواية حكايات الموت؟ هذا إدمان على أماكن العزل والوحشة والموت:

السجن، المأوى، المقبرة، الحرب. ادخله في معركة حب أخيرة لكي

يكشف الوجه الآخر للحرية. السفر ليس نزهة فحسب، بل محاولة

لاكتشاف المكان الآخر، الطبيعة، وهي الجسد الثاني. تركتُ مثلاً بطلة

روايتي الأخيرة تتأمل جسدها عبر المرأة وهي خارجة من الحمام.

قلت:

. هذا هو الفارق، بيورن. شخص يحاول الفرار من جسده وآخر يجب

التعرف عليه. فتاتك خارجة من الحمام إلى الرغبة، ويوسف البابلي

خارج من الرعب إلى الهرم. اذهب الآن وسنتحدث فيما بعد عبر الهاتف.

عدت إلى المنزل وأنا أخترق الريح الثلجية العاصفة كما لو كنت أسبح في البياض الثلجي المزجر. هجم عليّ في الطريق كلب رمادي شرس. كلب هبط من الذاكرة في هذه العاصفة. كلب مرّحل من أيام قديمة ومنسية. كنت أصارع عاصفتين في مكانين مختلفين.

كنت بين هذا المكان الواقعي، الغول، العاصف، الأبيض، المدوي، الراعد، وبين المكان المتخيل المهجور، والمقصي، والمحذوف، والمبعد. مع كل ذلك، كنت أستمتع بالشعور الحار والعذب والمطمئن، بوجود شخص ما في انتظاري. لن أدخل، هذه المرة، على الفراغ والرائحة والعزلة والوحشة والسكون الضاج، بل على الحكاية والعطر القادم من أزمنة الشحوب والخيبة والليل.

كان يوسف البابلي قد استيقظ. وجدته قد أعاد ترتيب المكان ونظف المنضدة وفتح النوافذ على الهواء المنعش البارد وصب لنفسه كأساً من الكونياك وهو يتأمل الطريق ويتابع حركة الشبح القادم عبر قنطرة صغيرة. قال، ضاحكاً:

- تصوّر، كنت تبدو في الثلج كحكاية خرافية من حكايات الفايكنغ الاسكندنافيين.

. كل شيء حكاية؟

. هذا الكونياك حار ولاذع وهو مناسب لهذا الطقس. هل نمت جيداً؟

. نمت وحسب. بيورن اقترح عليّ في المحل أن أجعلك تسافر في الحكاية إلى اسبانيا أو تدخل في معركة حب أخيرة. قال إنها الوجه الآخر للحرية، لكنني رفضت. ما رأيك؟

ضحك يوسف البابلي بعمق هذه المرة حتى تمايل إلى الوراء حيث الثلج يهبط من خلف النافذة والريح الثلجية تزار وهي تهز الأشجار. قال:

. ولماذا رفضت، يا غراب؟ أنا أعرف ماذا يدور في عقلك. إما أن  
أموت على البحر في فجر صيفي ساحر وعذب على موسيقى الرمل  
والبحر كما فعلت مع كاظم النجار في روايتك (سنوات الحريق) أو  
الموت دفناً في حرب أو القتل على حدود ما فوق الأسلاك الشائكة.  
هل من حد لهذه النهايات الفاجعة؟ اقتراح بيورن كان سليماً رغم فوات  
الأوان. أنت نفسك دخلت في معركة حب كبيرة في زمن الحرب. حب  
في زمن الكوليرا. ماذا كانت النتيجة؟ نحن من وطن يضع العاشق في  
منزلة الإرهابي. الموت، حباً، يعد عاراً أو جريمة في تقاليد العنف  
والقسوة. نحن أبناء الشعار والحائط والمنشور والخطاب والخيال والليل  
والعازل ... في صحتك.

شرب يوسف البابلي حد الانتشاء. قال وهو يعيد فتح النافذة على  
الريح الثلجية:

. أشرب نخب حربك الوحيدة المقدسة في زمن قدر. أليس رائعاً  
ومشرفاً أن يدافع رجل عن موت امرأة عاشقة في زمن ترتفع فيه  
صيحات الإبادة والقتل والجنون والحقد والثأر والحرب؟ شرف هذا النوع

من المعارك ليس في نتيجته، بل في غايته. أشرب نخب يسرى سيدة  
النهار العراقي القادم وزهرة سنوات الفولاذ.

كنت أراقب الاستشارة المفاجئة التي ضربت يوسف البابلي كصاعقة  
داخلية متوهجة. بدا كجواد هائج. يحدث هذا عندما يشعر بعنف  
الخسارات وضراوة الواقع، وعندما يكشف انه ليس في حلم بل في  
كابوس. قال:

. أنت تعتقد الكتابة تعويضاً عن الثمن الرهيب الذي دفعته. عندما  
ترسم شخصاً في الرواية، تظن أنك انتصرت عليه. وجدت ذلك واضحاً  
في رواياتك. هذه هي وظيفة الفن البدائية. الإنسان الأول كان يرسم  
الأسد أو النمر أو الغزال على جدران الكهف كي يصطاده في الواقع.  
لكنك الآن لا ترسم أسداً أو غزالاً، بل ترسم وحوشاً ومسوخاً وجيفاً  
بشرية مقنّعة. هذا الكلب النابح على حافة القطب الشمالي والمهدد  
بدخول منزلك هو صورة مصغّرة عن واقع مشوه.

قلت وقد أدهشتني الفكرة:

. أنا لا أرسم أو أكتب لكي أصطاد، بل لكي أعري . لكي أشهد في زمن شهود الزور. كيف أرسم صرخات الجندي الذي صرخ في وجوه جنود فرقة الإعدام ( اقتلوني، أرجوكم بسرعة، لكي لا أتعذب)؟ كنا نحلم بوطن جميل، فصرنا نحلم برصاصة رحمة. كنا نريد بناء حدائق، فبنينا السرايب. كيف يمكن رسم ملامح القتلى وهم يشربون الشاي في خندق؟ كيف يمكن رسم ملامح الصدمة والذل على وجوه المساقين للموت في الفجر؟ كيف أستطيع رسم جدران سجون ومعتقلات وأقبية وسرايب كثيرة مرت في حياتي؟ كيف يمكن رسم جدران مديرية أمن الكوت في أيلول عام 1970؟ أو سجن جومان العسكري في آذار 1976 التابع للواء المشاة 91؟ كيف يمكن رسم حيطان ودهاليز مديرية الأمن العامة في بغداد في مايس 1978؟ أو سجن الحارثية الرهيب، أو بيت الأحياء الموتى، في تشرين أول 1986 وهو معتقل وحشي يتم تحويل الهارب فيه من الحرب إلى حشرة تزحف من الجوع والحر والعطش والسحق والإذلال ويسبح وينام في برك البول والغائط، عندما سلمني الصديق الصحافي رعد اليوسف بسيارته إلى السجن بعد أن ضاقت السبل فعدت إلى السجن كماوى ومنام بدل النوم في



المراحض العمومية والمصاطب؟ وسجن التنومة العسكري التابع لفرقة المشاة الخامسة في عام 1983 بعد مدهمة في الخط الأمامي في معارك تموز 1982 شرقي البصرة لم أتمكن خلالها من العثور على بندقتي فضاعت؟ أو سجون إيران، أهواز، كهريزك، كرج عام 1988؟ أو سجون باكستان، كويتا عام 1989؟ أو سجوننا السرية النفسية؟ صرت أعرف أسماء السجون بجلاديتها وحيطانها وتواريخها أكثر مما لو كنت أعرف أي شيء آخر، أو أية ذكرى. حتى اللحظات الإنسانية المسروقة بين سجن وحرب كانت تنتهي بمعتقل أو زنانة أو هروب أو مطاردة. مشاهد الإعدامات الجماعية في ميدان رمي معسكر الكوت في صباح 23 أو 24 كانون الأول 1986، أو في ميدان رمي بسماية في عام 1984 الأكثر وحشية حتى من لوحة غويا(إعدام العصاة). هذه هي ذاكرة الخراب. أنا أكتب لكي لا أموت موتاً تافهاً ولكي أظل بريئاً ولكي أعري هؤلاء لأنهم وحوش وحثالات وقتلة بما في ذلك الذين تبعونا مثل كلاب الأثر في هذا المنفى الثلجي.

يا للجرح العميق كحلم مغتصب.

يا لهذا المنفى الجميل كقبر من الرخام.

ضحك يوسف البابلي بنشوة وحيوية، قائلاً:

- تعرّي؟ هؤلاء أبناء العري. تفضح؟ هؤلاء أبناء الفضيحة. قد تكون المهمة الوحيدة والصحيحة هي الشهادة. هذا ممكن في زمن عراقي صار فيه القتل هم القضاة. هل تدري أنك تكرر خطأ فظيماً دون توقف؟ عندما تختلف مع أحد هؤلاء تبعث له برسالة تشرح له فيها موقفك بوضوح وتقول رأيك في القضية بلا قناع أو رياء اعتقاداً منك أنك تخاطب بشراً. مشكلتك أنك تفكر بصوت عال في عالم عراقي يمجّد الحيلة والشطارة والسرية والنفاق والتدليس. نحن من شعوب العتمة. نحن لا نخجل من الفضيحة، ونمارسها، ولكننا نخجل ونحن من التعبير عنها كما فعلت في روايتك سنوات الحريق. عندما دخل ضابط نازي إلى مرسوم بيكاسيو، سأل الضابط الرسام الذي لم يهتم به في منتهى الأدب: سيد بيكاسيو، من رسم هذه اللوحة؟ وكان يشير إلى لوحة الجارنيكا التي تتحدث عن مذبحه وقعت في الحرب الأهلية الإسبانية، فكان رد الرسام دون أن يلتفت: (أنت من رسم هذه اللوحة). خجل الضابط وخرج. لا

أحد من هؤلاء الوحوش أذان الفضائح نفسها، لكنهم أذانا التعبير عنها. هناك تواطؤ عام على الجريمة الصامتة.

قلت مذهولاً:

. إذا كان التفكير بصوت عال خطأ، فسأظل أفكر بهذه الطريقة حتى النفس الأخير. تاريخ البشرية تاريخ رسائل. من رسائل الرسول بولس إلى النبي محمد، إلى كل أدباء العالم. هؤلاء جهلة يريدون تحويل جهلهم إلى حكمة وقانون. يجلس اليوم ملايين البشر أمام الانترنت للحوار والبيع والشراء والاختلاف والمصارحة وإجراء عمليات جراحية وممارسة الحب وحجز التذاكر وسماع الموسيقى أو مشاهدة المسرح. نحن في عصر تداعت فيه الحدود الوطنية والقومية وصار حراس الحدود رمزاً تذكاريّاً قديماً كطوابع البريد. على من يحرس هؤلاء إذا كانت الصور والمعلومات تهبط من السماء؟ أليست الرسالة، وهي شكل بدائي، هي محاولة لخلق تقاليد جديدة في الحوار؟ أليست هي، على أية حال، وسيلة سلمية وليست أداة قتل أو جريمة في زمن الوشاية والنفاق وموت الضمير والتدليس والكذب؟

قال يوسف بضيق:

- كل هذا صحيح ما عدا انك لا تعرف أن هؤلاء بلطجية، وحوار الرسائل ليس من تقاليدهم. هؤلاء لا يحترمون أحداً، بل يخافون. زرعت السلطة في قلوبهم الجبن. هل هذا واضح الآن؟

- كلا، ليس واضحاً. هؤلاء يعشقون الجريمة السرية، والنفاق السري، وكل أشكال الابتذال المعروفة وغير المعروفة وبصمت، لذلك ينجلون من التعبير عن الفضيحة بأية طريقة، ولكنهم لا ينجلون من الفضيحة نفسها كما قلت بنفسك. هل صرنا مخلوقات العتمة والسر؟ نزهة في الخوف والكذب ويرهبنا ضوء النهار؟ هذه المشكلة ليست جديدة.

الآن يشرق قمر من لوحة على الجدار ويسطع في عيني يوسف، كما يسطع ضياء خفي في عيني ثعبان مداهم، مستفز، مستثار. صار مستعداً في تلك اللحظة للموت والعراك والقتال بالأظافر والأهداب والخناجر. هذه هي اللحظة التي تتجمع فيها كل الخسارات في نظر ضحية عارية من كل شيء إلا من البراءة والخيبة والذكرى. كنا نجلس لا نتحدث عن الماضي، بل لنعيد تركيبه من جديد، لحظة لحظة، ومجزرة

مجزرة، شجرة شجرة، ومدينة مدينة، وغيمة غيمة. ليست الصورة صورة وطن، بل مقبرة، مستشفى، ثكنة، سجن، نسيج عنكبوت. في هذه اللحظات تبدو الخسارة مهولة ورهيبة خاصة عند وضوح التفاصيل التي كنا نهرب منها، التفاصيل الحميمة التي كنا نتصورها مخلة بجمال المشهد والشعار والإعلان. في أعماق تلك التفاصيل المنسية تنام الصورة الحقيقية للأشياء والحوادث والحياة. تفاصيل المكان الأول، حتى أكثرها شراسةً ووحشية، وجمالاً، وعفويةً، حاضرة في ذاكرة مغلقة على هذا النهار الثلجي الوحشي. قلت:

- رغم المكان الجديد، فأنا عندما أدخل هذا المنزل، وبدل استعمال المفتاح، أطرق الباب، كأني أدخل المنزل الأول أو أرفض تصديق حكاية المكان الجديد. رغم مرور سنوات أعيش هنا ولم أحلم بهذا المنزل أو حتى بهذه المدينة. أحلم دائماً بالمنزل القديم. هل هذا عصيان للذاكرة؟ لماذا لا تفتح الذاكرة على المكان الجديد؟

قال يوسف:

. لأن المكان الجديد نفسه مغلق إلا على الثلج والعاصفة. هذه هي قضية التفاصيل المؤجلة والملغية. التفاصيل التي قلت أنت مرات أننا

أهملناها، وبدأت تطاردنا، بما في ذلك الصفحة واللوعة. التفاصيل المؤجلة المنسية بالنسبة لنا، ليست منسية في الذاكرة. كل تلك الإساءات والجروح النفسية العميقة، وحتى لحظات الفرح السري، أو نوبات الأمل، كلها تطالب بمراجعة الآن. هل تعلم أن نظرة قدرة مثلاً تبقى عالقة في الذاكرة إلى الأبد ما لم يتم تحريرها من الأسر؟ يجب تحرير أرواحنا وأجسادنا من رعب التفاصيل.

قلت:

- كتب لي دكتور في الفن لمناسبة عيد رأس السنة رسالة تحية وتهنئة لكنه حذرني من الاهتمام بالتفاصيل: ( أرجوك لا تشغل بالك، في العام القادم، بالتفاصيل الصغيرة). قلت له: (أنا لا أستطيع أن أعيش أو أكتب دون هذه التفاصيل خاصة بعد سقوط الحكاية الكبيرة والمشهد الواسع والإعلان. تستطيع أنت الهرب من التفاصيل، أما أنا فأموت). غضب . قلت مع نفسي: كيف؟ دكتور في الفن ولا يتحمل ملاحظة؟ ومن موسكو؟ هناك لا يهتمون بالتفاصيل. إنهم يهتمون بأدق التفاصيل فيما يتعلق بالتجسس على زخاروف أو سولجنستين أو الكتاب المنبوذين والمنفيين والمطرودين من الفردوس الأحمر، المخصص

للعاهرات والمافيا والرشوة والوشاية والصيارفة، ومطاردة المثقفين وتحريض الناس العاديين عليهم بأوامر سرية صارمة، حتى يظن المطاردا انه منبوذ بسبب سلوكه هو، مما يدفعه إما إلى الجنون أو الانتحار أو الموت العقلي، كما كشفت مؤخرًا الوثائق السرية للمخابرات السوفيتية، فانتقلت الخبرة إلى عشيرة اليسار العراقي بعد أن تخلى عنها أصحابها. لكن لماذا، تساءلت مع نفسي، عندما تسقط الحكاية هناك ويسقط التمثال وتحمل الجثة المحنطة، لا تسقط الحكاية هنا، ولا يسقط التمثال، ولا تُحمل الجثة؟ هل لأننا أول شعب في العالم أنتج الرموز والأصنام والمعابد والحكايات التي لا تنتهي؟ هل الصنم حجر أم عقلية؟

كان يوسف ساهياً وذاهلاً ومنفياً. سأله وقد عاد إلى الصحو الأول:

. هل صحيح الحكايات لا تنتهي؟

قال ضاحكاً وهو يغلق النافذة على الريح:

. يبدو أنك كنت غارقاً في حكاية ما.

قلت:

. نعم، هل أنت جائع؟

قال يوسف وهو يعود إلى الجلوس بعد أن كان يتأمل النهار الفار  
والخليج العاصف عبر النافذة:

. جائع وشرس ومستثار ومسرور. هل تظن أننا يمكن أن نكون  
ديمقراطيين بين ليلة وضحاها وننسى هذه الجروح النفسية العميقة؟ ما  
الذي تعلمته من جسد نتاليا؟

- الحكمة والجنون والموت والقيامة من الرماد وفرح البط. جسد نتاليا  
مخصص للنجوم والأنهار والصحارى والغابات والصخور والبراكين  
والبراري. إنه يشبه بريق الأمطار الاستوائية. الآن سأعد الغداء. هل  
تستطيع أن تجلس عاقلاً بدون حكاية جديدة؟

عندما لا نحكي، فإننا نحضّر الحكاية التالية. سمعته يقول فجأة وأنا  
اعد الطعام:

. هل تذكر أول يوم ذهبت فيه إلى السينما؟  
. أنا من مدينة لم تعرف السينما حتى يوم هروبي. أتذكر يوم الفقر  
الأول، والسجن الأول والثاني والثالث والرابع والخامس، والحب الأول،  
والسيجارة الأولى، وأول يوم أنام فيه مع امرأة على كدس تبين مشع في



ظهيرة مشتعلة، يوم الهروب الأول، الهروب الثاني والثالث. هل نبدأ  
بمحاكية جديدة؟

قال وهو يرفع جبينه في اتجاه الضوء بعد أن كان محدقا في الثلج  
الهابط عبر النافذة المطلة على الشارع:

- كنا نذهب إلى السينما في بغداد لكي نمارس لعبة اكتشاف الجسد  
والرغبة من خلال الفيلم. لم تكن سينما يومها، بل كانت غواية. كانت  
طقسا للهروب والنفي والحرية ولو بصورة جنس ناقص. في سينما غرناطة  
في الباب الشرقي، يجري القذف وقوفا عند مدخل السينما، أما سينما  
الخيام في الفرع الذي يربط بين شارع الرشيد والجمهورية، فقد كانت  
مشهورة باصطياد بنات الريف القادمات لرؤية العجائب في الأعياد.  
تحولت سينما سميراميس في شارع السعدون إلى مكان للعشاق والمنحرفين  
والسياسيين والأمن السري، وكانت سينما السندباد في الباب الشرقي  
ملجأً لحرائق الشعب في الظهيرة. كان الذهاب إلى السينما يعادل الذهاب  
إلى ماخور أو سفر.

- وسينما بابل؟

قال يوسف:

- بابل جاءت متأخرة بعد أن أزيلت حديقة كثيفة مقابل المكان الذي هو الآن فندق شيراتون، وميرديان في شارع السعدون. لم تعد بغداد منذ الستينيات إلا مدينة للقتل والغدر ورايات الموت. بدأ زمن الانقلابات والثكنات والأحزاب والاحتلالات. غرقنا في حرب فئران تحت شعارات الثورة والثورة المضادة والعنف الثوري إلى آخر مفردات الجريمة. نسينا الجسد والرغبة. حتى المقاهي الجميلة التي كنا نسمع فيها الأغاني والقصائد والحكايات أغلق بعضها بحجج واهية. أول مقهى تعرضت للانتقام في بداية السبعينيات هي مقهى البلدية، ثم حولوا مقهى البرلمان إلى مطعم، وأُغلقت البرازيلية. على الجانب الآخر كان ينمو الملهى الليلي والماخور وغرف المخابرات والأمن وبيوت الدعارة السرية والعلنية. لم نعد نميز بين المقهى وبين الملهى، بين المماخور وبين المحكمة، بين مكتب المقاولات وبين مكتب المخابرات، بين صالون الحلاقة وبين مكتب أمن، بين الفندق وبين السجن السري المبني تحته. متاهة عجيبة في مدينة تساق إلى مصير ملعون انتهى بهزيمة الجميع الضحايا والقتلة، شهود الحقيقة وشهود الزور. كنا على أعتاب خراب زاحف في الطرق

وتحت الجلد في وضح النهار. كانت الجريمة من السطوع بحيث أن  
أحداً لم ير شيئاً.

قلت وأنا أفتح النافذة مرة أخرى على الهواء:

. لكن من لم يشترك في حرب الفئران؟ ألم تكن أحد جنودها؟ ألم  
تتف في الشوارع تريد الحبال والمشنقة ضد المؤامرة وأعداء الثورة، في حين  
كان الآخرون يهتفون ضد أعداء الله؟ على الجانب الآخر هتافات ضد  
أعداء الأمة، وضد أعداء الوطن، وضد أعداء الصورة والإطار والجريدة  
والكتاب والمنشور والعقيدة والحزب والرفيق والمجتمع والتاريخ والطبقة  
والعرق والقبيلة والمقالة والحتمية...؟

قال يوسف وهو يلتقط الهواء بيديه عندما يخرج:

- كنا وقودا لا أكثر. أنت لا تستطيع أن تضع الجميع في سلة واحدة.  
الشهود والقتلة والضحايا. هناك فرق كبير في مشهد الموت. الذين  
صمموا السجن، ليسوا هم الذين أجبروا على دخوله. الذين هتفوا،  
ليسوا هم الذين أمروا. الذين كتبوا، ليسوا هم الذين أجبروهم على  
الكتابة. الذين وقعوا فيما بعد على تواقع التخلي أو الانتماء القهري

تحت فوهات المسدسات وهم عراة معصبين ليسوا هم الذين أجبروهم على هذه الجريمة. لا يجوز المساواة اليوم وغداً بين الضحية وبين الجلاد. أقول لك صراحة.. لو كانت هناك مصدات حقيقية في المجتمع وثقافة وقائية ومعنى دقيق للشرف غير المعنى الجنسي المبتذل، ومؤسسات، لما تمكنت حفنة من الرعاع من إسقاط حضارة عريقة. سافر في طول البلاد وعرضها وتعرف على نوعية الرموز الموجودة . في كل مكان ستجد رموزاً مخجلة لدجال أو مشعوذ أو ساحر أو بلطجي أو مجنون ميت أقاموا له قبراً ومزاراً. كيف لا يستطيع هؤلاء الأشرار من اختراق دولة وإسقاطها وهي بلا مظلة وقائية؟ كنا نعيش في عراء رهيب وفضيحة أخلاقية وسياسية وفكرية مخبوءة وهناك تواطؤ عام وسري على الصمت. هذه الفاجعة القائمة الآن هي ثمن ذلك الخواء العام الذي كنا نسفيه مرة الأخلاق وأخرى الشرف وثالثة الاستقرار ورابعة الستر. نحن من الشعوب التي تقدر الفضيحة بكل صورها، وتمارسها بصورة سرية، ولكننا نخاف ضوء النهار والعلنية والوضوح. هل رأيت ماذا فعلت الديمقراطيات الغربية بنا؟ عرّتنا تماماً. نحن نخلق السلطة الإرهابية عندما لا تكون موجودة. في النرويج يقوم ممثل حزبي بمطالبة سلطات البلد بتعديل قوانينها في

التعامل مع العرب. يريد الثوري دولة قمعية. يقول لهم إن قوانينكم المتساهلة تساعد على الجريمة. هل تعرف ماذا يقصد الرفيق بالمتساهلة؟ التساهل هنا هو عدم وجود تعذيب أو الأخذ بالتقارير أو طرد الناس لمجرد وشاية وتعليق الناس بالمراوح لكي يعترفوا على جريمة لم يرتكبوها ولم يسمعوها إلا في غرف التعذيب. هو يعني بالقوانين المتساهلة أيضاً احترام الفرد ومنحه فرصة الدفاع عن نفسه وليس الحكم عليه وهو نائم، أو حتى بلا تهمة، أو جريمة، أو شاهد نفي أو إثبات أو وثيقة أو ظروف الجريمة. صرنا حالة مخيفة تشكل خطراً على كل كائن حي وطبيعي، وكل وردة وغيمة وعلاقة نظيفة.

قلت وأنا أغير مكاني، عفويًا:

. لكن لماذا حين يدخل (التقدميون) في السلطة، ويصبح لهم وزيراً في الروث أو الرحلات، تصبح السلطة وطنية وثورية وتصبح الكتابة عن إنجازاتها محاولة لدفعها من مواقع البرجوازية الصغيرة إلى مواقع أكثر ديمقراطية كما كان يقال في الجرائد؟ وعندما تطردهم السلطة حتى من بقايا الفتات تصير فاشية ويجب محاربتها والهروب من الوطن؟ لماذا عندما

يتعاملون مع سلطة دموية يصبحون أبطالاً، وعندما نجبر على الإذلال  
وأكل الخراء نصبح مهزومين وتوفيقيين وخونة ويساريين طفوليين الخ..؟  
من يشيع هذا الفقه السياسي؟ والذين ماتوا في السجون؟  
قال يوسف وهو يزفر حرقةً:

- هذا صحيح تماماً. لكن على أي كتف نضع هذه الفجيعة؟ إن  
تقليد كبش الفداء عريق في التاريخ. في التقليد الموسوي كان الكاهن  
يطلب ماعزين من الذكور واحد للذبح الطقسي، والآخر لكي يرسل في  
البرية حاملاً الخطايا. كان الإغريق يطوفون برجل وامرأة في أرجاء المدينة  
وهم يضربون بالأغصان والحجارة ثم يتم طردهما فيما بعد خارج المدينة.  
في حضارة وادي الرافدين كان يسمى القربان. مررت بعدة سجون كما  
تدري قبل وبعد الجمهورية لكن المذل هو أن تسجن في سجون يقال  
إنها وطنية وتعذب على يدي جلاد عراقي بذريعة خيانة الوطن أو خيانة  
العقيدة أو حتى بتهمة الهذيان أو لأنك لا تشبه أحداً. هذا الجلاد كان  
يقاسمك في يوم ما زنانة واحدة وقضية واحدة لكنه انقلب فيما بعد كما  
تنقلب كل الأشياء وسرق منك الوطن وأعطاك مقبرة أو زنانة أو منفى.  
كنا نستطيع، رغم كل شيء، في السجون الملكية أن نضرب عن الطعام

والكلام والزيارة أو نؤسس لجنة حوار مع إدارة السجن ونطالب بتحسين أوضاعنا، وكان بعضنا قد تعلم القراءة والكتابة، بل وحتى لغات أجنبية وكتابة روايات وقصائد عن السجن، وخرجنا من السجن برؤوس مرفوعة بعد فتح أبواب السجن. لكن مقابل كل سجن أُغلق، فتحت عشرات السجن. بدل السجن الأول المسكين الذي كان ينجل من الأستاذ والمثقف والشيخ والمريض، جاء السجن الثوري الذي لا يخاف ولا ينجل من أحد أو شيء، بل صار يتباهى بعدد الذين مزق مؤخراتهم بزجاجات البيرة وعدد قبورنا. إذا كان سجناء المرحلة الملكية يخرجون ثواراً ومناضلين، فإنهم في الحقبة الثورية يخرجون مشوهين ومعقدين ومغتصبين ومحطمين أو جثثاً أو يختفون. إذا خرجوا أحياءً، مصادفة، فتنتظرهم فرق الردح. مطلوب منك أن تموت في كل الأحوال. انحطت حتى أخلاق السجانين. السجن الجديد أكثر وحشية وضراوة من السجن القديم لأنه يعرف كيف تكون الضربة المؤلمة، ويعرف كل حيل السجين وأساليب التملص من التعذيب ومراوغة المحققين. صرنا نحلم ليس بإلغاء السجن، بل تغيير أخلاق السجانين، وجعله فوق الأرض

بدل السرايب المظلمة. تسأل عن موتى السجون؟ هؤلاء ضحايا صراع سياسي لا مفر منه.

قلت، قافزاً، كالمسوع:

. صراع؟ هل يجب أن يكون صراعنا محرقة؟ هل قيامتنا لا تنهض إلا من رماد؟ الموت المشرف هو أن تموت في شارع، في ثورة، أو تمرد لا أن تموت تحت الأحذية في السرايب. موتنا هو موت حشرات. القاتل في نظري ليس هو من يطلق الرصاص أو الكلاب المسعورة أو غيرها فحسب، بل اليد غير المرئية، يد القاتل المخفي، المتنكر، المقنّع. هذا القاتل خلفنا حتى في هذه المنافي. هل نواصل الحديث عن الشهداء أم تريد الطعام؟

لم أكتشف المفارقة في الجملة الأخيرة، إلا عندما ضحك يوسف معلقاً:

. صار الشهداء جزءاً من وجبات الطعام. هناك شهداء قبل الأكل وشهداء بعد الأكل. هذه اللغة التي تحدثنا عنها والتي لا يفهمها



غيرنا. هات الأكل أولاً، ثم حدثني عن عايدة الفارسية. هل من أخبار عنها؟ هل هي حية؟ هل مازالت في تجريش؟

قلت:

. ما دمنا نتحدث عن السينما، أذكر الآن جيداً كيف قررنا صديق وأنا في ظهيرة محرقة عام 1974 الذهاب إلى أقرب سينما في شارع الرشيد والنوم حتى نهاية الفيلم الذي لم نكن نعرفه. جلسنا في المقاعد الخلفية وسرحت جسدي مسترخياً. عرفت مصادفة أن الفيلم هو (حمام الملايطي) عن حكاية رجل شاذ يبحث في الحمام عن مثيل. كان الصديق يجلس إلى جوار رجل لم أكن أميز ملامحه في عتمة السينما. بدا صديقي متضايقاً وعصبياً. طلب مني تغيير المكان فرفضت. بين النوم واليقظة سمعت صرخته وهو يمسك بعنق الرجل ويحاول الإطباق عليها حتى الموت. كان الآخر منحرفاً.

قال الصديق عند باب سينما روكسي وهو يغلي:

. هذا بلد أم مبغى؟ إما انك تعثر على رجل آمن، أو على لوطي.

الفرار هو الحل.

- أين هو الآن؟

- في استراليا.

ثلج خارج النافذة. لكن هل هو ثلج الخارج أم هو الثلج الزاحف تحت الجلد؟ هل عندما أغلق النافذة أغلقها على الريح أم على الذاكرة؟ ويوسف البابلي هو هل بطل حكاية أم خرافة؟ هل هو زائر قادم من مدن الرمل ورياح السموم والصحارى إلى مدن الثلج والضباب والعاصفة والعزلة؟ ولماذا عايذة الفارسية الآن، يوسف؟ لماذا لا نتحدث عن نرجس مثلا أو كاترين أو نتاليا أو كريستينا أو يسرى؟ أين تضع يسرى في هذا الحشد من النساء؟ في العري أم في الليل؟ في السرير أم في الوردية؟ لماذا حين تقول اسمها أشم رائحة عطر كورد بري أو عشب ناعم بالمطر؟

أنت من مدينة تقذف سكانها في الظهيرة إلى المقاهي ودور السينما كما يقذف البحر جثث الغرقى على سواحل الرمل، أما أنا فممن مدينة أخرى مختلفة. مدينة صغيرة كانت بساينها هي العرين السري للعشاق والسكارى والشحاذين والمهجورين من العائلة والسكن والواجب، مهمتهم الوحيدة هي البحث في البساتين عن الأعشاش والفواكه والدغل

الكثيف كموطن لولادة الحكاية أو النوم أو الشرب أو الصلاة أو البكاء  
السري.

أنا من مدينة كانت مسكونة بأقدام الأنبياء وتعاليم الآلهة على مرمى  
حجر من نهر دجلة وطن أساطير العشق والشعر والطين والحب والموت  
والقرايين. لماذا حين نقرب من الموت في هذه العزلة، نتذكر المدينة  
الأولى؟ هل الهوية قبر أم حديقة؟ هل الوطن تراب أم ذاكرة؟ راقبت  
الطيور هنا في نهايات الخريف كيف تستدير غريزيا نحو مواطن الدفء  
والشمس قبل أن تفرد أجنحتها في اتجاه الريح عابرة البحار والجبال  
والمحيطات والمدن صوب الأراضي الدافئة. كنت أراقبها وهي تهاجر في  
الخريف وتعود في الربيع. كنت أراقب قلبي وهو يتمرغ في الوحل دون أن  
يقوى على الطيران أو المشي صوب الأرض الأولى إلا عبر نزيف  
الذاكرة. هل الذاكرة كالمخ تصاب بنزيف داخلي حتى الموت من جراء  
الضغط والإفراط في الحب أو في الأمل أو الجنون؟

سمتعه يقول، ضاحكا:

. أنت تطبخ أم تضاجع. أين الطعام يا رجل؟

قفز جواد أسود من لوحة على الجدار الموازي للشارع، جدار النافذة  
الواسعة، من مرج أخضر، متوهج، محرق، مرج بعشب أسطوري، وتحت  
سماء زرقاء صاحية مشرقة هي سماء الشرق التي تجعل الخيول والثيران  
والأرانب والأشجار والرياح والنجوم تسكر على الأزرق الهادئ المدوخ  
للنور الفياض القادم من سماء في وضوح البنفسج ورقة الندى وعمق شبق  
الخيول في لحظة صراخ الدم.

من الحيطان تهبط الصحراء على الثلج النازل في الخارج. كنت أضع  
دائماً صوراً على حيطان المنزل الداخلية عن ربيع، صيف، غيمة،  
حديقة، صفصاف، خيول، شمس، نجوم صيفية، شوارع طينية لأن  
الذاكرة لم تعد تتعرف على شوارع أخرى، كما لو كانت الذاكرة مطلية  
هي الأخرى بالطين. لم يكن طينا، بل كان مسيرة صاحبة لأعياد  
وأراجيح عيد مقدس صيفي.

لوحة أخرى لكلود مونييه تبرز تحت ضوء المصباح بوهج مطمئن، كما لو أنها تحاول التخفيف من ضراوة المكان. اللوحة هي شروق الشمس. تبرز الشمس، فوق بحيرة أو نهر، كرة حمراء متألقة، منعكسة على سطح المياه التي هي مزيج من الأزرق الفاتح والأحمر الشفاف والأخضر الناعم بخطوط رفيعة كما لو أن الرسام كان لا يريد أن يجرح الطبيعة حتى على اللوحة. ثمة قارب داخل الضباب والألوان الهادئة والضاجة بالحياة. تبدو الأشياء في اللوحة زائلة وعرضية. كل شيء سيختفي: الشمس، الضوء، القارب، الضباب، الظلال. الباقي هو الخيال والانطباع. الباقي هو الشعور بالزوال.

. ألا يهاجر هذا الغراب؟

باغتني يوسف البابلي وهو ينظر عبر النافذة إلى شجرة صنوبر مغطاة بالثلج. قلت:

. لا. هذا الغراب عاش معي هنا طوال الوقت. صار وجهي الآخر كما كان قاسم شريف يقول. الغراب كما تعرف مشؤوم في تراثنا ولكنني وجدته طائراً جميلاً ومدهشاً. هل تريد المزيد من الخمر؟

. إذا كان ذلك ممكناً. كل المخلوقات تعود في يوم ما إلى الوطن .  
عدة مرات فكرت في العودة إلى الوطن والموت هناك مهما كلف الأمر.

فاجأني هذا الكلام. سألته بفرع:

. حتى في هذه الظروف؟

. حتى في هذه الظروف. هل هي خيانة وطنية؟ خرجت من أجل  
حلم التغيير ولست سائحاً. الآن وضحت الصورة. وقعنا بين فخين.  
سلطة غاشمة في الداخل، وسلط في الخارج. ما معنى، مثلاً، أن يهددك  
عراقي وأنت في هذا المنفى والقبر الأبيض بدخول بيتك وقتلك...؟ أين  
هي السلطة، الآن؟ هل العاصمة بغداد أم أوسلو؟ هؤلاء شوهوا أجمل  
مدن العالم. لا تستغرب يوماً إذا صنعوا منا كبش فداء، وذبحوا واحداً،  
بطريقة ما، ذبحاً طقسياً، وأطلقوا الآخر في البرية ليحمل خطاياهم.  
هؤلاء محترفو إجرام وخبراء تزوير، وقد يجعلون منا يوماً نحن القتلة وهم  
الضحايا، بل فعلوها حقاً. هؤلاء نقلوا إلى الخارج تقاليد وأخلاق  
وأعراف وثقافة الجريمة والزور. هؤلاء هم السلطة وهم جيش الدكتاتور  
في الخارج وجيوش النمل والبشاعة.

التقط أنفاسه بصعوبة وتابع:

. عاصمتان الآن في أوصلو: أوصلو القديمة، الحقيقية، أوصلو الثلج والقهوة وحساسية الإنسان وعذوبة البشر، والنظافة ومنظمات حقوق الإنسان والحداثة والليبرالية وجائزة نوبل للسلام وأغاني الشبيبة تحت شرفة نلسن مانديلا في الجو العاصف والبارد والثلجي حتى جعله المنظر يجهد بكاء صامت وداخلي، وأوصلو أخرى، قدرة، مسخ، مشوهة، فاشية، محاكم أرصفة، وتخوين، وشايات، تقارير، أدعيا، وقتلة. هو الفارق بين بشر مدججين بالضوء والجمال والسلام، وبين بشر مدججين بالوحل والتفاهة والظلام. هو الفارق بين من يحمل حماسة وبين من يحمل خسة. هناك مسافة واسعة بين أوصلو الروائي كنوت همسون، وهنريك أبسن، والشاعر هوفارد ريم، والروائي أكنر ميكلر، وبين أوصلو الزربية والانحطاط العقلي وأحفاد الاسخريوطي وكل سلالات النفاق وأزمة الوشاية والمسوخية والصفافة والأوبئة الروحية. كيف يلتقي هؤلاء بهذه السرعة كأنما عندهم حاسة استشعار خفية؟ هل تشابه المدن والفقر والذل يخلق بشراً مشوهين؟ هناك تدمير داخلي رهيب للبنية الإنسانية

لأوسلو الحقيقية، والمواطن الأصلي غير مدرك حتى اليوم بشاعة هذا الخراب السري.

قلت، مشاكساً:

- لو سمعك أحدهم تقول هذا الكلام، لاتهمك بمعادة الهوية العراقية.

صرخ يوسف ساخطاً:

- الهوية العراقية ليست ورقة أو وثيقة. إنها تشكيلة واسعة من القيم النبيلة. هؤلاء ليسوا بشراً. الخطأ الفادح الذي مارسه الأحزاب هو تمجيد أخطاء الناس من أجل مصالح حزبية ضيقة وآنية على حساب كل القيم الفكرية والأخلاقية وعلى حساب المستقبل. التقديس الأعمى للعراقوية نوع من النازية والعرقية والفاشية. نحن من الشعوب التي تمجد الجلاوزة، بل نحن شعب الجلاوزة كما قال الوردى. مرة ذكر علي الوردى كيف أنه كان يتأمل الغروب من فوق جسور بغداد عندما تقدم منه شخص وسأله: هل أنت الدكتور علي الوردى؟ أجابه: نعم أنا الوردى. لم يفعل الآخر شيئاً سوى أن بصق في وجه المفكر الكبير وانصرف. هؤلاء هم السلطة. أشتاق إلى قبر في العراق. هل تدري كم هي صادقة صيحة الشاعر معين بسيسو؟:



## (قبر واحد في الوطن أجمل من كل فنادق العالم).

قلت:

- لكن هؤلاء ليسوا أكثر من حثالات. هل خطر ببالك أن يقول لي  
كلب منهم كان حارساً شخصياً خلف ابن الدكتاتور ويحمل مسدساً  
خلفه، هو الآن في بلد اسكندنافي، ويصدر جريدة، يقول لي بعد أن قرأ  
فصلاً من رواية الأعزل في مجلة أدبية بكل صفاقة:  
- الآن صرت أثق بك. كانت عندي مخاوفي.

تابعتُ تحت نوبة من الجنون والحريق والرعب والقيء والمرض ورغبة  
الخروج عارياً وتمزيق الثياب:

- قلت له: أنت الآن من يمنحنا الشرف والوطنية وبراءة الضمير. من  
كان يقف خلف مجرم ويحمل مسدساً هو قاتل محترف. نحن عبرنا ثلاثة  
حدود على أقدامنا بحذاء مثقوب وبنطال تهرأ من كل هذا العراق الغني،  
وخرجت أنت تحمل مفاتيح سيارتك ووظيفتك جاهزة في عمان وبجواز  
سفر مع العائلة وسجلات كتّاب وأدباء لكي تستعملها كورقة عند  
الحاجة للتشهير بهم بعد أن كنت تراقبهم هناك، ومنزلك جاهز،

وحكايتك البطولية عن نضال مزعوم كاملة في جيبيك. الآن تحاسبنا على الضيم والسقم ونشاف الريق والعزلة والطرْد والسجن والموت؟ تشابه علينا البقر. لو كان العراق يحتوي على كل هذه الأعداد الهائلة من المناضلين فمن الذي كان يشنق ويطلق الرصاص ويجهز الحبال وينصب أعمدة الموت ويصفق ويحمل القتلى ويعصّب العيون ويحمل أقفال السجون ويحرس أحواض التيزاب؟ من كان يسمح لك بحمل سلاح خلف ذاك الوحش لو لم تكن مجرماً بالرغبة والتلذذ؟ اتركوا لنا المنفى، وخذوا الوطن.

قال يوسف البابلي متحفزاً كفهد في قفزته الأخيرة، عادته عندما

يغضب:

- هؤلاء جزء من عقلية. هل فهمت؟

- فهمت. لكن من غير المعقول أن نقفز في البحر كفتران الباخرة عند

نشوب حريق فيها لكي نموت غرقاً. يمكنك الانتظار قليلاً.

قال بسأم:

- الانتظار الطويل عفن الجسد والرغبات حتى صرنا جيفا متنقلة. أين

الطعام يا رجل؟

. سيكون الطعام جاهزاً بعد دقائق. وضعت دجاجة في الفرن،  
وجهزت لك الخبز الذي أعمله بيدي، وفي الثلاجة فواكه وخل وزيتون  
ولا ينقصك بعد ذلك غير جسد نتاليا أو نرجس الباكستانية.

- الأفعى؟

قلت:

- نعم الأفعى. كانت عيناها رماديتين كعصفورين يلقان فوق جبال  
الهملايا. إنه أمر غير مفهوم أن ينبثق من ذاك العهر لون زهدي صوفي  
لامرأة رأيتها في عدة أوضاع عارية لكن صورتها وهي تصلي مغروسة في  
الذاكرة كشمس حمراء تشرق فوق مياه صباح ضبابي. هذا التنافر بين  
الجمال والخطيئة هو المفارقة. هل فهمت شيئاً؟

- نرجس صورة للخطيئة الآسيوية الكبرى. صورة مصغرة لسرقة علنية  
وشرعية من كثرة وضوحها. هل تعرف أن وضوح الصورة وتكرارها يجعلها  
مقبولة ومبررة؟ الأفعى هي رمز الخروج من الجنة ومن السلطة. ولكن لماذا  
هذه التسمية؟

قلت وأنا أغلق النافذة وأعود لفتح باب الفرن:

- أرى في الأفعى رمز الخروج من الكبت. الأفعى هي شهوة الوعي.  
هل هناك إنسان بلا شهوة؟ الشهوة ليست الشبق فهذا مبتذل، بل  
الايروتيك. هل صحيح تشتهي نتاليا؟  
. لا أدري. هل يدري أحدنا كيف يتصرف جسده بعد هذه  
التجارب؟ أحيانا أريد الذهاب إلى المرحاض فأجد نفسي واقفا في  
الشرفة، أو أريد الذهاب إلى الكازينو، لكنني أجد نفسي أتجول في  
المقبرة. لم تعد هناك خارطة واحدة للجسد. هذا ليس جسداً بل ثكنة أو  
عتمة. لماذا ننجذب نحو هذه الأمكنة؟

قلت وأنا أضع الطعام على المائدة:

. بيورن قال ذلك أيضا. بدأنا نسلك سلوك الحفاش. هذه واحدة من  
أسوأ نتائج الخوف الطويل. والآن نتاليا أمامك، التهم الأفخاذ أولاً، ثم  
الصدر.

كوعل شره وجائع، أكل يوسف البابلي في صمت مشترك هو تواطؤ سري على الحديث الداخلي وربما في الصور ذاتها أو في الحكاية ذاتها على صوت العاصفة الثلجية المزمجرة في الخارج.

بعد الانتهاء من الطعام شربنا آخر ما تبقى من خمر وقهوة وسجائر وحكايات وأحزان وأشواق وسجون وحروب وأسلاك وهزائم سرية وعلنية لأكثر من نصف قرن، اقترح عليّ الذهاب معه إلى المنزل. قال:  
. إنه أفضل على أية حال من البقاء هنا وحيداً بلا جسد أو خمر أو صلاة.

يقع بيت يوسف في وسط جبال شاهقة ومنعزلة وفي داخل غابة صنوبر وسرو، منعزلاً لا يرى من الشارع الترابي الذي يصعد منه إلى المنزل المنزوي على سفح جبل مكسو بالأشجار والصخور والأياكل والطيور الجبلية. عزلة صقر.

قلت له مرةً في منزله:

. لكنك حتى بلا جار؟ ربما تحتاج إلى شيء أو مساعدة عاجلة؟ ماذا

تفعل؟

يزفر وهو يقول:

- انتهى عندي زمن المساعدة العاجلة. إنه الزمن الفائض.

- إلى هذا الحد، يا يوسف؟

- ماذا تتوقع من نهاية؟ نحن نموت في الغابات ذلاً، ولحم الوطن تأكله

الكلاب. أليس هذا صحيحاً؟

أقول:

- نعم، صحيح. لكن هذه ليست أول الكلاب في التاريخ.

لكنه يرد بتصميم غريب:

- أعتقد أنها أشرس كلاب عرفتها البشرية.

- ومع ذلك تريد أن تسلم لحمك لها مجاناً؟

- في عمر السبعين، ستعرف أن مثل هذه النهاية تليق برجل قضية.

وأضاف غامزاً:

- نهاية تليق بفارس أو مناضل أو بطل روائي.

ثلج، ثلج غزير خلف النافذة. يوسف انتهى من ارتداء معطفه  
الأسود كدرويش أو شبح أو أسطورة أو حكاية تعود الآن إلى موطنها  
الأصلي. قلت:

. أعتذر عن الذهاب معك. الجو عاصف وأنت شربت كثيراً. كيف  
ستقود السيارة؟

ضحك بشغف طفولي وهو يقول:

. هذا الشراب اللعين أخرس صراخ ثعالب الروح. هل عندك مثل  
هذه الثعالب؟

. بلا شك. هل ترغب في أن أقتلك في الرواية في طريق العودة من  
فوق منحدر صخري أم تفضل نهاية أخرى؟  
رد بمرح:

. من هو المهزوم فينا؟ أنا أم أنت؟ لماذا تفكر بوضع نهاية لكل  
حكاية؟ إن أجمل الحكايات هي التي تبقى مفتوحة على الاحتمال. الآن  
جهاز مجرفتك كي نزيح الثلج عن السيارة.

خرجنا في الجو العاصف. بحثنا في عدة أمكنة. وجدنا السيارة  
مطمورة تحت الثلج. قلت له وأنا أودعه في الضباب والعاصفة:  
. تلفن لي عند الوصول، أرجوك.

لَوَّحَ عبر النافذة وتحركت السيارة في الشارع وهي تتعد في الضباب  
والثلج وتختفي. غاب يوسف، كَشَبَحَ لرجل هبط من الحكاية في هذه  
المتاهة الثلجية البيضاء وغاص في عتمة الأبيض المتوهج.

كان يبدو وهو في العاصفة كقارب أو شراع يلتهمه البحر. ضاع  
يوسف البابلي في العاصفة كما يضيع طفل عراقي على حافة هذا النهار  
المهجور من السماء والضوء والملائكة وأجراس الصيف وطقوس  
الدرأويش. على وقع حوافر الريح، اسمع الآن صرخات درأويش بغداد  
وهم يئنون على دوي الدفوف.

كنت أحترق على حافة هذا الثلج كما تَحْتَرِقُ جثة على حافة نهر  
مقدس.

\*\*\*



عدت، في المساء إلى عزلي الثلجية كما يعود صقر ينزف دمه الأخير  
فوق قمة جبل بعيد ومتوحش وأعزل. كانت نوافذ المنازل مضاءة، تحت  
الثلج ، بذلك النور الحار، العائلي، المعتم، المنبثق من شموع أو مصابيح  
خفيفة وناعمة تنسجم مع عتمة المساء ودفء المنازل.

الآن في هذه اللحظة عادت الوعول والأيائل والقطط الوحشية والدبية  
إلى أوكارها وجحورها وغاباتها في عتمة هذا المساء الاسكندنافي  
العاصف والمثير والوحشي.

صوت صفارة باخرة يأتي من خليج أورستا، دعوة إلى الرحيل. لكن إلى  
أين وقد وصلنا الحدود الأخيرة؟ نزلت من لوحات الجدار حقول  
مشمسة، وأكداس تبين ذهبية، مشعة، وخيول راكضة، قناطر ملونة  
وقديمة فوق زهور وجداول وصخور، وفي الخارج، على الشجرة المواجهة  
للنافذة حط في عتمة الليل والثلج غراب رحلة الطوفان والديه والمنفى  
والهاوية.

صغير قادم من خليج معتم، من باخرة قد لا تبهر الليلة، بل قد لا تكون موجودة إلا في ذاكرتي. هذا الصغير قادم من عصور صحراوية وليس من الثلج أو الضباب. صغير الدم تحت الجلد في هذا المساء العاري، المرتبك، في هذه الرحلة المجنونة التي لا شاهد عليها إلا هذا الغراب الراقد فوق غصن شجرة، آخر الشهود على هذا الموت المرتجل.

نظرت صوب جبال Saudehornet أو قرن الماعز، فكانت مغطاة بالثلوج والضباب. حاولت أن أجد أثراً لجبال Sandhornet أي قرن الرمل، فلم أجد أثراً في هذه المتاهة، شعرت أنني أغرق في الأبيض الثلجي، في هذا المساء الصاخب، الاحتفالي، كرقصة وحشية في كهوف أزمنة القراصنة الفايكنغ تحملها الرياح والثلج وضوء شموع النوافذ.

رحت أتخيل مدن الصيف والأعراس والمآتم واحتفالات الورد والخصب والمطر والنجوم ومواسم الزرع والحصاد والريح والقطا وغابات الصفصاف وأشجار النخيل والخمر والغيوم وفوانيس قوارب الصيد في الليل، والثيران والجواميس الرشيقة الجميلة وهي تغادر النهر في الغسق المتوهج، والبراري

المشعة وبيوت العناكب وعناقيد العنب وحكايات العشق والموت  
والنجوم والأعياد المقدسة والأراجيح والأضرحة والزرائب والحملان  
وضجة العصافير في المساء البهي، المسكر، العذب، وحقول الماء وبيوت  
القصب والطين ورائحة قديمة لمدن محرومة من الفرح والنوم والرغيف  
والضحك.

اذهب إلى البرية، أيها الكبش، حاملا خطايا اللوطيين واليوتوبيين  
والجدليين واللولبيين والانتهازيين والمناويك وأبناء الكراجات وأبناء  
منتصف الليل والوشاة والزناة وجراد الصحراء والحاملين بلعق فروج نساء  
المصححات العقلية في أوروبا من الإهمال والقبح والحشيش ومالكي  
صحف زمن الرداءة العراقي الجديد أحفاد ملكون، وعوني، والسمعاني،  
والفياض، والصفواني.

\*\*\*

فجأة، رنّ جرس الهاتف كحبل نجاة في هذه المتاهة الثلجية كأنه قادم من زمن آخر ومكان بعيد:

. لا تقلق. لقد وصلت. هل أنت بخير؟

صوت يوسف البابلي. قلت وأنا أكاد أشهق بنوبة فرح فاجأتني:

. كان يجب أن أذهب معك.

سمعت صوته مضطرباً وهو يسأل:

. هل من شيء؟

. الثلج والعاصفة والوحدة.

. وجدت المنزل مختفياً تحت الثلج. أنا مضطر لتترك الآن لكي أواصل

إزاحة الثلج.

جلست أمام الواجهة الزجاجية المطلة على الشارع في انتظار ما. في

انتظار نهاية العاصفة، قدوم الليل، مرور بشري خاطف، نهاية هذه

الحكاية، بزوغ النهار، زيارة غير متوقعة من أنثى أو وحش أو جنازة أو

جلاد قديم، وهي هواجس الأعزل، مكالمة هاتفية من وطن لم يعد

موجوداً حتى في مكاتب الطيران أو في إعلانات السياحة أو في دليل الآثار. وطن موجود في العزل والمشرحة والمقبرة والثكنة والليل البابلي العميق العتمة.

فكرت في وضع شريط فيلم الحرب. لكنني خفت، هذه المرة، من انطلاق رصاصة طائشة أو مشهد موت أو شم رائحة قديمة لجثث متعفنة في عراء مفتوح على سماء صافية زرقاء مشرقة. هذا النوع من الموت، الموت العلني، موت الأحجار والخشب والحديد والرمل، ليس موتاً بشرياً، بل هو موت نفايات في قلب ظهيرة عارية.

رغم الثلج العاصف، لكنني اشعر أن هذا الثلج هو شكل سري للبراءة. لا أستطيع أن أتخيل براءة بدون ثلج حتى لو جاء في صورة عاصفة أو إعصار. في داخل هذه البراءة البيضاء، شعرت بأنني أعيد تشكيل صورتي من جديد.

هناك صور كثيرة لي معلقة على حيطان وفي واجهات صحف وخيال  
بشر ووحوش ومكاتب شرطة ومحاكم ورجال حدود وأمن وأصدقاء  
وأعداء ونساء وأحزاب وسجلات ولادة أو موت، صور ملونة وأخرى  
بالأبيض والأسود، صور في الحرب وفي السجن وفي الثكنة وفي الحانة  
والمقهى، في المرقص والمقبرة، في المطار، القطار، الجبل، الصحراء،  
الغابة، الليل، الهاوية، البحر، الرمل، الجثث، المرأة، وعلى حافة المحيط  
الأطلنطي أركض مع كلب كاترين على ساحل مشمس يمتد حتى الحافة  
النهائية للأفق.

صور عن الأنثى، عن الأفعى، العقرب، السلطة، عن ريح السموم في  
ظهيرة الموت العاري في شوارع يركض فيها الرصاص والحبل والغبار  
والجنائز وخيول الريح، لكن صورة واحدة لي لا يعرفها أحد. صورة طفل  
أعزل غارق في الرمل أو النهار أو في الدهول. صورة احتفظت بها في  
المجزرة والحبس والسريير والحب والموت واللوعة والخوف وعبور الحدود  
والعزلة، وأقمت في داخلها كما تقيم المحارة داخل الصدفة، أو كما ينام  
العطر في الوردية، أو الجنين في الرحم، أو البرق في العاصفة، أو الشهوة

في الخبز والخمر والجسد. صورة لم تلتقطها العدسات أو العيون أو السجلات. صورة سرية عشت أتدفأ عليها في البرد، وأنام فيها في زمن التشرد كما ينام نبي هارب في مغارته، أو كما يرقد طائر صغير في عشه على حافة جبل صخري.

قررت الإقامة في هذه الصورة والعصيان الأبدي داخلها رغم كثرة الأيدي الممدودة التي حاولت إخراجي منها بكل الوسائل وخلق صورة بديلة مزورة ملفقة مشوهة لا أعرفها ولا تعرفني. كانوا يرسمون وجوههم. كانوا يرسمون البشاعة الوحيدة الجاهزة وهي بشاعة متوفرة بإفراط. كانوا يرسمون، بكل دقة، ملامحهم السرية ويعلقونها على الأشجار وأعمدة الصحف والنور كما تعلق عاهرة لباسها الداخلي على الحيطان وهو مبقع بكل الألوان.

هذا الثلج في الخارج، هو شكلي الآخر، السري. هو جسدي الآخر. هو طبيعتي السرية. ألم يقل هيراقليط إن الطبيعة تحب أن تختفي؟ هل يستطيع أحد أن يعثر على قانون ما في الشارع؟ أنا أنتمي إلى عصر

الطبيعة المنقرض. كان البابليون يسمونه ساتورن والأغريق بالعصر الذهبي، والمصريون بعصر الشمس، أما الأساطير الهندية فتنسبه إلى عصر براهما الفردوسي.

أنا مقيم في هذه المحارة، يا قاسم شريف، ولن أخرج منها إلا جثة. هذا الثلج هو ساتورن البابلي وبراها الهندي وزمن الشمس الذهبي، لأن المنفى الحقيقي ليس هنا، بل هناك، في تلك الأرض التي كنا نسكنها كمتسللين وغرباء، فلم نعرفها ولم نعرفنا، لذلك عندما اختفت من خطوط السفر والسياحة، لم يكن الأمر يعني أكثر من اختفاء طائرة غريبة من على شاشات الرادار.

أنا موجود بين قرن الماعز وقرن الرمل وهذا الخليج الأورستي الذي يعدني بأعراس ورحلات صيد إلى مدن وجزر وغابات وجبال وخلجان وسهول وصخور مشعة تلمع تحت الماء والنور والشمس والنجوم، إلى فواكه ورمال وبحار وأعشاب وطحالب ورغبات حية، وأفراح سرية قادمة، حتى لو كان ثمن ذلك هو العزلة أو الموت. لكن ذلك لن يتم دون



التحديق في وجه الماضي، الموت، المخلب، أصابع الليل، خفافيش  
النهار، الأفراح الصغيرة المسروقة من فم التمساح. هذا الثلج، العزلة،  
القبو، العاصفة، العتمة البيضاء، هي شكل محوّر وعلني للرحم. مثل كل  
ولادة، ولادة شجرة، أو ولادة امرأة، أو قصيدة، أو علاقة، أو لوحة، أو  
عاصفة، أو مجزرة، أو شهوة، أو حب، أو جنون، أو ولادة فأر، فإنها لن  
تتم بدون ألم، بلا دم، أو صرخة.

على هذا البياض الوحشي، البكر، المتوهج في العتمة والضباب، في  
العزلة والعاصفة، على مقربة من الليل والحيطان وقمر صحراوي أشقر  
يلمع من أعماق لوحة شرقية، قريباً من جذع نخلة على حافة نهار صيفي  
مضيء ومشتعل يتكئ على الجدار المواجه لجبل قرن الرمل، أقف وحيداً  
وأعزل إلا من الأظافر والريح والعزلة أكابد آلام القيام من الرماد كعنقاء  
الأسطورة أو حكاية من حكايات بورخيس أو مشهد عن موت طائر  
خرافي يقوم من النار.

من خلف الإطار، إلى جوار لوحة الخيول الراكضة، طالعني صورة  
قديمة عن وجوه وأمكنة ومعالم، لم تعد موجودة في ذاكرة أحد. صورة  
غارقة في نهار منسي. صورة معلقة على جدار تنهمر خلفه الآن ثلوج  
غزيرة، أما مكان الصورة، المكان البعيد، المكان المنفي، المبعد، فهو  
حديقة الأمة، وتحت نصب الحرية لجواد سليم، والزمان، زمان الصورة،  
هو تاريخ ولادة الحشرات السرية في الاول من تموز في صيف زائل مثل  
كل الأشياء في هذه الصورة التي لم تعد موجودة.

على يسار الصورة يظهر الشاعر عبد الأمير الحصري يتطلع إلى البعيد  
في نظرتة الغائبة، الهاربة، المبحرة في ضباب الجنون الفردي الذي يصيب  
كل من جاء بغداد من خارجها. هذا القادم من ليل الرايات السود،  
ومواكب الموت والبكاء والصحراء والسيوف والأضرحة والوضوح، من  
ليل السراديب والشعر والمقابر وتاريخ الشهادة والعشق، هذا الطفل  
الجنوبي الخارج من الحكاية إلى التشرذ، يظهر في الصورة كما لو أنه ينظر  
إلى جسر الجمهورية في ذلك النهار الصيفي، لكنه ينظر الى مكان آخر.

كان يقول لي في لحظات الصحو النادرة قبل الصعود إلى الهاوية من  
على كرسي في حانة:

. بغداد ستقتلني يوماً.

. لماذا، أبو عهد؟

ولم يكن عهد موجوداً، لكنه وعد بالمطر الذي لن يهطل أبداً، وكنت  
أخاف عليه من الخمر. يقول:

. على الشاعر والطفل والبريء ألا يدخل المدن الملعونة. هذه مدن  
الغواية والموت السري.

. والحل؟

. لا يوجد أي حل. فات الأوان. نحن الآن في البرزخ. لا تكرر غلطي  
القاتلة أنت القادم من البرية إلى بغداد. سوف تصدم بهؤلاء الذين كنت  
تقرأ عنهم ولهم في الصحف والكتب. ظل على مسافة واسعة بينك  
وبينهم.

راح يرتل بصوت أرض شققها انتظار المطر:

(دعني أكابد وحيداً شر عاصفتي)

## وأستحم بأنياب الثعابين) .

يقول بصوت مجروح:

- كنت أؤمن بصورة قاطعة أن الشاعر والفنان والمثقف والكاتب من فصيلة الملائكة، لكنني صدمت بما رأيت.

- وماذا رأيت؟

- رأيت عجباً. رأيت الذي لا يقال. يقولون إنني صعلوك ومتشرد. أنا من سلالة قرامطة والابن الشرعي الوحيد الباقي لعروة بن الورد.

- لكنك لست الأول؟ قبلك جاء السياب وطحنته المدينة والشعراء . طاردوه وهو في قالب الجبس في بيروت وسرقوا حافظة نقوده وضربوه واتهموه بالعمل لصالح المخابرات الأمريكية. هل يخطر ببالك أن يكون السياب الشفاف الرقيق كسنبله جالساً بنظارة سوداء في مقهى ويتابع المارة بتعبير محمد الماغوط؟ بعد موته رثوه وأقاموا له المناقب. جاء حسين مردان بتمرده الشعري الجميل وطفولته المستعصية على الهرم كي يموت هنا كأبي صقر يرتطم بجدار ليلي. نحن نأتي هنا لكي نموت موتاً تافهاً بلا معنى.

رفع الحصري رأسه كجواد هائج على حافة نهر الفرات:  
. ليس الأمر سهلاً في أن تكون صادقاً وبريئاً في زمن رديء. هل  
تصدق؟ سمعت عن نفسي حكايات عجيبة. ليست حكايات أو آراء  
مجردة، بل صنعوا لي صوراً في غاية الغرابة والإتقان والدونية.  
- مثلاً؟

- مرة صورة الشاعر الصوفي، الشاعر اللوطي، الشاعر الملعون، الملتزم،  
الخائن، الملحد، الفاجر، التاجر، العاهر، الخليع، المتفسخ، الشيوعي،  
الإرهابي، العدمي.. كيف يمكن أن تلتقي هذه التناقضات؟  
قلت :

. ماذا تتوقع من وسط يغيب فيه حس العدالة وروح القانون وتسيطر  
فيه ذهنية الغوغاء؟ لكنك أنت أيضاً تساهم في تغذية أسطورتك عندما  
لا ترد على هذه التهم. بل أحياناً تعمل على توسيع الالتباس.

قال الحصري ضاحكاً بمرح طفولي وهو يرنو إلى نورس يعبر جسر  
الجمهورية في طيران انسيابي:

. من كثرة ما باليت، ما انتفعت بأن أبالي، كما قال المتنبي يوما. كان الأهم بالنسبة لي أن أرى نفسي بمراآتي الذاتية وليس بمراة أخرى مشوهة. الخوف، كل الخوف في أن تضع نفسك في مراة الآخرين وتحكم عليها بعيون أخرى فتصبح ريشة في مهب الريح. صورتني الداخلية خارطة سرية لا يعرفها أحد. هل ترغب في البقاء هنا وقد حط الغسق على هامات الأشجار؟

قلت حائرا:

. لكن إلى أين نذهب؟ أنت سكير، وأنا أعزل؟

قال ضاحكا بلامبالاة:

. نذهب لكي نستحم بأنياب الثعابين.

ذهب الحصيري ليستحم بأنياب الثعابين ومات في فندق في

الصالحية. ضجر من الطرق، ومن الخمر، والحدايق، والشعر، والقلق:

( قلق، قلق، لماذا أنت يا قلق؟

لماذا الناس تنفر من وجهي؟

وتهرب من أقدامي الطرق؟).

ضجر من النوم فوق المصاطب، وانتظار ما لا ينتظر، فقرر أن يرتكب آخر الحماقات. فتح الباب السري ونام حتى الموت. نام طفل بغداد الجميل على نشيد الحزن النجفي في فندق من فنادق الدرجة الثالثة بلا وداع، أو نشيج، أو دمعة، أو لمسة يد. مات كما تموت النسور في البراري أو القمم الجبلية.

آخر مرة رأيته فيها في بار شريف حداد وكان منهكاً وثملاً، وضائعاً في حشد الزبائن كنسر في شرك. اقتربت منه وجلست إلى جواره على الكرسي المقابل، وكان يردد قول أبو نؤاس:

(ولقد نُهزتُ مع الغواة بدلوهم

وأسمتُ سرحَ اللهو حيثُ أساموا

وبلغتُ ما بلغَ امرؤُ بشبابه

فإذا عُصارة كل ذلك آثامُ).

إلى جانب الحصري، يظهر في الصورة خليل عبد الواحد. يبدو ضاحكاً، طليقاً، لا يتأمل أحداً أو كوكباً، لا ينتظر قدوم نجمة أو وردة من وراء الجسر. كان ضاحكاً بحيوية وفرح ودهشة رجل أو طفل حصل على هدية مباغته في نهار عيد. الذي لم تلتقطه الصورة جيداً هو أن خليل عرف مصحة ابن رشد النفسية، ونام فيها، وعرف كيف يضع السجائر في لحمه حتى تفوح رائحة الشواء. في كل يوم كان خليل يحرق قطعة من جسده على نار هادئة في المقهى أو الحانة أو المصطبة. ظل يشوي لحمه في النار كبوذي قرر أن يموت على مراحل. الصورة لا تظهر رائحة الشواء ولا مصحة ابن رشد ولا ليلة مقتل خليل عندما كان عائداً من الحانة في منتصف الثمانينيات حين هوت على رأسه هراوة قاتلة من الخلف ومات على عتبة داره.

مات خليل عبد الواحد الكاتب والمخرج في ليلة حرب كما تموت الكلاب في العتمة، والقاتل هو الضباب أو الفجر أو نيزك هارب من مداره على طبول وحشية داعرة وعلى دوي مدافع بعيدة تأكل بهدوء وصمت لحم آلاف الجنود دون رائحة أو صرخة.



الوجه الثالث في الصورة، إلى جوار خليل، هو الصحافي سعد سعدي كمال. وجه طفولي، بريء، يحدق في الأفق البعيد كمن يبحث عن طائر أو نجمة أو غيمة. كان يضع ذراعه اليسرى على كتف خليل بحنان وسرور، ويده اليمنى على كتفي، أنا الذي أظهر في الجانب الأيمن والأخير من الصورة.

خارج الصورة، يظهر سعد سعدي كمال نائماً فوق مصطبة أو عشب أو على كرسي في مشرب آخر الليل، أو مرحاض عام في ساحة التحرير. خارج الصورة أيضاً، سعد سعدي كمال، ينام ذات ليلة على مصطبة رصيف ويسافر إلى نهايات العتمة الزرقاء، دون أن يستيقظ أبداً أو آخر السبعينيات. هرب مثل الحصري، مثل خليل، مثل يسرى، مثل آلاف المحاصرين قبل الأوان، إلى حافات الليل الأخيرة. لم يوقظوا أحداً، لم يزعجوا صديقاً. هربوا إلى أقصى نهايات العزلة، إلى الليل السرمدى، هناك لن يصرخ أحد، لن يبكي، لن يموت، لن يهرم. هناك، في النهاية القصوى للطريق، على حافة نهار آخر، سيلتقي هؤلاء الأطفال المجانين. هذه ليست نهاية الصورة.

يبدو في خلفية الصورة تمثال الأم وسط نافورة مياه مضيئة تحت الشمس. في زاوية بعيدة تظهر سينما السندباد والزقاق القريب، كما يظهر بوضوح ساطع، مشع، بهي، نصب الحرية بنحوله وثيرانه وطيوره وجنوده ورسائله التي لن تصل أبداً.

خارج الصورة.

موت جواد سليم، بل موت النصب نفسه وتحوله إلى أحجار، ونقل تمثال الأم إلى مكان آخر، جفاف نافورة المياه، موت الرجال الثلاثة، موت الحديقة (يقال إنها صارت في الحصار مكاناً للذيلة) وهدم الزقاق، قُصف الجسر، وهرب الشاهد والناجي الوحيد في هذه الصورة إلى آخر الأماكن.

شيء آخر لم تلتقطه الكاميرا على نحو واضح، لكنه يبدو في أقصى الصورة: جدارية فائق حسن.

خارج الصورة: لم تعد طيور فائق البيض موجودة. تساقطت من الإهمال كطيور في مصيدة. إنه زمن زوال الأمكنة والوجوه والحكايات. كنت أقف أمام الصورة مذهولاً كما يقف الإنسان أمام جثته وهو يتأمل موته

العلني، العاري. لمن اروي هذه الحكاية، إذن؟ هل كنت أشهد لنفسي؟  
هل غياب شهود الحقيقة، وحضور شهود الزور، موت الأشجار، هرب  
التمثيل، انتحار الخيول، هجرة الشوارع، جنون الثيران، سقوط الجسر،  
هل هو الذي فرض عليّ مواصلة الحكاية حتى قيامة الرماد؟

الآن تنهياً الوجوه، الأمكنة، الخيول، طيور الساحة، أشجار الحديقة،  
نافورة المياه، الجسر، السينما، الزقاق، الحجر، الثيران، أبواب السجن في  
النصب، للعودة إلى صورة زمن ما قبل الحصار الأخير.

أيها المشردون في كل الحقب، أيها الفارون من الوحش والغابة والعرق،  
كان حصارنا طويلاً قبل زمن الحصار الأخير، والشاهد موت الأشجار،  
المقاهي، الشعراء، هرب طيور النصب، حزن خيول الجدارية، نوم  
الأطفال الكبار على المصاطب في ليالي الشتاء الحزينة على دوي طبول  
الحرب.

أما أنا فقد كنت أجهز نفسي للخروج من الحكاية إلى الثلج، إلى الليل، إلى الشهوة، إلى العزلة، إلى الأنثى، القبو، الرحم، الدم، الألم، الصرخة على حافة هذا العراء المفتوح على الثلج والليل والجسد والرغبة واحتمالات الريح والهاوية.

رنّ جرس الهاتف كصوت قديم معتق قادم من مكان بعيد.

. هل أنت حي؟

سألني قاسم شريف ضاحكاً. قلت:

. حتى هذه اللحظة.

. أين أنت الآن؟ في القبو، أم في الحرب على الشاشة؟ في السرير أم

مع آخر الصور القديمة؟

قلت:

. لا تقلق. قل لي أين أنت الآن؟

. في الشارع أمام مرقص مكسيم، أنتظر خروج البجع الأشقر. هل

توقف عندك الثلج؟ المطر في بيرغن لم يتوقف منذ أسبوع. لولا هذه

الأفخاذ الثلجية، لقلت إنه طوفان جديد.

قلت بدهشة:

. ولم كل هذا الانتظار تحت المطر؟

. هل يزعجك الجلوس تحت المطر؟ هل نسيت أيام الكمائن الليلية،

والحجاب في الأرض الحرام التي حدثني عنها في طهران؟ أنا في انتظار

امرأة، وليس لغماً أو رصاصةً أو شظيةً. والآن خرج قطع الغزلان من

المحراب.

مرة كنا نمر من أمام مرقص مكسيم في الليل قاسم وأنا، عندما بدأ

مغربي بإطلاق النار من مسدسه، فقتل الحارس، وجرح عدداً من المارة.

زحفنا فوق الأرض المبللة ونحن نلعن كل شيء: المطر والنساء والرصاص

والحرب والجنس والحجر والموسيقى والليل والمنفى والسرير. كنا نزحف في

مشهد سريالي فريد في مكان غير مناسب تماماً.

قاسم شريف يركض، الآن، تحت المطر. أنزل إلى القبو. أنا أتذكر،

وهو يمارس. هو يسهر في الحشد والموسيقى والدخان، وأنا أسهر مع

الصورة واللوحة والفيلم والذاكرة. أنا أغوص في الماضي، وهو يهرب منه.

أنا أحاول أن أمد جسورا مع الذاكرة، وقاسم يحاول نسفها. هو يلغي الذاكرة، وأنا أراوغها. أنا أحاول فهم الجسد، وهو يمتعه.

هل جئت إلى هذا المكان لكي أعيش تفاصيل المكان القديم مرة أخرى؟ هل جئت هنا لكي أتصالح مع الماضي الذي لم أشارك في صنعه ولا في قبوله؟ كيف يمكن إعادة تلك التفاصيل الهائلة في المكان الجديد؟ هل المكان الجديد ديكور أم هو شكل سري للذاكرة؟ هل صراع الذاكرة مع المكان القديم أم مع النسيان؟ لماذا لا أرى من المكان الأول غير صورة الجرح، ولا أرى في المكان الجديد غير الثلج؟ هل يختلف الجرح عن الثلج؟ في اللون أم في الألم؟ ألا يجرح الثلج؟ أسئلة كثيرة أطرحها على الليل والعاصفة دونما جواب عدا الريح.

رنّ جرس الهاتف مرة أخرى. قلت على الفور:

.كيف هو صيد البجع؟

رد قاسم بصوت هامس ومضطرب:

. أحدثك من بيت إحداهن وهي في الحمام الآن. لا أعرف أين يقع البيت ولكن الشرفة تطل على ميناء بيرغن. فاجأتني بنت الحرام عندما قالت لي ونحن عراة إن زوجي إلى جانبك. كنت قد صورتها تمزح أو ثملة، لكن ظهر أن رماد زوجها قد وضع في زجاجة على طاولة صغيرة. سوف أخرج في هذا المطر مهما كلف الأمر. هل أنت في القبو؟

قلت مازحاً:

. لا. في حديقة الأمة.

. الصورة؟

. نعم. سأتركك الآن.

قال مازحاً:

. إلى الحرب؟

قلت:

. من يدري. هل تخاف من الرماد؟

. لا. لكن الصورة غير مألوفة عندي. خرجت عارية الآن وهي تسألني

بأية لغة نتكلم؟

. قل لها لغة أهل الجنة.

سمعتها تضحك. قال قاسم:

. تقول: وهل يتكلم زوجها هذه اللغة الآن؟

. ربما. والآن مع السلامة.

\*\*\*

مطر يضرب النافذة وخيول لوحات الجدار تلمع تحت ضوء الشمس في نهار ربيعي مشرق، تحت سماء زرقاء ندية. عبر الواجهة الزجاجية، تمر كتل الثلج محلقة في الشارع كأرواح بيض هائمة في هذا الليل.

كما يحدث في صورة مشوشة أو في حلم مرتبك، كانت الأشياء تنبثق من داخل عتمة الشارع، العتمة البيضاء المتحركة وتنحدر في اتجاهات متقاطعة. الآن مثلاً ينبثق شكل بشري يحاول الاندفاع إلى الأمام ومقاومة الريح والثلج. مع أن ملامح هذا الشكل غير واضحة، إلا أنه قائمة بشرية لإنسان من الصعب في هذه العواصف البيض تحديد جنسه. ها هو يختفي الآن من واجهة الزجاج الأمامية نحو الجسر الصغير أو القنطرة المعلقة فوق صخور ومياه وأعشاب. ليس الشبح البشري



اختفى، بل الجسر نفسه. في هذه المتاهة لم تعد هناك صورة ثابتة للأشياء. كل شيء، بما في ذلك الأشجار والصخور والمنازل والجبال والمداخن والسماء والطريق لم يعد واضحاً بشكله العادي.

أنا من سلالة تحب، حتى في العتمة والموت والسر ، أن تعيد صياغة أشكال الريح والثلج والرمل والعاصفة والخوف والأرق والحجر والطين والكلمات والقبور والرموز والأمكنة. أول شكل بشري انبثق من الطين كان هناك، في تلك الأرض المحروقة بالصواعق والخوف والطوفان والجوع والقرايين والسبي.

الآن، داخل كتل منهمرة بعنف وحشي، شكل آخر ينبثق على نحو خاطف ويختفي. سيارة مسرعة اخترق نورها الثلج وكشف عن الفوضى المشعة المرتبة في قلب الريح. مع مرور الوقت أخذ ظهور الأشياء يتكاثر في انبثاق مباغت لا يدوم إلا لمحة سريعة ثم يزول. لم يعد هذا الظهور الخاطف على خلفية شارع عاصف تعربد فيه الريح والخواء والعتمة،

مقتصراً على مخلوقات أو أشياء قادمة أو منبثقة من الثلج أو الطرق، بل وعلى صور وملامح لا وجود لها الآن هنا داخل هذه المتاهة.

تنهض من فراغ الشارع، من خلف أشجار مكسوة بالثلج، صورة صحراء، صورة دغل مغمور بضوء غسقي محترق، خيول تركض على ضفاف صيفية معشبة، جثث في عراء مهجور، تحت سماء عارية، رمادية، سجون وقضبان، نوافذ وأسلاك، حدود ألغام، امرأة راكعة تصلي في فجر شاحب وأخرى عارية في سرير، رمل وحجر ودم، أكوام من الحديد لسيارات وعجلات محطمة ومحتركة ومخازن عتاد فارغة وعجلات مثقوبة ومدافع صدئة في العشب، أراجيح مرمية بعنف خفي داخل حديقة، دميمة ممزقة على فراش مرمي في العراء، شفاه مقطوعة على الأغصان، لحم بشري متناثر على شجرة، فم طفولي يصرخ من داخل عتمة، أعمدة مصابيح في الضباب أو الظلام، ضبع يعوي في براري شاحبة على الريح والنجوم والقمر وصمت الرمال.

ها هو ينبثق، الآن، شبح من بياض الشارع، وينعطف نحو المنزل.  
إنها كاترين.

هطبت عليّ في هذه العزلة الثلجية كوعل يركع عند حافة بركة ماء.  
هذا النزول المباغت، في هذه المتاهة، في بنية الرماد الأبيض، تحت سماء  
بلا قمر أو نجوم، يشبه إلى حد بعيد سقوط الأمطار الاستوائية القديمة،  
وظهور الشواطئ لبحارة الأزمنة القديمة، وعودة السنونوات إلى كاتدرائية  
حجرية مهملة في الجبال، أو قيام بطل الحكاية من الموت في ليلة أخرى.

عند مدخل الباب، هزت شعرها من الثلج والمطر، فطار سرب من  
العصافير الزرق إلى خارج النافذة مع فوج من الفراشات الربيعية الملونة،  
ونثار من الثلج الذهبي، وحط غسق وردي على حافة صحراء عريقة في  
القدم، وفز قطا نائم تحت سنابل قصيدة جنوبية.

مرة أخرى وضعت أصابعها في شعرها كي تنثر الماء فحلق فوق جبل  
قرن الماعز سرب من طيور الكراكي المهاجرة إلى مدن الصيف والأعياد  
ومواسم الخصب والحصاد والولادة والأضرحة وأعراس الخيول واحتفالات  
الموت والمطر وأراجيح زمن الغزالة.

أغلق المشهد على الثلج ومرور العاصفة وصوت الريح. دخلت كاترين  
كما يدخل عطر مسائي صيفي عبر نافذة مشرعة على الحقول. مدت  
يدها اليمنى نحو النافذة وهي تلعن الثلج، فرأيت الثعبان الأزرق ينطلق  
نحوي من خاتمها المرصع بخرزة زرقاء مشعة. هذا الثعبان، الخاتم، البرق،  
يلمع في إصبع كاترين كهوية سرية، أو فنار، على ساحل مهجور من  
السفن والرمال والبواخر والصيد.

في السرير، في المأتم العابر، في الجنون المفتوح على الحقل والنبض  
والدم، في الصراخ الضاحج بالنار والموت والنهار والماء، يتحول هذا الثعبان  
الأزرق إلى وجه آخر، غامض، من وجوه جسد المرأة. مرة طار من  
إصبعها وهي تعاني من الموت والغيوبة والنعاس الضبابي، عندما شعرت  
به على وجهي كثعبان يستحم تحت الشمس أو في الرمل في ظهيرة  
مشتعلة.

قالت وهي تجلس في مكان يوسف البابلي، مشعةً:

- أحسدك على هذه العزلة. تبدو كأنك لا تحتاج إلى شيء أو أحد.

هل هذا جزء من تقاليدكم؟

- العزلة؟ لا. هناك أنواع معروفة من العزلة. عزلة الراهب، الصوفي،

النبي، الدرويش. أما هذه العزلة فهي مستحيلة لأن الفرد هناك هو

ملكية عامة، لكن ما الذي جاء بك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

- متأخرة؟ الساعة الآن العاشرة. هناك متسع من الوقت لكل شيء.

قالت لي نتاليا إنها زارتك ليلة البارحة. قالت أيضا أنك كنت عاقلاً

معها رغم أنها كانت تسمع صوت ضبع الشهوة يصرخ في داخلك.

تساءلتُ:

- كيف سمعتُ صوته؟

- أنت نفسك قلت يوماً إن نتاليا غزال بري يشم رائحة الضبع قبل

قدومه. أنت لا تعرف أحاسيس المرأة جيداً عندما تكون وحيدة مع

رجل في مكان مغلق. ألم أقل لك يوماً: (بدأت تعوي في داخلي؟

فسألتني: هل أنت صحراء؟ فلقْتُ لك: إذا كنتَ ذئباً).

قلتُ، ضاحكاً:

- نعم. حدث هذا في رواية (سنوات الحريق).

تجلس كاترين وتتحدث وتساfer وتنام وتموت في السرير وتعمل وتتسلق  
الجبال الثلجية بعفوية شلال أو ضوء نجمة أو عطر ليلي تائه لوردة برية.  
كاترين هي شكل محوّر لصخرة جبلية أو فراشة أو غيمة أو خليج معتم  
أو جزيرة زرقاء مكسوة بالأشجار والطيور والأحجار والأعشاش.

مرة دخلنا غابة، فتهنا حتى هبوط الظلام. شعرتُ بخوف مبهم من  
الموت في الغابات. كنت أظن الغابة الاسكندنافية في مثل كثافة واحتمال  
وقسوة الغابات المطرية والأفريقية والآسيوية حيث الأسود والذئاب  
والضباع والفهود قد تبرز، فجأة، من وراء شجرة أو دغل أو عشب.  
قالت كاترين ضاحكة:

. لا تخف. لا شيء هنا يمكن أن يشكل خطراً إلا أنت.

. أنا؟

سألتها بدهشة. أجابت:

. نعم، أنت. أنت الحيوان الوحيد الضاري في هذه الغابة.

قالت ذلك وركضت بين الأشجار الكثيفة المعتمة في ليل ناعم  
ومسالم. ليل لا يمكن أن نعثر عليه إلا في هذه الغابات الساكنة،  
الصريحة، المفعمة بالجمال والهدوء وموسيقى المياه الهابطة من الجبال. إنها  
موسيقى الصخور الرمادية التي تنبثق، سرّاً، من عناق أزلي بين الحجر  
والماء والهواء والصمت.

ظهرت مرة أخرى في الغابة كما يظهر وعل مجفل. قالت مسرورة:  
. الغابة أم القبو؟

. ليس هذا مهماً. هذه الغابة قبو آخر. كل شيء قد يأخذ شكل  
الأشياء والأحلام التي نريدها. الطبيعة هي جسد آخر وليست زينةً.

جلستُ، الآن، في مكان يوسف البابلي وهي تتأمل العاصفة الثلجية  
في الخارج. قالت:

- الذين لا يعرفون اختيارك للعزلة يظنون أنك في مشكلة. قلت لي مرة  
إن اختيار العزلة شيء وفرضها شيء آخر. ماذا كنت تعني تحديداً؟  
قلت:

. عندما تفرض العزلة، تصبح إهانة، لكن اختيارها حرية. هل جلبت معك شيئاً من الشراب؟ يوسف البابلي وأنا شربنا كل شيء.

صدع في العاصفة. صدع عميق يشبه الجرح أو الذاكرة. في داخل الصدع تنام حديقة وصاعقة وليلة صيف وأراجيح ومواسم حصاد وبضع زهرات من النوع البري الذي تجلبه الرياح والبرق والمطر والرعد. صدع قديم مرّحل من زمن النوم على السطوح وتحت النجوم ومصايح الشارع وعلى أحاديث سكارى منتصف الليل وجمرات سجائر الحراس في الزوايا وعواء كلاب ليلية على نجوم بعيدة أو على نيزك مشتعل، وهو ينحدر نحو عراء مفتوح كجسد طليق.

سمعتها تقول:

. يوسف يظن العزلة مشكلة لك.

. هو قال ذلك؟

. لا. أنا أظن. مرة قال لي كوني يقظة تماما عندما تستمر العاصفة

بضعة أيام. قد لا يتحمل ذلك. فسألته: ما معنى قد لا يتحمل ذلك؟

فأجاب بطريقتكم الملتوية: قد تضاعف من الصدع. سألته: ما معنى



الصدع؟ أجب ضجراً: الاضطراب، القلق. هل هذا واضح؟ قلت: ليس تماماً.

. الصدع، يا كاترين، ليس الاضطراب بل هو جرح الذاكرة. أسوأ شيء يمكن أن يمر به إنسان عندما يهدأ من حروبه الصغيرة والكبيرة عندما يكتشف أن ذاكرته مسروقة. هل تعرفين ذلك؟  
- لا. هل تشرح قليلاً؟

. الآن عندما أحاول استعادة الأمكنة الأولى، أجد نفسي كنت مرغماً على الدخول فيها: الثكنة، الحرب، السجن، المقبرة، المدينة، الشارع، الفندق، الماخور. هذه الأمكنة هي وجوه مختلفة لوجه واحد. الذي كان يبدو وقتذاك اختياراً، ظهر الآن انه شكل من أشكال العنف غير المرئي. الخوف يعفن حتى الأمكنة ويشوه جمال الطبيعة. والآن أين الشراب لكي نداوي الصدع؟

- وهل الشراب وحده يداوي الصدع؟

قلت وأنا أرفعها من المقعد كي ترقص معي رقصتنا القديمة التي رقصناها معاً عندما تمكنتُ في رواية (سنوات الحريق) من الوقوف على قدمي لأول مرة بعد شهور من الشلل الغامض:

. أكثر. أكثر.

وقفتُ وهي ترقص على إيقاع متوازن، مجنون، مصدره الريح في الخارج، وطبول وحشية قادمة من قلب غابتها العريقة في الليل والظلام والدم والشهوة والغريزة. قلت وأنا أرقص كفهد أفريقي يرقص إلى جوار غزالة صغيرة غير مدركة لما يدور حولها:

- بعنف، بعنف.

فتحتُ النافذة على مصراعيها وأنا أحتضن العاصفة الثلجية بذراعين مفتوحتين على الليل كجناحي صقر يتأهب للطيران فوق براري مطلة على النهار والشمس والرمل والعشب والخيول والريح والقمم النائبة.

كانت منتشية بجسدها وهو يتداعى تحت ضربات حلم غامض أو شهوة مخفية، أو يتحرر من كابوس أو ذكرى. وكنت أحاول دفعها في اتجاه القبو كما يحاول عنكبوت أو ضبع أو صقر دفع فريسته نحو فخ على شكل ماء أو شجرة أو ضوء أو رغيف أو سرير أو نجمة.

لكن كاترين دخلت الآن في غيبوبتها الأخيرة، في النشوة والحمى،  
اللحظة التي يتحول فيها الجسد إلى بضع قطرات من الماء والحلم والنجوم  
وغسق مرتبك. كانت تواصل اغتيالها المجنون للصمت والريح والجسد  
والزمن والثلج والليل والعاصفة ولوثة الروح المصابة بنشوة وحرية القلب.

كنت أواصل عبر الذاكرة رقصة الدراويش وصرخاتهم وموتهم العابر  
والأنين الطويل القادم من شتاء بعيد، غابة قديمة، ليل داخلي يرقص  
على اللهب والنشوة وقيامه الجسد المنهك على طول أزمنة الكهف  
والحجر وعري النجوم.

كاترين ترقص رقصتها الشهيرة على صوت الريح، على دفوف ليل  
آخر قادم من الحشرة واللوعة والوحدة والخمر والثلج. كانت ترتعش  
كلهب في مجرى ضوء نجمة أو ربح مختبئة في لحاء الشجر، كبرق نائم  
على صخرة نهار ثلجي، كرعشة حيوان غابي فاجأه المطر، ضوء النهار،  
دوم الشهوة، سقوط شجرة، أو خفق جناح طائر في العشب أو حلم  
قنطرة منعزلة بموكب من المارين.

في داخلي درويش يستعد لغرز السكين في الجسد، وفي داخلها بركان  
لا ينطلق ولا يخمد، أو عاصفة لا تهب ولا تهدأ وهذه أخطر البراكين،  
أخطر العواصف. أنا أحاول الموت موتاً طقسياً داخل الجسد والنهوض  
من الرماد، وهي تريد موتاً جميلاً، ممتعاً، راقصاً. هي ترقص على إيقاع  
موسيقى الثلج الأزرق، وأنا ارقص على إيقاع حفل وحشي ينبثق من  
حريق دم لا يشتعل ولا ينطفئ. لا أنا حي ولا أنا ميت بل بين خطين:  
خط مصير تقرر على يد الغيب والقانون الوحشي، وخط مصير يتقرر  
الآن بين تمرد الجسد على شروطه القديمة ولعبة صناعة الحشرات، وبين  
طلق بلا ميلاد.

هي ترقص على طول جسد متوهج كغزالة داهمتها الشهوة في عشب  
كثيف، وأنا أرقص على دفوف جسد مثقوب بالرصاص والليل والذاكرة  
والأمكنة وكلاب برية مسعورة. هي ترقص على أرضها، وأنا فوق أرض  
مستعارة كهذا الثلج. أنا، قبل هذه الرقصة، كنت معبأً بالأسلاك والموت  
والثكنة والسجن، وهي معبأة بالبرق والعشب وبقايا الصاعقة. أنا  
مستودع عربات ومدافع وقطع حديد وأغلفة قنابل فارغة، وسجلات

حضور وغياب، ومحاضر عن النوم والأكل والحلم والحكاية، وهي حقل  
أخضر مجنون ومفتوح على السهل والضحك ونشوة الموج عند بزوغ  
القمر.

أنا درويش منسي على حافة هذا الليل الجليدي، كاترين، وأنت شهوة  
الحجر، صراخ سنونوة باغتها الشهوة وهي في الطريق إلى كنائس العزلة.  
قيامتي رماد، وقيامتك شبق. موت الدرويش كموت الصاعقة، يولد برقاً  
أو موتاً أو عشباً أو ورداً، وموتك كموت السنبله يولد قمحاً وخبزاً  
وفرحاً. أنا أحترق لكي أولد من جديد، وأنت تحترقين لمواصلة الولادة.

اللعنة على الصاعقة، لم تعد تزورنا منذ صار الموت عيدنا الوطني،  
وصورتنا ونحن تحت الأحذية هي الطابع الوحيد المعترف به كرمز لأفراح  
النصر. أنا، كاترين، درويش هارب، خانه الزمن يوم باعوا دفوفه وسيفه  
وناره وسجادة صلاته وأغانيه وقبور موتاه وأشجاره وأضرحة رموزه  
وضفافه ونخله وجسوره من أجل ربع عرق وعلبة سجائر ورغيف وصحن  
حساء وزيت أمام قوات التحالف ليس نتيجة قوانين التاريخ وسنن الحياة

وتفسخ الحضارات، بل بسبب ربع براندي في حديقة قصر مسحور، في نشوة قرد خرج من الصحراء والكهف والمغارة إلى ضوء النهار، وأعياد الصيف، وأطفأ كل شيء: الماء والظل والأراجيح والطفولة وحتى غيوم السماء، وعطل هجرة العصافير والأرحام.

أنا موقد جمر لا يشتعل، ولا ينطفئ. درويش أخذوا مسبحة وقرآنه وأعطوه بطاقة تموين. أخذوا منه وطنه، وأعطوه منفي، ثم سرقوه منه. أخذوا منه رقبته، وأعطوه حبلاً. أخذوا منه حياته، وأعطوه جنازة. أخذوا منه جسده، وأعطوه علبة تبين. أنا تبين يرقص، كاترين، وأنت جدول ماء. هل تقبلين المقايضة: أعطيك تبناً، جنازةً، منفي، موقداً ميتاً، حبلاً، وتعطيني سجادةً، مسبحةً، سيف الموت الطقسي، رغبة، وقصيدة قديمة عن صلاة العجري؟

تتراخي عند الحافة الأخيرة من النشوة، وقد اشتدت العاصفة في الخارج، وتسقط كشجرة مقتلعة، صارخة كحيوان داهمه المطر، داهمته النجوم، أوراق الخريف، داهمه دم الرغبة، داهمه حلم مبالغت عن فخر أو

وليمة أو رائحة. مستلقية على الأرض، كانت الصرخة تواصل طريقها،  
كان الجسد يواصل الرعشة، كان القلب يواصل النفي، كان الليل  
الداخلي المعتم، ليلها السحيق، يواصل المطر والأغنية واللهب والحمى  
كسحلية تحتضر على حافة رمل مشتعل في موت شبقي مباحة.

كنت على وشك أن أرفعها إلى القبو، أهبط بها إلى المثنوى، عندما  
داهمني عبر النافذة أيل جائع وخائف، فجر أزرق، غراب، وشمس تشرق  
من صحراء لوحة على جدار، وحلم لذيذ، مرتجل، عن سحاب ومدن،  
وسهول، وقناطر وخيول تركض في براري مشعة.

عندما سمعت صوتها القادم من دغلها الكثيف المعتم، من ليلها  
الداخلي العميق، وهي تسألني:

- هل أنت حي؟

شعرتُ بموت اللغة وعجز الكلام، كأنني لم أعد نفسي، بعد موت  
اللسان، وقيامه الجسد، بزوغ الروح المخفية في وحول لا ترى. كانت  
اللغة تقاوم. كان الجسد يقاوم. كانت الشجرة تبارك، كان الثلج يبارك،

كانت العاصفة تبارك، كان الفجر يبارك هذا الموت العلني للكلام،  
وبداية مواسم سهيل الورد.

كانت الحشرجة، الصرخة، الرقصة، العاصفة، الفجر، الحلم، النشوة،  
مرور الأيل، أنامل الدفء، قد حذفت لغة التفاهم القديمة، عطلت  
الذاكرة، محت زجاج النافذة من الدخان والوهم واللون والعزلة وحدود  
الجسد والأهداب وخطوط السفر والريح وهجرة المآذن واللقاق ومواسم  
قتل البط والقصب والسرو وهجرة العصافير في أقداح الشعراء الملعونين  
في حانات الباب الشرقي وذخيرة الرصاص المنهمر على أعمدة الموت في  
ظهيرة الظلام في الجبل أو في السهل أو في مستنقعات ولادة الآلهة. أنا  
الآن حر وطلق كدرويش ينهض من موته بعد الذبح.

\*\*\*



غادرت كاترين المنزل وأنا نائم على بقايا حلم قديم مهرب. حلم  
كلفني الكثير من الموت والشهقة والجحيم والمرارة وعبور الحدود و صليب  
سري أحمله أينما رحلت كصليب القيرواني وهو يحمل صليب المسيح،  
باكياً. نحن لا نحلم، في تلك الأرض المحروقة بالصواعق، لحسابنا الخاص  
إلا بإذن من الوحش.

كان الثلج قد توقف عن الهطول وبنزغ نهار جبلي صريح مكون من  
اللون الأبيض وآثار أيل زائر في الفجر كحلم مرتبك، وصيحات الغراب  
من على شجرة دردار ترتدي الثلج. فجر بسيط يليق بفراشة أو جدول  
ماء. علامات وآثار أيل، وثلج، وامرأة، وغراب، وبقايا حلم، وشجرة،  
ولون أبيض لنهار مفتوح على الصيحة والجسد والقنطرة والخليج.

تذكرت أن غدا عطلة نهاية الاسبوع. فكرت في النزول إلى البوتيك  
لشراء الطعام والخمر والسجائر والقهوة وفتح صندوق البريد والجلوس في  
مقهى مطلة على الشارع الرئيس وقراءة الصحف المرسلة أو الرسائل. لم  
تعد هذه الرسائل تتحدث، منذ سنوات، إلا عن الموت والتابوت والمرض  
والجنون والسفر والجواز والباخرة والبحر والهجرة إلى بلد آخر بحقيبة أو

داخل شاحنة أو في صندوق بريد أو عبور صحراء، ليلاً، بما تبقى من  
ثياب وأحلام ونقود وجسد وجروح.

رن جرس الهاتف. خفت أن يكون شرطياً قديماً أو عاهرةً أو صاعقةً  
منسيةً في جذع شجرة.  
. أنا بيورن. كيف حالك؟

قلت:

. بخير وأنت؟

. كيف حال بطلك يوسف البابلي؟

. تركته يمضي إلى منزله ثملاً تحت العاصفة والثلج وهو يقود سيارته. قد  
تكون فرصة مناسبة للموت على حافة جرف صخري أو حادث سير.  
. لماذا لم تفعل؟

قلت:

. نحن لا نقتل الأبطال الذين نحبهم في حادث سير. نختار لهم ميتة  
تليق بنسر أو أسد أو جواد أو محارب نظيف.  
قاطعني، مازحاً أو ساخراً:

- في السجن، مثلاً، أو الحرب، أو الموت على خشبة إعدام...؟  
قلت، مرتبكاً:

- ربما. هذا النوع من الموت جميل عندنا. هل عندكم موت آخر،  
بيورن؟

- من قال إنه جميل؟ ربما يكون إهانة أو جريمة. أليس كذلك؟  
- أقول ربما. نحن لا نختار موتنا في كل الأحوال ولا حياتنا. نحن نعثر  
على الموت على رصيف كما نعثر على الحياة في مزبلة. أنت تتحدث  
مع رجل قادم من المذبحة وليس من مرقص أو كازينو على خليج أورستا.  
هل تفهم؟

- نعم، أفهم جيداً.

- وكيف حال بطلتك التي تركتها تتأمل جسدها في الحمام؟

- ما تزال في الحمام تمشط شعرها.

- حتى الآن؟

ضحك لسبب ما:

- نعم، حتى الآن. ولماذا السرعة؟ يمكن أن تظل الوقت كله أمام المرأة

وهي تمارس حياتها وفرحها وذاكرتها وشهوتها ولذتها. أنت تتحدث مع

رجل قادم من ساحل البحر أو حديقة أو حفلة صيد أو رحلة تزحلق على الجليد. هل فهمت؟

. نعم فهمت، بيورن. نحن مازلنا نعتقد أن الناس في كل مكان مازالوا واقعين تحت تأثير أقدار وعواصف وحروب وحملات دينية وعرقية وسياسية تزلزل حياتهم وهم في ثياب النوم. نعتقد أن كل الناس تفكر مثلنا. تستطيع بطلتك أن تبقى في الحمام ما شاء لها الوقت، لكن بطلي محكوم برخصة تحدد له الأمكنة وتاريخ العودة وتحجز له موعداً مع الموت. حتى هنا فهو واقع تحت تأثير أحلامه القديمة وذاكرة محطة وجسد حوّله إلى مخزن للدرجات الصدئة. هل تعرف أن الرغبة المتعفنة تصير سماً يخرّب الروح والجسد والوعي؟

قال:

. أين يوسف الآن؟

. في منزله الجبلي تحت الثلج. يوسف في عزلة يعرف على جسد مهشم ولكن بمرآة أخرى. هو أيضاً أمام مرآة لكنه لا يرى شيئاً غير سجونه القديمة. نحن لا نخرج من سجونا لمجرد فتح باب السجن، بل

نقيم فيها كل الوقت. نصير سجانين، وتصبح جلودنا قضباناً. نحن  
سجناء الجلد بتعبير أدونيس.

. قرأت ديوانه مترجماً: أغاني مهيار الدمشقي.

وأضاف يقول في النهاية:

. يمكنك الاتصال في أي وقت إذا رغبت.

. شكراً، بيورن يانسون. كنت أريد أن أسألك عن كتابك الوثائقي عن

بلدة أورستا. أين صار؟

. تقصد كتاب الأورستيون؟ سيكون في السوق الاسبوع القادم. إلى

اللقاء.

\*\*\*

رائحة طحلب يحملها هواء بارد، من خليج رمادي، وسماء تنضح  
ثلجاً وبرداً ووحشةً، في هذه الساعة من نهار أورستا الراكض في كل  
مكان كعربات تجرها وعول بقرون متوهجة فوق سهل ثلجي شاسع  
كحلم صيفي. رائحة الطحلب، ورائحة النهار، ورائحة جسد ملتقط من

أزمنة الخوف والذعر والهزيمة، ورائحة دراويش ودفوف وخناجر قديمة، ورقصة الليلة الماضية، رائحة أيائل هاربة، مجفلة، رائحة أجراس سرية للمياه والزلازل والصواعق، رائحة خيول تركض في بركة مقفرة على جدار، رائحة وجع يولده النهار الاسكندنافي الصريح، الآمن، الشبيه بلون رخام الأضرحة، هذه الروائح تتكدس الآن على مرايا النافذة، وعلى القلب، لكي تضاعف الطرد والنفي والانزواء وصرخات القلب السرية.

هذا النهار مخصص لبيورن وكاترين ونتاليا والخليج والنوارس وأشجار السرو والصنوبر وجدران الكنيسة الحجرية ولحكايات قراصنة بحر البلطيق. ليس نهار قاسم شريف ويوسف البابلي ونرجس ويسرى وعائدة وعاشور وإسماعيل وسالم. إنه نهار كريستينا المفتوح كجسد شرس، مستثار، محترق، متوثب، كقرون غزال يتحفز للقتال.

خرجتُ من المنزل كما يخرج جنين من الرحم. خارج الباب، في الشارع، وجدت نفسي عاريا أمام النهار والضوء والريح والصحو والناس والطريق. فكرت في العودة، لكنني مشيت تحت شعور من يطاء، لأول

مرة، أرضاً أخرى. نظرتُ إلى المنزل من الخارج وأدهشني كل هذا الصمت المتراكم فوقه كالثلج رغم حوافر الخيل والليل ونيران الصاعقة والعجلات المدمرة والمعطوبة وصيحات دراويش ليالي العرق والغابة والذاكرة والدم والنار.

خارج المنزل، يفقد الأعزل قوته، هويته، يصبح كشجرة مقتلعة في هذا العراء الأبيض. خارج المغارة، الكهف، الوكر، الليل الداخلي، الذاكرة، الجحر، تتدافع أسئلة المارة كسباق ثيران سان فيرمين في الشوارع الإسبانية حيث تركض الثيران المسكينة في الطرقات الحجرية وتسقط أو ترتطم بالجدران أو الراكضين، وينتظرها في النهاية الموت بطعنة سيف:

. كيف حالك مع هذه العزلة؟

. هل تشعر بالحنين إلى الوطن؟

. هل تحب البلدة؟

. كيف ترى الثلج؟

. الريح؟ الأشجار؟ الجبال؟ لماذا لا تذهب تتزحلق في الجبال؟ هل

عندك أصدقاء؟ ماذا تفعل لو داهمتك صاعقة عبر النافذة أو هاجمك

كابوس قديم، أو دم امرأة عابرة في سريرك، أو تعثرت بحلم صخري، أو دخلت عليك في النوم سيارة شحن سهواً أو قدراً، أو نجمة هاربة، أو باغتك عيد صيفي أو عرس عتيق وأنت في حالة حلم، أو هاجمتك رغبة وأنت في الحمام بدون لحم أو مرهم أو صورة؟

. هل ستسافر هذا الصيف إلى اسبانيا، اليونان، تركيا؟ الأردن مثلاً لأنه قريب من حدود بلدك وهناك تستطيع من شرفة فندق أن تحلم بوطنك؟ مثلاً، مثلاً؟

- هل تنام جيداً؟ تأكل؟ تضاجع؟ هل تفكر في الانتحار؟ الجنون؟ السقوط من فوق غيمة، أو كنيسة، أو مجرى ماء، أو حافة جبل؟

في مركز البلدة، في حفل عام، رغم الطقس البارد، وجدتهم يرقصون على أنغام الفرقة الموسيقية المحلية، الثلج يغمر المكان بنور فاتن، ذهبي، وعلى مقربة أمتار نوارس تطير فوق البنايات ورؤوس المارة والأشجار وأشعة القوارب الملفوفة. ماذا يفعل يتيم في أعراس المدينة؟ تذكرت قصيدة سان جون بيرس المراكب الضيقة:

(ضيقة هي النوافذ)



ضيق سريرنا  
ليدخل البحر من النوافذ  
للبحر وحده سنقول  
كم كنا غرباء في أعياد المدينة).

كل شيء كان يرقص على أنغام الموسيقى بما في ذلك الحجر  
والرصيف والأشجار والخليج الساكن، الثلج، والشرفات وعربات  
الأطفال والجبال والغابات والثلاب والمعاطف وأزهار النوافذ.  
كنت أقف على حافة الرصيف كما يقف جواد كسرت ساقه الأمامية  
أتأمل الوجوه بشعور كائن خارج من الغابة أو ليل داخلي طويل وفي  
القلب صدى خفي يبتهج لأفراح الناس في مكان يتجاور فيه العطر  
والطفولة والموسيقى والبرد والثلج والحرية والخليج والأفق والجبل والنهار  
والفرح والخبز والطريق والضوء.

شعرت، أنا الخارج، تواء، من رقصة الدراويش والرحم والقبو وحفلات  
موت الأشجار والكائنات، بأن القلب البشري، رغم الرماد المتخثر، قادر

على التفتح والضوء وممارسة البهجة، حتى على رصيف منفي بعيد.  
كنت أقول لنفسي دائما إن المنفى الحقيقي هو منفي القلب وعطب  
الروح وموت المسرات الإنسانية وغربة الذاكرة وانحطاط العقل وقتل  
الأشجار وخراب الجسد.

يدفعني المنزل إلى الشارع. يدفعني الشارع إلى النهار ورقصة البجع.  
تغريني الموسيقى بالضحك وقبول الوقوف مع المارة الذين وحثهم  
الصحو والنهار والنغم والرصيف والأمان ومشهد عربات الأطفال وطيران  
النوارس وثلوج جبال قرن الرمل وقرن الغزال وألوان الثياب وأضواء النوافذ  
الدافئة، المطلة على ميناء القوارب الملفوفة الأشرعة، والمتشابكة كغابة  
تتهياً للرحيل إلى جزر النور والصخور والخلجان المضيئة، كلوحة ملونة  
عن الأشرعة والصيد والبحر والحرية وجزر النور الضوئية.

داخل هذا الحشد، كبوم مذعور عالق في فخ، رأيت وجه مهدي  
أصفهاني الجندي السابق في اللواء المظلي الإيراني 55، الفرقة الذهبية،  
عدوي القديم يوم كان هذا اللواء يخترق مدينة خرمشهر أو المحمرة في  
نيسان 1982 وكنت أنا أحد جنود فرقة المشاة الآلية الخامسة التي

نقلت ليلاً، تحت المطر، والقصف، من شرقي البصرة إلى مشارف  
خرمشهر كقوة هجوم مقابل عبر جسر الشلاحة الممزق من القنابل.  
عندما رأني مهدي أصفهاني رفع رأسه كما يرفع طائر مذعور رأسه  
وهو يحاول الطيران أو الإفلات من القفص أو الشرك. كان ضائعاً  
ومتلاشياً ومدفوناً في الحشد كأنه يتوارى أو يهرب أو يخاف أو ينجل أو  
ينزوي في حفرة داخلية عميقة تحميه من هذا النهار الغريب والفرح العام  
الذي يصيب المحارب القديم بالخوف والاضطراب وعدم الأمان كما لو  
انه منذور للدخان وأضرحة الموتى والتشظي.

رفع يده في الحشد كغريق وهتف من بعيد:  
- تعيش أفريقيا.

عندها عرفت انه سكران ومنزعج من وجوده على رصيف لا تنبت  
فوقه غير الأزهار والموسيقى والأقدام الراقصة. فكرتُ في أنه سيعيدني إلى  
وضعي السابق، إلى وضع الأعزل، القبو، الرحم، الرماد، الهروب، وفرق  
المظليين وهي تزحف فجراً في غابات النخيل والألغام والموت والقنابل.  
اقترب مني. قال بلهجة عراقية:

. وينك عيني وينك؟ أين أنت؟

قلت وأنا أعرف أن مهدي أصفهاني عندما يسكر، يخلط بين الأسماء

والمدن والدول والقارات:

. ولكن لماذا أفريقيا؟

. كنت أريد أن أقول آسيا.

وزفر:

. كيف حالك؟

. كما ترى.

شرع يتكلم باللغة النرويجية:

. وجدت نفسي محاصراً هنا مثل كلب في جامع. كنت على وشك

البكاء. لماذا تجرحنا الموسيقى والهدوء والنهار؟ قلت لي مرة إننا صرنا

مخلوقات العتمة. هل يعني هذا اليأس والنهاية؟ لقد شوهونا.

قلت:

- اسمع مهدي. من الضروري أن نفترق الآن لكي لا ينقلب الحديث

عن معارك الطاهري وجسر حالوب وعبور الكارون وصواريخ أرض -

أرض والأسلحة الكيماوية ومحكمة العدل الدولية ومحكمة مجرمي الحرب

على أنغام هذه الموسيقى. دعنا نغادر أوكارنا السرية لحظات ثم نعود إلى الجحر.

قال ضاحكا بعمق أدهشني:

- ولكن إلى أين تذهب؟ أنت لن تجد رجلاً مثلي هنا. هل ترجع إلى القبو؟ هل تعتقد أنك عندما تخرج منه إلى الشارع تقطع حباله السرية؟ كلنا في البحر بعد غرق المراكب. تعال عيني نشرب عرق على دوي مدافع الفرقة الخامسة.

ضحك بانتشاء وهو يضيف:

- البارحة خرجت مع واحدة إلى منزلها من المرقص. في الطريق سألتني عن مهنتي السابقة فلقت لها كنت جنديا في لواء مظلي. صرختُ في منتصف الطريق وهي تقول كلمة واحدة...انزل...قلت لها: أين أذهب في هذه العاصفة والثلج والظلام؟ قالت: انزل قبل أن أبلغ البوليس. نزلتُ وهمت على وجهي طوال الليل حتى عثرت على الطريق العام في الفجر.

قلت بامتعاض:

- تستأهل. هل كان يجب أن تقول لها ذلك؟

. وهل أقول لها أنني كنت راقصا في الفرقة القومية؟ لا توجد عندنا

موسيقى كما تعرف.

- قل لها أي شيء. قل أنك رسام، شاعر، مدللّك، ولي صالح. هل

تعتقد أن العالم كله يفهم لغتنا المشوهة؟ نحن نتحدث عن مجازر ومشانق

ومقابر جماعية على مائدة الطعام.

اتسعت عيناه كعيني بوم مذهول:

- أنت مجنون؟ هل يبدو على وجهي أنني رسام أو شاعر أو ولي؟

ومن يصدق؟

تحول فجأة إلى اللغة العربية:

. وجوهنا كوجوه شياطين، لصوص، جلادين، لصوص. عيب يا

أخي. حرام عليك. تعال. تعال نسكر في حانة فردوسي.

حانة فردوسي اسم أطلقه مهدي على مقهى ومشرب دبلن بوب

Diblin Bub كما أطلق اسم شارع جهار مردم الشارع الرئيس في

مدينة قم على شارع ستراند كاته.

\*\*\*

أذكر يوماً في مساء خريفي هادئ وعذب عثرت، فجأة، وأنا قادم من شارع جهار مردم في قم، على أم فرات مع ولدها علي وابنتها الصغيرة في إحدى حجرات ضريح السيدة معصومة عام 1989 وكانت دهشتي كبيرة. هذه هي السيدة التي رمت مفتاح منزلها الواقع على نهر دجلة في الصورة في حقل مزهر وفاتن، عبر النافذة، إلى الداخل وخرجت إلى المنفى مع زوجها عبد الله الفاضل، لكي لا تجبر علي الانتماء القسري. كان ولداها فرات وفاضل قد هربا واختفيا منذ عام 1978. يوم اعتقلت في بغداد في مايس 1978 كنت أعرف محباً فاضل. عرفته على صاحب ورشة منزوية في منطقة الحيدر خانة فعمل معه. وضعوا كيساً في رأسي وقارصة كهرباء في خصيتي وعلى الوجنتين والحلمة والعضو والليل والغابة وأمكنة أخرى لكي أدلهم عليه. نسيت كل شيء بما في ذلك الورشة وفاضل واسمي وقمر دجلة الذي كان يشرق علينا من خلف بساتين النخيل والرمان والليمون ومساء الصورة والغسق الرماني القادم من خلف النجوم والأبدية. كنت أستحم بين أنياب قتلة ما قبل ولادة الضمير وعصر وحوش ما قبل الغابة.

يوم خرجت من السجن إلى المنزل وجدتني وحيداً في صخب  
احتفالات بطولات الوهم، أنا الذي أدخل وأخرج من السجن لحسابي  
الخاص، واحتفل بالنجاة من موت وشيك أعزل كعرس اليتيم. في أعراس  
اليتامى يغيب القمر كما يقول المثل العراقي.

نحن فقراء خرائب المدينة ممنوع أن نصير أبطالاً أو شهداء قضية أو  
موتى معركة مصير. عناوين البطولة محجوزة لأبناء الأعيان والعوائل  
المتفخحة بسلالات الحزب النقية التي يقال إنهم توارثوا الدفاع عن الحرية  
وهم في مرحلة الانشطار المنوي المقدس. نحن عناوين للإبادة وبيانات  
النعي والموت السهل كموت الحشرات في البرية.

قلت لأم فرات:

- ما الذي جاء بكِ إلى هذا المكان؟

- الذي جاء بكِ.

قلت وأنا انزف قرب عطر عباءتها كطفل يشم رائحة أمه حتى ما بعد

الموت:



- أليس غريبا أن نلتقي في هذا المكان بالذات؟ هل تعرفين أن السيدة معصومة هي ابنة موسى الكاظم شهيد السم، المرمي على أحد جسور بغداد، وقد جاءت لرؤية شقيقها علي الرضا بعد أن أكل العنب المسموم على يد جنود العسل الذين أرسلهم هارون الرشيد لكنها ماتت في الطريق ودفنت هنا قبل أن تراه ومات هو ودفن في مشهد في الضريح الشهير؟ الحكاية نفسها، أم فرات، والخليفة ذاته، القضية واحدة، وحكاية السم والثاليوم تتكرر. هل تغيرنا؟ هل جئت للموت هنا في المكان ذاته؟

على أضواء قباب الضريح، في الغسق الخريفي الذي يضاعف من الوحشة، وكثافة الشعور بالخيبة، على رائحة عطر سري ينبثق من العباءة السوداء، ومنه يخرج حقل مغمور بالشمس والنقاء والامومة، ونجوم، وبساتين، ومنزل مهجور على الشاطئ، وقمر صيفي يشرق الآن على مدن يركض في شوارعها طاعون بشري، قالت بصوت محبوس كفرس أسيرة:

. لو كنت أدري أن خروجي ينتهي بهذه الصورة، لحفرت نفقاً في الأرض وامت هناك إلى جانب الحقل.

قلت بصوت مجروح:

- لكن الحقل مهجور، الآن، أم فرات، والثعالب وحدها سيدة أزمنة الموت والعار، والفوانيس مطفأة. أنا أيضاً شعرت بطعم الفجيعة. لكن الحل، أقول لك أين الحل؟ لم يتركوا لنا خياراً. أين تنامين الليلة؟

ضحكت هي، فخرج سرب من طيور الغسق من حقول عبد الله الفاضل وانحدر في المساء العذب نحو غابات النخيل المعتمة تحت تلك القبة الفردوسية لسماء لم تكن لنا يوماً. قالت:

- أنا فلاحه، يا يُمّة، واستطيع النوم على بلاط الحضرة.

عند كلمة (يا يُمّة) شعرت بأني على وشك أن أجهش في نوبة بكاء مر، أو أركع في صلاة طويلة على هذا الثرى الطاهر حيث تحت كل بلاطة ينام ولي أو شهيد أو أمام أو صوفي.

قلت:

- لكن برد الليل.

- أنت تعرف بيتنا على الشاطئ.

- هنا عوائل كثيرة مطرودة من الوطن وأبوابهم مفتوحة لك.

- أنا لم أطرق باباً لهذا الغرض. أناام على البلاط بعباءتي أفضل.

- البنت؟ الولد؟ ابحثوا عن فندق.

- لم نجد.

قلت في جزع:

- كيف أترككم وأذهب؟ أنت تعرفين أنني خارج من السجن الإيراني

بعد تحقيق طويل لمدة سنة تقريباً وأناام في غرفة واحدة مع ثلاثة أشخاص

تعرفينهم جميعاً: الأول حسين عبد المهدي شيوعي هارب - سيقتل في

انتفاضة آذار 1991- والثاني أسير محرر، والثالث مطرود من وطن ولد

فيه سهوا. سأظل قلقا.

قالت باسممةً بحنان أم:

- لا تقلق. قد نذهب إلى بيت عائلة طيبة.

خرجتُ من الضريح وأنا أشم رائحة الموت في أصابعي. مشيت في

شارع جهار مردم ألعن كل طيور الظلام وأشعر بكلاب سود تركض

خلفي، وفي الهواء عطر مهرب خلصة يشع من عباءة سيدة هاربة في  
زمن الأشباح ومخلوقات العتمة وحفلات موت مرتجلة في الشوارع.

عندما التفت إلى الوراء، رأيت قباب الضريح تثقب ظلام الليل،  
فبزغت في مجرى الدم السري، من قيعان الذاكرة، من جذور الشجر  
والكائنات، من العتمة الداخلية والنور ومواكب طقوس الموت الكربلائي  
المقيم تحت الجلد، صورة هائلة لقمر أحمر على صفحة سماء مدينة قُم في  
تلك الليلة الخريفية المضاءة بعطر قبور شهداء زمن السبي الذي لا  
ينتهي.

داخل الغرفة، وجدت الثلاثة يشربون الخمر المحلي، على أنغام أم  
كلثوم، فصعقت. قلت في الشك والاضطراب والحيرة:

- كيف يحدث هذا؟ عرق في قُم؟ وموسيقى؟

قال الأسير المحرر بلسان رخو:

- اليوم خمر وغدا قبر.

قال المطرود:

- غداً أمر.

سألت:

- من أين تشتري هذا؟

قال حسين النازل من الجبل والخيبة مع مزهر النعماني وقاسم شريف

وغيرهم:

. توجد مصانع سرية تحت الأرض. هذه المدينة فوقها منائر وتحتها

معاصر. هذه هي طبيعة الخوف في المدينة الآسيوية. التناقض والكذب

والازدواجية. اسمع، أرجوك.

كان حسين منتشياً، ذابلاً، خارج كل مدارات المدينة، قابضاً بيده

على الجمر والغياب والحزن وديوان البياتي (قمر شيراز) وهو على وشك

البكاء والنحيب والصلاة والرحيل. راح ينشج بصوت تالف:

(كنا أطفالاً في الوطن الأم

نبني مدناً للحب.

أجاب الشعر . البرق . الموسيقى

آخر عملاق في معطفه يبكي

ويجف المطر

الأسباني على أشجار الغابة).

مع صوت حسين الناحب، الضائع، المخنوق، كانت المنائر والسيوف  
والقبايا والمقابر والأضرحة والمشائق وقمر قُم الأحمر والصفاف وموتى  
الحروب، السجون، روائح ليالي الجمر والحكايات، كلها تتقدم في هذا  
الليل الذي تفوح منه رائحة زهور بعيدة. كان حسين قد وصل إلى  
مرحلة الاختناق وهو يواصل الموت والقصيدة متأماً قمر المدينة المشرق  
فوق قبور العشاق، الشهداء، المنفيين الأطفال:

( قلت سلاما للبحر الأبيض

قلت سلاما للغابات

لكن المنفيين الموتى كانوا في كل مكان بالمرصاد).

لم يكمل. تداعى كما تتداعى شجرة صفصاف أو غيمة أو جواد أو  
عطر مرتبك هارب من ضفيرة تحنت بليلة مهر. خارج النافذة هوى نيزك  
مشتعل وسقط في عراء الليل. إنها رعشة الصوت. إنها رجفة النفي.

- تصبحون على خير وحكاية ومقبرة ومنفى ومجزرة وحقل محترق.  
قالها الأسير وهو يضرب الجدار.

نام المنفيون يا طيور المآذن على وسائد مبللة. لماذا تمطر وسائد هؤلاء  
الأطفال كلما هجعوا إلى النوم؟ في حين ينام الضباط الخصيان على  
وسائد من اللحم والحريير؟ كنا نحدق صامتين عبر النافذة إلى سماء  
المدينة. كانت أسراب الجثث المتروكة في العراء تتدفق إلى الذاكرة ومعها  
الغربان والنسور والصقور على صفحة سماء عارية من كل شيء إلا من  
عويل سري قادم من نجوم بعيدة.

قلت وأنا أدفن وجهي في الليل والوسادة والجمر:  
. وتصبحون على انفجار وطن أيها الهاربون من الغدر والجراد  
وزجاجة البيرة في الشرج وتعاليم البدو الخصيان وموت الشاحنة  
والكاتم والسم. تصبحون على انتفاضة غجر باعوا إمامهم للسيرك  
والسيف وقصر الخلافة. ناموا أيها القابضون على جمر المنافي على  
وسائد الحجر والريح والحلم.

في يوم ما، عندما يعود مناضلو وشعراء وحزبيو الطاولة والنرد  
والقبض والزار والحشيش، والصحف الصفراء، وعارضو أشجار  
ومنائر وأضرحة ومساجد وكنائس وحقول وقناطر وشهداء وجبال  
وسهول وطيور وخيول الوطن للبيع، عندما يعود هؤلاء إلى العراق  
سوف لن تجد أم فرات ولا عبد الله الفاضل ولا قاسم شريف وحسين  
عبد المهدي ولا الأسير والمطروود وغيرهم مكاناً فارغاً للنوم والموت  
والحلم على مائدة ذئاب تخجل منها حتى الذئاب.

\*\*\*

قلت يوماً ليوسف البابلي:  
. قد لا نجد يوماً وطناً أو حائطاً نتكئ عليه. سيحرقه ويرحل.  
وفي غمرة نشاف الريق والقهر والحزن المتراكم والغضب النبيل، قال  
يوسف:  
- هذا أحسن.



- لماذا، يوسف؟

- لكي لا نجد أنفسنا يومذاك غرباء مرة أخرى في وطن مستعار  
ومسروق. الجبناء على الأبواب كضباع الفطאים. هؤلاء في الانتظار.  
يومها بدل أن تُفتح أبواب الأمل، ستُفتح أبواب السجون وتحت  
أسماء ورايات جديدة. لن تتغير سوى العناوين والموت واحد. هذه  
النخب الفاسدة غير قادرة على إدارة مشروع التغيير الحقيقي. بس  
عاد حرقت روحي. وين العرق؟

\*\*\*

كلما سكر مهدي أصفهاني قال لي بلهجة مبطنة غامضة:

- كنت إذن تضاجع عايدة؟

- مهدي أخي لا تكن جحشاً. دعك من هذه الحكاية. سأقرأ لك

رباعيات الخيام.

أقرأ له بصوت عال:

(لا تشغل البال بماضي الزمان - ولا بآت العيش قبل الأوان - واغنم من الحاضر لذاته - فليس في طبع الليالي الأمان).  
يبدو منسحباً:

- لم تجب على سؤالي؟

- هل استيقظ العرق والتاريخ والدم؟ عيني مهدي، في كل غابة توجد عايدة. في كل غابة ثعلب. اشرب قبل أن يأتي عزرائيل. قل لي كيف نجوت من المحرقة؟

بزغ من عينيه لهب جندي هرم يواجه عزلته الوحشية. قال وهو يحرق عبر مرايا النافذة إلى هامات الأشجار:

- نجوت؟ هذه الكلمة لا معنى لها الآن. هل نجوت أنت؟

- ليس تماماً. أقصد كيف هربت؟

- كما هربت أنت. سلكت طريقك أنت عندما هربت من إيران إلى باكستان: زاهدان، تافتان، كويتا، البوليس، سجن كويتا، إسلام آباد، ثم السفر إلى النرويج. مفارقة غريبة أن نجلس هنا لكي نتحدث عن

حرب كان يجب أن يقتل أحدنا الآخر فيها، في الجبهة ذاتها، في الزمن ذاته. أين كنت عندما هاجمنا خرمشهر؟

- شرقي البصرة لكننا نقلنا ليلاً كقوة هجوم مقابل وعبرنا جسر الشلامجة فجراً بعد أن سقطت المدينة. كنا نعرف اللواء المظلي 55 وقد تحرك من ثكناته في تبريز في العمق متجهاً نحو خطوط القتال الأمامية.

- كيف عرفتم؟

قلت ضاحكاً:

- منظومة المعلومات الأمريكية كانت تعمل لصالح العراق وحرب النيابة. عندما أصبحتم خلف الساتر الأمامي قيل لنا حرفياً (يتأهب اللواء المظلي 55 لاجتياح المدينة) مع نبذة عن تاريخ اللواء ومقره في تبريز واسمه السابق وعلاقته بالقصر الإمبراطوري يوم كان في الفرقة الذهبية الملكية، ومعلومات أخرى عن الحالة المعنوية.

صرخ:

- حتى الحالة المعنوية؟

- نعم. عبرنا جسر الشلامجة بصعوبة بالغة لأن القصف المدفعي كان مركّزاً فوقه وكان الجسر محفوراً بالقنابل. كنت موجوداً في ناقلة من نوع

ب.ت.أر 60 من مدرعات اللواء الآلي العشرين بقيادة سائق مخمور  
عبر الجسر وهو يصفر. اشرب يا صديقي اللدود، الآن، واللعنة على  
الظلام والجسر والشاحنة والحرب والخفافيش والحبل وجمهوريات منتصف  
الليل.

\*\*\*

نهار أورستا مشرق والجبال بيض مثلجة، وصيحات النوارس تحرق  
جدار الزمن لتعيدنا إلى وجودنا الحقيقي على رصيف مسالم، جميل،  
هادئ، على نشيد جماعي كأنه ينبع من الحجر والضوء وعربات الأطفال  
والنوافذ والقلوب.

باغتني سؤاله:

- ماذا نفعل هنا، يا رجل؟

قلت:

- لا تفكر بالأوطان، كلنا أجانب على هذه الأرض. إلى أين ستذهب؟

ضحك وهو ينظر لأول مرة إلى الحشد:

- أذهب؟ لا أدري. هل تدري أنت؟ كم تبدو هذه الحياة الشاسعة

ضيقة؟

قلت:

- أنا ذاهب إلى المنزل. نلتقي في يوم آخر، وخدا حافظ، مع السلامة.

تركته يغوص داخل الحشد كغزال مداهم، أو صقر مكسور الجناح وهو يضرب بعنف أرض صخرية لكي لا يموت أو يخلق إلى سماوات الآمال الخائبة حين قذف بنا يوماً إلى أتون تلك النار حطباً رخيصاً من أجل النزوة والمكان والضعينة والسلعة وصراعات ديوك المال وعروش التاريخ وحجز كراسي لأمجاد مصنوعة من الدم والجنون.

ضاع في الحشد كأرنب في العشب. غرق مهدي أصفهاني في  
الموسيقى والفرح والرقص الدخيل كما غرق قاسم شريف، كما غرقت أنا  
ويوسف البابلي وآخرون على حافات هذا النهار الثلجي النظيف من  
المشقة والحرب والسبي وصواعق صحراء الموت والفضيحة.

فجأة شعرت بخوف مبالغت وفراغ ووحشة كطفل ترك وحيداً على  
رصيف مهجور أو محطة غريبة أو غابة مظلمة. اختفى مهدي تماماً.  
اختفى المحارب المظلي الذي انتصر عليّ في معركة خرمشهر في تلك  
الليلة الماطرة، وتساوينا في هزيمة معركة المنفى والذات والثلج وفي عدد  
القبور والخرائب.

عاد المنتصرون إلى المدن والأسرّة والشوارع، وخرجنا نحن إلى التيه  
خونة ومتمردين وصعاليك هذا الزمن المخصي حيث البوم وكلاب الروم  
وحدها في شوارع يركض فيها الموت وطاعون بشري أصفر وحوافر خيول  
ما قبل التاريخ. الموت في الطريق إلى السجون أو الحروب اختصاراً

للوقت. الموت، حرقاً، أو تذويماً أو نثراً في الهواء لكي لا تكثر المقابر  
والمآتم.

كان مهدي يمشي في الضباب كقمر شيرازي مقذوف إلى أقصى نهايات  
العزلة والليل والفضيحة.

\*\*\*

وجدتني أقف وحيداً فوق الرصيف وقد عاد الثلج إلى الهطول من  
جديد تحت مصابيح الشوارع بعد أن حط الغسق الثلجي على الكائنات  
والأشياء والقلب. غسق البوم وهو ينعق على حافة هذا المساء المجهول.  
غسق الهروب المتكرر في المدن الآسيوية. غسق نهايات الأشياء. غسق  
موت وشيك على مقربة من مجرى الرياح الغربية. غسق طالع من بين  
خرائب مدن مطاردة في السرير والحلم. غسق مضيء لا يصلح لخطوات  
رجل هارب يمشي في الشوارع كفراشة تضوي بوهج نور خفي.

عندما اشتعلت أضواء المساء، خيل إلي أنني أشم، تحت الثلج، رائحة  
عباءة معطرة بدخان موقد قديم أو شجرة رمان مزهرة أو أمسية خريفية  
قادمة تواء من قباب ليل خريفي بعيد، يشرق فيه قمر أحمر بلون الدم  
يمسح نفسه فوق بساتين البرتقال المهجورة التي تعوي فيها الثعالب.

\*\*\*

على عتبة الدار وجدت، كمتسول شريد ملتف حول نفسه من الثلج  
والريح ووحشة المساء، قلبي، كوردة حمراء منطوية على حافة جليد متوهج  
تحت نور ثلجي أزرق. باغتني، في ممر المنزل، رمل صحراوي قادم من  
لوحة عن صحراء رملية وتلال وقمر أشقر وجواد يمرق في الليل المشرق  
وقلاع وفوانيس ونوافذ مضيئة وعشب أسطوري مغروس في رمل يحرقه  
ضوء قمري ناعم.

بين الثلج وبين الصحراء مسافة باب. باب يفتح على الليل الثلجي،  
ويغلق على الليل الصحراوي. كما يرفع المرء معطفه أو حقيبته من



الأرض، حملت قلبي المنتظر عند العتبة ودخلت زمنا آخر. أنا الآن خارج المدينة والعاصفة والريح والثلج وهذا المساء الأورستي والأشجار والجبال.

أكلت بشراهة وعل جائع ومنهك. قلت لنفسي بسرور طارئ: الآن جاء دور الخمر والسيجارة والاستلقاء وغلق النوافذ وإسدال الستائر ورمي الطعام للغراب الذي ينعق في هذه الأصقاع الجليدية الضبابية كأنه غراب سفينة طوفان أو حكاية أو عقق كلود مونييه في لوحته الشهيرة. رميت له الطعام عبر النافذة، لكن الثلج طمره بعد لحظات. فكرت في أنني يجب أن اخرج لتسوية الأرض وحفر حفرة صلبة لوضع الطعام. فعلت ذلك بسرعة. حين عدت، كان الغراب قد كف عن النعيق وشرع في الأكل.

فكرت، تحت تأثير الخمر والتعب وعزلة المساء والثلج ومصابيح النوافذ، بأن الخسارات الفادحة يمكن أن تُعوّض على نحو ما، شرط أن يجد المرء نافذة للضوء والمسرات الإنسانية البيض والعلاقات البشرية الصافية، حتى في هذه العزلة التي هي هروب من فساد الأمكنة وموت

الحساسية. أن تختار العزلة شيء، أو تفرض عليك شيء آخر. في الحالة الأولى تكون العزلة مشعة إلى حد كبير، رغم قسوة الليل، والصمت، وصفير الريح في الأشجار، ونبث الثلج. في الحالة الثانية تكون إهانة. أنا اخترت العزلة تحت ظلال هذه الأشجار، على حافة خليج ضبابي في الشتاء، ومتوهج في الصيف، قرب قنطرة بيضاء وجدول مرور مياه الغابات والجبال والأمطار والثلوج ومجرى الرياح.

أفكر أحيانا أن العزلة ليست اسماً لمكان بعيد ومنعزل. العزلة هي حالة نفسية وليست مكانا فحسب. قد يكون المرء في عزلة موحشة وسط حشد من المارة أو الأصدقاء، وقد لا يكون كذلك في كهف أو دير منعزل أو غابة أو صومعة في جبل.

أستطيع الآن داخل غرفة النوم قراءة كل صحف العالم، واستلام البريد من كل مكان، الحديث مع من أريد، شراء وبيع وعرض وطلب واستشارة من أرغب عبر الانترنت رغم هذا الثلج والعاصفة المزمجرة في الخارج، وصوت الريح وهي تضرب الأشجار.

العزلة الذهبية هي الشعور المنزلز والسري والشفاف بأنك تمتلك جناحي صقر مخلق فوق هذه الأصقاع الجليدية، خارج مدار الكون والجاذبية وقوانين الريح وعلاقات البشر الفانين. هي الشعور المرهف بأنك لم تعد من الرجال الجوف، المحشوين بالتبن، لأن هذا العالم (لا يختتم بالضوء، بل بالنشيج) كما يقول اليوت:

(نحن الرجال الفارغون . نحن الرجال المحشون . نضطجع معا .  
أدمغة مملوءة قشا، ويا للأسف! . وأصواتنا الجافة . حين نتهامس فيما  
بيننا . كالريح في الهشيم . أو كوقع أقدام فئران على زجاج مهشم . في  
قبونا الجاف).

العزلة هي أنوثة الليل وعري الحجر. كل الكائنات تصير أنثى في لحظة عري بما في ذلك النجوم والحقول والجبال والسهول والصحارى والخيول والأشجار. خطر لي فجأة، في هذا المساء الجليدي عطر ضريح ورائحة عباءة وخيول كربلاء ودفوف دراويش بغداد ومنائر موسى بن جعفر، وموت سالم قرداش وعاشور، ومهدي أصفهاني وهو يمضي وحيدا هذه المرة إلى جحره كثعلب كسرت ساقه في مجرى ماء، أو صيد، وعزلة قاسم

شريف في الحشد والسرير والنساء والموسيقى والضجة والإيقاع الراقص  
كما لو أنه يريد الهروب من هاجس مقيم تحت الجلد وفي الدم كرمح غير  
مرئي، ويوسف البابلي تحت الثلج، بين الصخور ومصبات المياه،  
والتعساء الثلاثة في شارع جهار مردم الذين يسكرون في الليل ويصلون  
في النهار، اختفاء نرجس، موت يسرى، عري عايدة الخاطف كسيف  
فارسي يلمع تحت وهج ثلوج جبال البُرز، جثث مرمية في عراء ربيعي  
على حافة حقول خضر. جثث موتى الغازات. هؤلاء لا يموتون بل  
ينامون كأطفال سعداء لهدية مباغته وساعاتهم اليدوية تعزف موسيقى  
أعياد الميلاد. هذه هي أكثر أنواع الموسيقى التي سمعتها وحشية على  
تلك الأرض المفروشة بالغازات والمقابر والأحلام والملكات والعطور  
والزهور السود والأضرحة والمشانق والبرق القادم من أزمنة تتشكل تحت  
الصخر، تحت الجلد، تحت طبقات العتمة.

نظرت عبر النافذة مرة أخرى إلى الليل الأورستي لكي أعيد تشكيل  
الريح والشارع المقفر إلا من مرور شبحي عابر وسريع لرجل أو امرأة أو  
سيارة أو صاعقة أو كتلة ثلج أو شجرة أو صيحة أو جبل يتعري في

الضباب من صخوره وأشجاره وطيوره ويرقص على موسيقى هذا الليل الصريح، الواسع، كحلم شتائي لرجل يتأمل عبر النافذة مرور ظل، أو غزال، وعل، أو حكاية، جنازة، أو زيارة وحش، ذئب، أو قط بري متوحش، أو هبوط ملائكة، أو قدوم البرق.

الضوضاء، الضوضاء، وليس أي شيء آخر. هذه الريح التي تمر لا تحمل البذور والبرق والضوء وحبوب الصاعقة، بل هي ريح قاحلة كهذا الشارع. يبدو الشارع، كأنه سهل آسيوي مقفر إلا من السراب ولمعان الرمل والحجر ورشاقة ظلال الثلج الخفية تحت الأشجار والحيطان والأعمدة والشرفات.

فكرت على نحو غامض كيف نجوت، هذه المرة، من موت آخر غير موت الحروب والسجون والجوع والتشرد والبرد والفقر والمصادفة؟ كيف يمكن لطفل يتيم، في عالم قدر، ومتوحش، ومسعور، أن يتمسك بطفولته حتى النهاية ويقاوم الإعصار، الإغراء، الخوف، المنفى، ويخرج بجلده بأقل الخسائر في مرحلة تتحمل الكثير من الجنون، والكثير من الجرائم؟

كنت أرى صورتي منعكسة الآن على الريح، الغياب، والرمل، صورة  
طفل أعزل يقف تحت عمود نور أبيض، يتساقط فوقه ثلج أسطوري  
وهو يرنو للنهاية البعيدة لطريق لا يرى. لماذا الطريق الذي لا يرى هو  
الطريق الواضح؟

طفل يقف وحيداً عند مدخل غابة قديمة وعريقة في الليل والسحر  
والأشجار والحكايات وسلالات العشق والموت البطولي عند أقدام أسد  
أو عاصفة أو زلزال أو طوفان. لم يعد هذا الموت الطبيعي، الأسر،  
موجوداً في زمن الطلقات السريعة التي تختصر الاحتضار والموت، وقوفاً،  
كالأشجار.

هذه المدينة أعطتني الأمان والثلج والريح والحب والخبز والسرير  
والليل. هذه مدن لا تأخذ شيئاً. مدن تسكنها دون أن تسكنك. مدن  
لا تحلم بها أو تحلم بك. إنها محطات موقوتة لرجل مار في هذه البلاد  
الصقيعية وهو في الطريق إلى الهاوية أو الهرم أو نهار مخبوء في الطين أو في  
الرحم أو نار الصاعقة التي قد تأتي وقد لا تأتي.

أسئلة العزلة كثيفة ومتشابكة وعميقة وغامضة كلوحة فان غوغ على الجدار المقابل (**حديقة مستشفى في سان ريمي**) حيث تتمازج الألوان وتتداخل، الأصفر الشاحب والأخضر المتوهج وأغصان حمراء بلون دم مشرق، لتشكل في النهاية صورة فان غوغ الداخلية وظلاله النفسية أكثر مما تشكل جنينة سان ريمي التي لم تعد موجودة الآن إلا كلوحة عن الفرع الشقي.

كما تقول سيمون دي بوفوار إن الذين يتحدثون من أعماق وحدتهم، إنما يتحدثون إلينا. ليس هناك غير الأعزل والطفل والقلب المتوحد مع الليل والعاصفة والجدار والريح من يستطيع رواية الحكاية في زمن القتل.

خلف أشجار سان ريمي، وراء الجدار واللوحة، شارع مغمور بالثلج وعزلة المدن الجبلية وضوء ينسكب عليه من مصباح مشع ينهمر فوقه نثار أبيض هابط من سماء لا ترى. بدا الليل، رغم كل شيء، بهيجاً ومضيئاً واضحاً وضوح غابة مطرية في ليلة مقمرة.

على خلفية هذا الليل، الليل الشرس، الجميل، كجواد مستثار، هائج، الليل العاصف، ليل خروج الأيائل والوعول من الغابات إلى الطرقات، ليل قيامة الريح، وصوت ارتطام الماء بالصخور الرمادية أسفل القنطرة وعزلة الشجر، الغراب، الصوت، الرائحة البشرية، كنت أحاول أن افهم لغة جسد كان منزوعاً تحت قوة وحشية.

كانت التجربة صعبة أول الأمر. كان جسدي كجلد حيوان منزوع بقوة مدمرة وقاسية وبربرية. لم يكن جسداً، كان زياً أو جرحاً أو ثوباً مستعارة أو معطفاً واقياً من الريح والثلج والبرد والحجر والمطر. بصعوبة بالغة دخلت فيه. كان الدخول إلى جسدي، بعد كل تلك المحطات والفصول والمدن والحروب والسجون والمخاوف وحالات الموت والجنون الصامت، أكثر خطورة من الدخول إلى حقل ألغام أو عرين اسود أو وكر ثعابين.

أذكر جيداً كيف هربت من الخطوط الأمامية ودخلت حقول الألغام والأسلاك الشائكة في غابة قصب وبرد وضبب في الفجر بعد أن تخلّيت عن السلاح في حفرة وعبرت حقول الموت والخندق المائي الذي



فاجأني لأنه حُفر كفخ مستور للدبابات. قال لي الحرس الإيراني الذي أيقظته من النوم وهو في غاية الدهشة والذهول والذعر من خلال مترجم:

- كيف عبرت كل هذا الجحيم؟ كيف؟

قلت بصوت منهك وأنا ناقع بالماء والوحل والأعشاب:

- عبرته بسبب جحيم أكبر.

\*\*\*

عندما التقيت بجوقة الفارين من الحرب في السجون الإيرانية، سمعت حكايات عن تمرد الجسد المهان. روى لي ماجد كيف انه عبر الهور ونام فوق البردي والقصب من التعب والإعياء والنعاس والجوع وحلم بالفراش والعائلة والطعام والحمام والمنشفة والسرير والدفء لكنه كان يستفيق بين وقت وآخر حتى وجد نفسه على حافة أرض يابسة وبرجال بملابس عسكرية يحيطون به كأنه شبح انبثق من الماء.

روى لنا جواد كيف انه خطط طويلاً للهروب عبر ممر جبلي على مشارف مدينة مهران. لكنه بوغت بالوادي ينعطف نحو اليسار وبرصاص ينهمر فوقه من رابية عراقية لم يحسب حسابها، فصار يركض في كل الاتجاهات كفأر محترق إلى أن وجد الدرب في ممر حجري قاحل. أما حميد فلقد روى كيف انه كان يجب أن ينفذ فيه حكم الإعدام في الفجر في الثكنة، لكنه حفر نافذة الملجأ الخلفية طوال الليل وهرب قبل الفجر وعبر حقول الموت.

لكن حكاية اسماعيل الشيخلي هي أكثر هذه الحكايات إثارة: هرب هذا الضابط البحري من العراق إلى إيران. في سجن أهواز، الذي عشت فيه أيضاً، سيكون عليه أن يواجه إرهابين: إرهاب السجن وهو منزل كولونيل سافاك هارب. في المنزل سرداب أرضي لطقوس البكاء والعزاء الإجبارية ومراسيم الموت الطقسي وحفلات زيارة القبور بعد منتصف الليل كجزء من عمليات غسيل الدماغ ونزع شهوة الحياة والصلاة القسرية وعدم حلق اللحية وغير ذلك من أوامر مؤسسات سردابية. أما الإرهاب الثاني وهو الأشد والأمر هو إرهاب السجناء الهاربين.

مرة هجموا على عليه لأنه كان نائماً عند صلاة الفجر وهو أمر لا تفعله حتى الملائكة. نقل إلى سجن كهريزك في ضواحي طهران، فهرب إلى الإتحاد السوفيتي عام 1988، ثم قبض عليه وأعيد إلى سجن كهريزك، ومنها إلى كرج وهو مكان حجز وسجن في ضواحي طهران بثلاثين كم. هرب مرة أخرى إلى الإتحاد السوفيتي عام 1989 وقبض عليه ثانية وأعيد إلى السجن. في هذا الوقت كنت أنا أعبّر الحدود والغابات والصخور والسهول والجبال إلى الباكستان وسوف يقبض عليّ في قرية تفتان الباكستانية الحدودية بدون نقود ولا ملابس إضافية ولا أوراق عدا نجمة مسائية كدليل إلى المنفى.

قال لي يوماً ونحن نتمشى في ممرات مخيم أو معتقل كرج:  
- نحن خونة من وجهة نظر السلطة، ومرتزة من وجهة نظر إيران، وجواسيس للنظام من وجهة نظر المعارضة، ومرضى ومجانين من وجهة نظر انتهازية كل زمان. من نحن في اعتقادك؟  
- عشاق حرية.

- أمر محير حقا هو أن العراقي يستعمل مقاييس مثالية في كل شيء حتى وهو منحط. هل هي الازدواجية الشهيرة أم سخف المعايير؟  
قلت:

. مقاييس العراقي للتمشدد فحسب. هو جلاد ووطني، لوطي وصوفي، تافه وشاعر، انتهازي ومصلح، حساس ولطيف وصادق مع معارفه والدائرة القريبة ومحتال مع الآخرين لأن القواعد الأخلاقية لا تنطبق على هؤلاء كما يؤمن. ألم تجلس يوماً في حانة أو مقهى للمشردين والسكران والشحاذين والحثالات في الباب الشرقي أو حافظ القاضي أو ساحة الميدان بتعبير على الوردى وتسمع أحدهم يهدد الآخر قائلاً وهو مبقع بالقذارة:

- "لو لا هذا المجتمع الشريف، سأفعل بك كذا وكذا". هكذا يتم اختزال المجتمع بحفنة أراذل.

حكايات عن الهروب والموت والسلطة والمنفى والجسد والرغبة والحبل. لكن هذا الجسد في طوره الأخير، في صعقة النجاة والفرار والتفتح، في الأرق والمتعة واكتشاف الخسارات الفادحة، والزمن الذي ولى بدون حمّام

أو جسد أو حلم أو هوية أو عيد ميلاد حقيقي، هو الآن يتطلع عبر  
جبال قرن الرمل وقرن الغزال والثلج وصوت الرعد وسكون الرماد  
الداخلي، إلى أن يتفتح مرة أخرى حتى على حافة هذا الليل الجليدي  
الأبيض.

لم لا يتفتح ودفوف الدراويش موجودة، رقصة كاترين، موسيقى الريح  
تحت الأشجار والصخور، هذا السلام المصنوع من وحدة المطر والثلج  
والحجر والقلب واللون والبساطة ورعشة الروح؟ هتفت مرة ونحن نجلس  
على حافة البحر مع قاسم نشرب الخمر والشمس والنهار المفتوح على  
الأبدية:

- ليس بالرقص وحده يجيا الإنسان.

رد قاسم، منتشياً:

- ولا بالأحذية وعبور الحدود. شوف عيني لو أنت صحافي فرنسي أو  
ألماني أو إنكليزي يعبر ثلاثة حدود على قدميه من أجل الحرية لصنعوا  
منك أسطورة. لكنهم سيقولون عنك انك هارب من عقدة نفسية أو

بجثاً عن فرج أو شيء مثل هذا. هم جاؤوا بالجواز والتوصيات والرسائل  
والأموال وصاروا أبطالاً.

قلت:

- أنا لا ابحت عن البطولة بل عن الحرية.

كانت شمس بيرغن النادرة تغطي البحر. بحر يلمع بلون الفضة. على  
الرمال أجساد تبرق بالنور كحقل سنابل صيفي يتمايل مع الريح.

قال قاسم:

- نحن نعيش في زمن المصادرة العراقي. أنا لا أتحدث عن الأخطاء  
الإنسانية، ولا عن أخطاء إجبار الناس على الحروب والموت والصمت  
والكلام، بل أتحدث عن تأثير صورة مشرقة وتاريخ آخر على أنقاض  
قبور وجثث تركت مرمية في العراء أو في أحواض التيزاب. كما فسد  
الوطن، فسد المنفى. كنا نصنع تاريخنا بالجوع والرفض والهروب وعبور  
الغابات والتصوف النفسي والملابس الخشنة والسجون والنوم على حجر  
بلا حتى وسادة وترك مسرات العيش مع الأسرة وقبول المرض والمنفى  
والعوز. الآن صاروا يعبرون الحدود بسياراتهم ومفاتيح شققهم الجديدة في  
الخارج أو مهنهم الجاهزة ليصبحوا حكاما على عذابك. رغم كل هذا

النور والتداخل وغموض الصورة، فأنا لا أعتقد أن تأثيث تاريخ الفرد  
بمثل بساطة تأثيث مقهى أو ملهى. عدد من الكراسي، منضدة،  
مسجل، منفضة سجائر، وأغنية ومقالة عن المنفى أو عن الوطن. هناك  
ذاكرة الناس ومواقف الفرد. صحيح هذه مرحلة يقف فيها التاريخ على  
رأسه، لكن عندما يهدأ من رعونته يوماً، ستكون الأشياء واضحة تماماً.  
قلت، ضاحكاً:

- هذه هي الحقبة القردية. كل شيء فيها ممكن. لكن تاريخ الناس لا  
يتأثث كغرف النوم بالوسائد والأسرة الفاخرة وتدبيج المقالات ولا  
بالكلمات مهما كانت البلاغة والفصاحة. تاريخ الفرد يتأثث في ذاكرة  
الآخرين وفي سجلات ومعتقات ومواقف. لا شيء يذهب في الريح. لا  
شيء يأتي من العدم.

انقَضَ نورس صغير كسهم أبيض هبط من السماء على صفحة  
البحر، وحلق عالياً وذاب في الشعاع الذهبي لشمس تشرق على البحر  
والجبال والرمل والأشجار والمنازل الخشبية والأجساد المستلقية على  
الساحل كقطع ماسية تلمع تحت ضوء وهّاج.

بزغ، من فوق حقول البحر، من رائحة الطحلب والعشب والعرق والنور، هلال قبة الضريح في قُم، وامرأة عجوز في صلابة أمل راسخ أو شعاع قمري متسلل عبر ثقب في جدار، وهي تقول بصوت يشبه نحيب ناقة مهجورة على ضفاف الفرات:

- " لو كنت أدري، لحفرت ثقباً في الأرض".

من كان يدري، أم فرات، أن البرابرة سيتبعوننا إلى هذه المنافي القطبية ونضطر إلى وضع المسدس تحت الوسادة في دولة تمنح جائزة نوبل للسلام؟ من كان يدري؟

عاد صوت قاسم عبر البحر والمدى الأزرق:

- شوف عيني لا تزعل. هؤلاء سيكتبون التاريخ مرة أخرى، بل سيصنعونه. لقد أخذ التاريخ شكل البورديل.

- ولكن الإنسان لا يعيش بالكذب.

رد قاسم وهو ينهض كنسر يهم بالطيران فوق البحر:



. وبالنفاق، والتزوير، والانتهازية، والغش، والرياء. هل ستعود إلى

أورستا مرة أخرى؟

. طبعاً. أين أذهب؟

. والغراب؟

. موجود.

قال قاسم وهو يرمق البحر بنظرة طويلة قبل أن يستدير:

. غراب وثلج وعزلة وكوابيس وحرب.

قلت بمرح:

. وخمر وكتب ولوحات وموسيقى وجنس وخليج وغابات. أورستا

مدينة مسالمة لا تأخذ شيئاً. في بيرغن، كما في طهران، كما في إسلام

آباد، صار الناس يرددون الجملة المهينة " هذا الدكتاتور مناسب لكم "

أنت تدري جيداً، يا قاسم، أنني أصاب بلوثة عقلية ونفسية عندما اسمع

هذه العبارة المخيفة. الدكتاتورية ليست فرداً، بل هي وباء متجول تحمله

الضحية في كل مكان دون أن تعلم. إنها سلوك وعقلية وطريقة تعامل

ولغة ومقاييس وتشكيلة واسعة من القيم.

قال قاسم بضيق:

- لكن العزلة ليست حلاً؟

- ماذا يفعل إنسان أعزل غير لعق الجرح في مكان بعيد؟ تعلمت ذلك من الذئب الجريحة. حدثتكَ يوماً عن قريب لي اسمه ثجيل وهو راعي جاموس طلب من زوجته أن يموت بصمت وهدوء ويعبر الاحتضار بدون مراقبة أحد. مات ثجيل وحيداً في البرية كالصُبَّار، أو صقر بري.

غيوم رمادية أقبلت من النهاية القصى للبحر. قال قاسم وهو يحرق في المساء البيرغني القادم من حافة النجوم والعشب والموج والعطر:  
- كنت أتمنى لو أتحمّل مثلك.

صحت وأنا ارش عليه الماء:

- من حلم الثورة السياسية إلى الثورة الجنسية. من أقصى الالتزام إلى أقصى العدمية. من ماركس إلى راسبوتين. من عشق الطبقة إلى عشق السرير. لا توجد عزلة في هذا الزمن. العزلة، قلت لك هذا مراراً، هي روح. والآن أين نذهب يا كركي جبال قنديل؟

- على قمة جبل نواخين أو مقهى ومشرب كراند كوفيه أو نهد عذراء

بيرغنية.

- هل توجد عذراء هنا؟

- كالذهب في النخالة.

كان المساء الاسكندنافي يزحف فوق البحر والجبال والعطور والمنازل.  
قاسم في مشيته المتمهلة، الصامتة، الحزينة، كمشية صقر هرم، يلتف  
حول جسده كوردة تلتف حول عطرها في العتمة. كان يمشي خارج  
البحر والرمل والنجوم التي أخذت تتلألأ في سماء بحرية مفتوحة كشرع  
مراكب قراصنة الأزمنة القديمة.

نخترق الليل كجرحين رشيقين فوق الطرق الحجرية، وعلى ضوء نجمة  
مساء تشرق الآن على براري صيفية بعيدة، طليقة، معشبة، تفوح برائحة  
مساء آخر.

\*\*\*

مرّ في الشارع الغائم والضبابي والعاصف، عبر النافذة، شبح سريع ثم  
تلاشى في الليل والمنعطف والعاصفة. اخترقت مصابيح سيارة كتل الثلج  
والعاصفة والأشجار وعتمة الليل. القنطرة المستلقية على الجدول، بدت  
في هذا الطقس الضبابي، كلوحة بيضاء عن قنطرة حجرية فوق ممر

صخري غير مرئي. كان اللون الأبيض يكسو كل شيء بما في ذلك مصابيح الشارع التي تلوح الآن مرتجفة في فضاء بدائي لم يعد قائماً على الأرض اليوم. فضاء المكان الضاح بالريح والنوافذ والصمت والأيائل ونعيق غراب الغسق الثلجي الأزرق وهو ينعق على أطلال عزلة آخر طفل عراقي يحلم، تحت النور، وتحت الثلج، وحيداً، بالغابات والأنهار والحقول المسائية ومواسم فرح الخيول في ربيع قادم.

( آخر طفل في المنفى يبكي).

خيل إلي، في التأمل وصوت الريح، بأني أسمع صوتاً عبر الجدار. قد يكون ملاكاً أو ذئباً أو جرحاً قديماً أو وحشاً أو صاعقةً أو جنازةً أو أغنيةً أو حذاء قافلة إبل أو صفيح باخرة أو قطار.

لا، لم يكن كائناً أو حيواناً، كان المطر قد بدأ يضرب، منحرفاً، جدران المنزل، وقد توقف الثلج عن الهطول واشتدت العاصفة الرعدية. شعاع طويل لسيارة مرق عبر المطر والريح والأشجار والقنطرة وضوء مصباح الشارع الذي يلوح لي الآن كشمس حمراء غارقة في الضباب. لو أن

أحداً التقط لي صورة تحت هذا المطر النازل، تحت عمود النور، بين الثلج، والقنطرة، والريح، والأشجار البيضاء، في معطف مطري، وقدمها لي في مدن صيفية بعيدة، لما صدقت الصورة.

هل هذا هو ليل المنفى وعمود النور والمعطف والوجه الشاحب وأمطار جبال الثلج، وغيوم القطب، وصيحات طيور البلطيق، ونيران غرباء الليل، التي تحدث عنها شعراء المنفى العراقي؟ شربت كثيراً فخرجت إلى الشارع لكي أطرق الباب على نفسي. عبرت مسافة الممر بين الصحراء والثلج، بين الرمل وبين المطر. لم يفتح لي أحد. خيل إليّ أن قطاراً قادماً من صحراء بعيدة يصفر في هذا الليل الموحش، وأغنية جنوبية حزينة عن قطار مندفع في سهول خضر، عن قطا، وقهوة، ورائحة هال، وخفق أجنحة وسنابل وحببية نائمة في الليل.

في خليج أورستا الضبابي، كانت باخرة تصفر. باخرة وقطار ورمل وثلج وصحراء وأغنية وقطا وسنابل وريح ومطر وعاصفة ورائحة قهوة

وعمود نور وقنطرة بيضاء وشارع ثلجي يشبه إلى حد ما لوحة موريس  
أوتريو ( شارع تحت الثلج) لكنه أكثر قفراً في هذا الليل، أكثر عتمةً.

رن جرس الهاتف وأنا خارج الباب. عدت إلى الداخل.

قال لي صوت بعيد:

- في القبو أم في الحرب؟

- كنت أطرق الباب على نفسي.

صرخ قاسم شريف عبر الهاتف:

- ماذا؟ اللعنة. هل من شيء؟ هل أنت...؟

قلت بصوت هادئ :

. لا، لا، يا خوية. على كيفك. أنا الآن رجلان. واحد يتفسخ ولا

يموت، والآخر طلق بلا ولادة. هل نمت مع علبة الرماد؟

- اللعنة. هربتُ في الليل مثل كلب. أنت تعرف انه لا يوجد في هذه

البلاد كلب سائب أبداً لأنه يقود صاحبه إلى البوليس. هل قلت انك

الآن...ماذا قلت؟

- لا شيء. كيف حال الجو؟

رد باقتضاب:

- كئيب وممطر. لو كنت مكانك، لعشت بطريقة مختلفة.

- كيف؟

قال قاسم جاداً:

- بدون فيلم، بدون قبو، بدون مهدي أصفهاني، بدون غراب. حاول

أن تخرج إلى المسرح بعد كل هذه العزلة.

قلت، ضاحكاً:

- المسرح؟ تركته للكلاب والأوغاد والأراذل والمخانيث والمخصيين

وباعة الوطن والضمير والجسد والبرابرة الجدد. لا أحتاج لمن يغفر أو

يتضامن. أنا الآن حر، يا قاسم، حتى منك، ومن الطموح، والخوف،

والانتظار، والاحتمال، والهاجس. شيء ما يجري نحو الشمس. آن

الأوان لهذه الإقامة في الماضي أن تنتهي. لنحرق في الآتي كما يحرق

صقر في فريسته.

- نحن لا ندخل المستقبل في حساباتنا. بل لا نعرف ماذا سيحدث

في الربع ساعة القادم.

قلت:

- أين ستذهب الآن؟

قال في غموض:

- لا أدري. أفكر في مصير غرابك.

- نحن نبحث لنا عن شركاء في هذا المنفى. ماذا أفعل به؟

- أي شيء. كيف يمكن لإنسان عاقل أن يعيش تحت مراقبة غراب

دون أن يشعر بأنه في رحلة طوفان؟ كيف دربته على هذه الكآبة؟

أكلمك الآن من أمام تمثال هنريك أبسن. هل تذكرته؟

- طبعاً، أمام مقهى الأوبرا وبناية المسرح.

- طيب. هل أنت مرتاح؟ سكران يا مدلل؟ كاترين؟ نتاليا؟ لحم

شهبي؟ بس غراب؟ كل شيء إلا الغراب. مرّت الآن قافلة من البجع

الأبيض الملائكي. سرب من كراكي متوهجة. إذا لم أجد امرأة أنام معها

الليلة، فسأنام مع الخيال. وأنت؟

قلت:

- سأنام مع الذاكرة.

صرخ:

- هذا هو الفارق بيننا. الخيال خلق والذاكرة استعادة.



- لا توجد استعادة حرفية يا أبو النسوان والأحلام المجهضة بالقرب  
من صاحب البطة البرية - مسرحية أبسن - أشعر وأنا أكلمك الآن أن  
جداراً بيننا.

قال قاسم بصدق طفولي:

- أنت تتحدث من عزلتك وأنا أتحدث من الضوضاء. ألم تردد قول  
اليوت: (هذا العالم يبني بالشيخ، لا بالضوضاء؟) مع السلامة.

على عمود النور وقف، بعد توقف الثلج، نورس يزنو نحو النافذة  
وهو يتأهب للطيران صوب الخليج الساكن الذي يلوح مقفراً براقاً كأرض  
سراية بدائية موحشة. كان مشهد الطائر فوق عمود النور مثيراً ومبهجاً  
وعلامة على أننا فوق أرض صلبة ولسنا في متاهة أو قارب فوق أمواج  
البحر.

يوم كان كلود مونييه يرسم لوحته عن حقل أو حديقة في الجليد،  
وكان المشهد ساكناً ورمادياً، وموحشاً، جاء عقق ووقف على باب  
الحقل، في اللحظة التي كان فيها الرسام، عبر الثلج والعزلة والسكون،

ينتظر قدوم شيء ما، وعلى وشك الانصراف. أطلق على لوحته اسم العقق.

أجمل شيء، في العزلة والثلج والسكون والترقب، هو قدوم شيء غير متوقع. شيء مبهر ومثير وجميل، في الوقت الذي يكون فيه العالم ساكناً، بدائياً، موحشاً، والأرض تتشكل.

طار النورس فوق الشارع المقفر، وانحدر نحو مداخن بيوت تبدو الآن في الضوء الليلي الناعم، كأكواخ مضاءة بنور عائلي دافئ وحر وآسر. قد تكون أضواء شموع أو مصابيح داخلية هادئة الإنارة. كان الشارع يبدو، بعد توقف الريح الثلجية، غارقاً في صمت أخرس.

هذا هو السر الذي يجعل ضوء مصباح قنطرة أو حفيف أجنحة النورس، أو النور المنسكب الخافت المنبثق من داخل النوافذ، أو حتى سكون الأشجار المتشابكة، ضاجاً، في صمته الداخلي.

الآن لم تعد أشجار الدردار والصفصاف والزعرور والقبب واضحة لأنها مكسوة بالثلج. لكن خرير المياه الجوفية، وصوت المطر وهو ينهمر

على الكائنات، من أقوى الأصوات والمشاهد في هذا السكون الليلي  
العاري على تخوم هذه المدن الجليدية.

مرّت الريح، الآن، من فوق القنطرة، ورأيت على نور الشارع، كتلاً  
ثلجية تتطاير كأشباح بيض في هذا الليل القريب من حافة القطب. على  
الجدار، تشرق الآن لوحة فان غوغ (حديقة مستشفى في سان ريمي). لم  
أكن قد رأيت بهذا السطوع المخفي زرقة فتحة صغيرة في السماء وزرقة  
ساقية تجري تحت أشجار ملتحمة، متراسة، ممزوجة باللون والعطر  
والأزهار وكثافة هذا المكان الذي يعكس عمق اضطراب فان غوغ وقلقه  
الروحي. هل كان الرسام يضع قلبه على شجرة، كما أضع قلبي الآن  
على عاصفة ثلجية وأنا أحرق في وجهها بلون الدهول؟

تبدو الأرض، الآن، كما في أول يوم، خربة وخالية وعلى وجه الخليج  
ظلمة ناعمة هي ظلمة بدايات نشوء الكون قبل انبثاق النور على  
اليابسة وانفصال الليل عن النهار، والمساء عن الصباح، قبل خلق البهائم

والطيور والوحوش والكلاب والجلادين والحروب والسجون والثكنات  
والمنافي.

هل قُذفت إلى هذا العراء الوحشي لكي أولد أم لكي أموت قريباً من  
طرق الرياح وتيارات النجوم والضوء ورحلات السنونو؟ هذا الشارع  
المقفر، هل هو طريق أم رحم؟ هذا السكون الثلجي هل هو الضجة  
السرية للصاعقة أم ماء قبل الولادة؟ هل هو الضوضاء أم النسيج؟ عاد  
مرة أخرى صوت البيوت على صوت الريح:

(هذه هي الأرض الميتة . هذه هي أرض الصبار . هنا تنتصب صور  
الحجر . وهنا يلتقون . التوسلات من يد إنسان ميت).

على هذا الهدير المزجر في الداخل والخارج، على صوت الريح وهي  
تعبر القنطرة، أو تمشي تحت الدم، أو تزحف تحت الجلد كنمر مصاب  
بطلق ناري قاتل، كنت أنظر إلى الشارع في انتظار ظهور أحد ما، على  
هذا النسيج الحزين، الأزلي، وهو يعني الأرض:

(هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم

هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم  
هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم  
ليس بالضوضاء، بل بالشيخ).

في الهواء رائحة عطر مشوي، كما لو أن جسداً يتفسخ قرب مصب  
الليل، وآخر يتكون عند مدخل نهار. هل أنتظر قدوم العاصفة، موكب  
الهواء الصافي، زرقة النجوم والبحر، زيارة وحش أو ذئب أو حلم منسي  
أو جثة هاربة لكائن أراد أن يشعل قلبه حباً، فأهدوه قبراً أو حرموه حتى  
من القبر؟

شارع قاحل إلا من الليل وعممة أنوار داخلية عبر النوافذ. خلف  
المنزل، يبدو جبل قرن الماعز مغروساً في الضباب اللين المهتز، والخليج  
مغمور بعممة البياض وسكون الماء. قد يكون هذا هو الفراغ البدائي قبل  
خلق الأرض، الفراغ التكويني، فراغ قبل الانفجار الكوني، قبل خلق  
الأشجار والجبال والمعابد والمدن والحيوانات الوحشية والسهول والثيران  
والماعز والسجون والثكنات والقصب والآجر ومعتقلات الموت.

كنت أهدق في عين العاصفة، وألق الثلج، في انتظار ظهور نجمة أو شاحنة أو طير أو وعل أو قارب أو جوقة من الملائكة الهارين من العزلة والليل والعاصفة والعتمة.

الشارع مغمور بنور شفاف يلوح كأنه ينبثق من الثلج لا من المصابيح والغرف المسدلة الستائر. هذه هي اللحظة التي يتلع فيها الليل المنازل ويهبط، كطائر أنهكه طيران طويل، فراغ وحشي يستلقي على طول الشارع.

من هناك، من نهاية الظلمة، والغمر، من الفراغ البدائي الموحش، من برق الثلج، من الدهول والاختلاط والتداخل والفراغ الضاج، ظهرت قامة بشرية كروح على وجه هذا السكون الليلي الأبيض. قامة في مثل رشاقة صنوبرة أو قنطرة أو سارية أو قارب نهري نحيف أو شرع سفينة تبحر في هذا القفر الجبلي الساكن.

مع اقتراب القامة البطيء، وانبثاقها التدريجي من العتمة الموحلة، في شارع كسهل آسيوي قاحل ومرتعش بالضوء والسراب، ظهرت بصورة واضحة معالم مشية امرأة قادمة من قلب عزلتها الداخلية وعريتها الموحش والبدائي كلبوة محبوسة داخل المطر والغريزة والشهوة وصراخ الدم وموت الغابات ودوي الرصاص وهجرة الغزلان وجفاف السواقي وصدأ السرير وعزلة جسد مشتعل رغم البرد الجليدي.

قذفت العاصفة، قذف الليل، الفراغ الوحشي الصاخب، هذه القامة العارية داخل معطفها المطري، إلى عرين رجل كان قبل لحظة يكلم الأبدية والآلهة والنجوم والمياه والوحوش والجلادين وطيور الثلج المتصادمة في العتمة الصلبة والمتوهجة.

قامة في الريح، كرمح بابلي يخرج من تحت التراب والصدأ والزمن والحجر والثلج، يلمع، الآن، على ضوء مصباح القنطرة، كعربة ملكية تجرها أسود أو وعول هاربة من القتل أو صوت عاصفة داخلية سرية

تزحف تحت الجلد. هل أنا مثل أم في حلم؟ هل هي امرأة متخيلة أم  
قادمة من قلب هذه الرواية؟

كغزال مداهم، نظرتُ عبر الواجهة الزجاجية إلى الوجه القادم من  
الغبار والموت والرماد والقتل. ركضت، فرحاً، على صوت يسرى وهي  
تدق الباب كما كانت تفعل في أيام قديمة. حملتها بين ذراعي كوعل  
صغير وأنا أطوف بها الغرفة.  
- هذه أنت؟

- نعم أنا، هل أنت حي؟

- حي؟ أنا لم أمت، يا يسرى. إنهم لم ينتصروا إلا على السراب.

- كنت تنتظرنني؟

- وقبل ظهور اليايسة.

خلعت معطفها المطري عند مدخل الباب وهي تتأمل صورة صحراء

الرمل. قالت وهي تحدق في كثمان الرمل:

- أنا الآن في الصحراء العربية.



قلت، مازحاً:

- أغلقتي الباب قبل أن يأتي البرابرة مرة أخرى. كيف نجوت من القتل؟

ضحكتُ وهي ترفع شعرها لكي ينشف من المطر:

- ألم تقل لي في البصرة "إن هذا النوع من الحكايات لا يموت بعد

القتل؟".

جلستُ على أريكة قرب الواجهة الزجاجية وكنت أتأملها وهي ترنو

إلى الشارع الساكن، المقفر، المثلج، وهي تردد:

. هذا جحيم أبيض. كأننا فوق كوكب مفرغ من الزمن. هل شربت

كثيراً؟

. أكثر مما يجب. كنت أنتظر ظهور شيء أو أحد. لكن أين آثار

الرصاص في جسدك؟

قالت وهي تشرب نبذاً بلون الجمر:

. الرصاص يقتل الجسد. أنا حكاية. سمعت أن احد الذين أطلقوا عليّ

الرصاص هناك، تبعك إلى هنا وهددك بقتلك في هذه العزلة رغم كل

هذا الموت والمنفى والنزف اليومي؟

قلت:

- من قال لك ذلك؟

- عرفت ذلك.

قلت مندهشا:

- كيف عرفت أنه هو الذي أطلق عليك الرصاص؟

هزت رأسها بألم:

- القاتل واحد في كل زمان ومكان. كيف نسيت ذلك؟

- أوه.. كلا.. لم أنس. هذا قادم من زمن السبي والغنيمة والوحش. هل

شربت قبل الآن؟

قالت يسرى وهي مصممة على الماضي في هذه الحكاية كما لو كانت

هاجساً مرأً:

- شربت قبل المجيء. بعد كل تلك الحروب والسجون والحدود التي

عبرتها والمنافي الموحشة التي عشتها، بعد كل ذلك البحث عن الحرية

والأمان والكرامة والعزلة، يأتي شخص خلفك ويهددك بدخول المنزل

وبالقتل أنت الهارب من القتل؟ لا تحاول أن تتجاهل هذه الحادثة

وتدفنها في الداخل كما تفعل دائماً بدافع الكبرياء. هذه وحوش مكانها الغابة أو المسلخ أو جحور الأفاعي والعقارب.

قلت:

– أنت تعرفين جيداً بعد موتك وخساراتي، أصبحت مستعداً لاستقبال أي جلاد أو وحش أو جنازة أو عاصفة. أرجوك أغلقي هذه القضية. أنا الآن طليق كأفق. دعي كل شيء الآن، ولتبدأ حفلة عنقاء الرماد.

قالت مرتعشة من الغيظ والظعن:

. كنت أريد زيارتك من زمان لكني ترددت من قدوم القتلة هنا ليس خوفاً بل أخشى من التدنيس. عزلتك محراب عبادة أو كنيسة أو صومعة للصلاة والتأمل أو رحم للولادة. أعرف أنك كنت تريد تطهير الطبيعة في أصغر عناصرها، ومسكون بهاجس عشق الكرامة البشرية، لذلك تحملتُ القتل من أجلك.

– كيف يمكن تطهير الطبيعة، يسرى، في عالم شديد الغرابة والوحشية؟  
– أنت تعرف كيف. التأمل والبراءة والعزلة وحيوية العقل وممارسة اللغة حتى لو كان الثمن العزلة أو الموت. كلانا دفع ثمناً: أنا الموت وأنت

المنفى. أي أنهم، كما تردد، لم ينتصروا إلا على السراب. هل تدري؟  
بعض الذين أطلقوا عليّ الرصاص وقذفوني في النهر، وجدتهم هنا يحملون  
وجوها أخرى؟

- أقنعة؟

قالت يسرى وهي تتفرس بي كما لو أنها تخشى من شيء:  
- أنت، أنت، كما عرفتك. والآن لنحتفل بانتصار القلب على زمن  
القتلة.

وضعتُ اسطوانة بحيرة البجع لجايكوفيسكي في الوقت الذي عادت  
فيه العاصفة الثلجية إلى الزئير في الخارج، وتلاشت من الشارع تلك  
الوحدة البدائية الموحشة بعد نزول يسرى في هذه الأصقاع الجليدية  
المغمورة بالليل والثلج والعزلة ورائحة جسد في رقة الشفق وصلابة الحجر  
ورعشة طائر البطريق قبل هبوب العاصفة.

كانت يسرى تجلس، الآن، هادئة، وقد زال منها التوتر الذي يصيب  
طائر البطريق قبل قدوم الخطر أو العاصفة أو الموت.

قالت وهي تتأملني بهدوء مطمئن:

- لا أدري من أين لك هذه المظهر القاسي وأنت كفراشة ولدت، توأ.
- دعي هذا الكلام، يسرى، ودعي جسدك يخلق.
- مشكلتك انك تعيد حكاية الأمير مشكين، أبله دوستوفيسكي.

هل قرأت الرواية؟

- طبعاً. مشكين متورط ببراءته، يسرى.

قالت بعد أن شربت كأسها بهدوء:

- البراءة ورطة.

- البراءة وحل في عالم الأقنعة والوحوش ونمل والروح.

- والحل؟

قلت، قاطعاً، وأنا أشرب نخب يسرى صائحاً بمرح طفولي:

- نخبك يا سيدة النهار العراقي وزهرة سنوات الفولاذ. إلى الجحيم بكل

كلاب البرية. الحل؟ الحل هو مواصلة البراءة حتى لو كان الثمن هو

العزلة أو الجنون أو الموت.

- حدثني أرجوك عن عبور الحدود. أليس رائعاً أن تسافر بلا جواز أو

أوراق ولا حقيبة؟

قلت:

- وينتظرك شرطي وسجن قذر بعد كل تلك الليالي واختراق الغابات والصخور والمخاوف والبرية الثلجة ومصادفة الجنون والمهربين القتلة والجبال العارية إلا من حجر مسنون يمزق الجسد وعلى ضوء نجوم بعيدة كما لو كنا مجوساً. أذكر جيداً كيف سمعت في الفجر وعلى حافة جبل بين الحدود الإيرانية، الباكستانية، كلباً ينبح. كانت تلك هي علامة الحياة الوحيدة في ذاك النفق الوحشي.

قالت يسرى:

- وكنت ترتدي قميصاً خفيفاً في طقس جليدي. هل كنت تتصور أن الطقس سيكون أفضل؟

- السبب بكل بساطة هو أنني لم أكن أملك غير ذاك القميص الذي طرزته يداك في الفندق. كنا خارجين من سجن إيراني إلى السجن الباكستاني، وقبلها من سجن عراقي إلى حرب، ومن سجون الفقر والحرب والطبقة والجاه والعوز والجهل وحروب الأحزاب والجنرالات الهمج والساسة البلداء ومحاولات تدمير وسرقة العراق. لكن أكبر وأفظع وأقدر جريمة تعرضت لها هي عندما صار قاتلي يحمل وجهي. ارتداني قناعاً وتاجر بي حتى في هذا الجحيم. أنا قتيل كالعراق والقاتل واحد.

كان المنفى في الماضي شرفاً، الآن صار عاراً. أنت، يسرى، تتعمدين إثارتي بهذا الشكل وأنا أريد أن أنسى. أنا جئت إلى هذا المكان كي أنسى أو أموت أو أولد من جديد أو أجن.

قالت ضاحكة وهي تخلع بلوزتها الرمادية:

. أنا قابلتُك. هل تفهم؟ كي تولد، أنت بحاجة إلى قابلة. لكن الوقت

لم يحن الآن. يجب أن تروي الحكاية كلها منذ البداية.

صرختُ بطريقة عفوية:

- منذ البداية؟ صعب جداً. هل تسمحين لي بشيء من خمرتك؟

- تفضل.

شربتُ. كان المذاق عذباً لذيذاً منعشاً. قلت وأنا أشرب كأساً أُخرى:

- من صحة عشتار الزمن الجديد.

هتفتُ بمرح:

- في صحة عابر الحدود الآسيوية وخلجان الفايكنغ وحروب الديوك

والمطارد من قبل كل كلاب التاريخ. لماذا يطاردك هؤلاء الأوغاد؟

قلت:

. هذا السؤال وجهته يوما للمغني الأمريكي دين ريد خلال زيارته إلى بغداد، وكنت خارجاً من السجن، تواءً، وكان هو مقيماً في عام 1979 في برلين، في لقاء في فندق منصور أميليا:

" سيد ريد، لماذا يطاردك هؤلاء؟ أجابني، ضاحكاً: لأنني أسرق التفاح"

- وهل تسرق أنت التفاح؟

- نعم، يسرى، لقد سرقتك وكانت هذه السرقة رمز الخروج من الجنة.  
قالت فرحة:

- من أغراك؟

- أنت. أنا متهم بخطفك.

ضحكتُ بامتلاء عميق وساخر، قائلةً:

- مع ان الأمر كان عكس ذلك لكن شرف القبيلة أهم من قلب امرأة.  
أضافت بصوت عذب وحزين:

- هل تدري أن دين ريد قتل في حادث سيارة غامض؟

- أعرف. إذن أنتِ جئتِ إلي كي أروي لك؟

قالت بسرور:



- قرأت ألف ليلة وليلة. هل تحب شهر يار؟

- أبدأ. إنه رجل سلطة فاشي.

- وشهر زاد؟

- شهر زاد هي انتصار الحكاية على السيف. هي انتصارك. تمرد النص

على السلطة. والآن كفي عن ذلك. أليست لك حكاية من عالمك

السفلي؟

قالت، واقفة، كشجرة سرو، مشعةً، تحت الضوء، والمطر، والبرق، أو

حكاية قديمة تشرق تحت قمر شرقي محترق:

- نعم، عندي. لكن في القبو.

فراشة تخرج من بين الدغل وتخلع ثوبها الذهبي على نور الشمس وهي

تستحم بالغسق الأحمر، الريان، وبرمل يتوهج في النور على شاطئ في

لون حقول البحر.

غطست يسرى في عتمة القبو كشبح خرج من العاصفة والشارع  
القاحل الثلجي وغاص في فتحة سرية في الأرض في رشاقة نيزك مشتعل  
سقط توا في عراء صحراوي بدائي، مقفر، وموحش. غرقت في الظلمة  
الأبدية للأنتى والليل والهاوية والريح، وهي تحمل جسداً في شراسة نمر  
هارب من القفص والأسر.

يسرى عطر مهرب من سهول الليل، حيوان الخلد وهو يتأهب، تحت  
صرخة الدم، والعتمة، وبرق غامض، للموت المقدس في مكان مخفي  
كمقبرة مقدسة لملكات الرغبة والليل، هاربة من الموت والرماد والعزل  
والسكين والوحشة والقبيلة.

الآن تنزل، في الضوء الشفاف، على سلم القبو الحجري، بين صور  
الأسود والوحوش والبراري والمعابد القديمة وملكات العالم السفلي والثيران  
الوحشية والماعز البري وطيور الهور ومدن ملوك الزمن الغابر وقاعات  
محاكمات الموتى والمقابر المنحطة وخيول تنهب الرمل وقلاع محترقة ونساء  
مشنوقات على أشجار الفجر وكنائس حجرية وسط الغابات وماآذن

بيض تطل على مدن طينية وغرف زرق للنوم أو للموت وحقول  
وقطارات ومراكب وحروب وفهود ونجوم ومصايح تحت الثلج وقناطر  
وشوارع قاحلة وعواصف رملية وثلجية وأسلاك وبوم ينعق على مدن  
مغمورة بغسق صيفي أحمر مطلي بالرماد.

الآن يبدو المنزل من الخارج، تحت عنف العاصفة الثلجية، وضوء  
مصباح الشارع، وعزلة الليل والقنطرة والمطر والصخور، وزئير الريح،  
كجحر ثلجي تحترقه كوة قبو أرضي مضاءة بنور خافت، لمخلوقين  
ملتحمين بعنف بدائي كطيور ليلية متصادمة في الظلام، والرغبة، وفوران  
الدم، وصيحات الجسد المذعور من حريق داخلي يومض ولا يحترق،  
كحشرات ضوئية في الليل.

أمام ضراوة الجسد، تحت قرون أيل منحط على جدار، وصور  
الأسود، والأمطار المنحرفة التي بدأت تضرب الواجهة الزجاجية للمنزل  
بعنف، وتهوي فوق القنطرة والمصباح والأشجار، شعرتُ في قمة تداخل  
الأرجل والنيران والأصابع والمياه والأمطار الحارة وصرخات الوعول

والوحوش والسماء، انني قطعتُ كل تلك الطرق والحروب والغابات  
والصحارى والسجون والبراري ودروب المهربين والأسلحة والمقابر  
والأضرحة والجبال الصخرية والذئاب والمخالب والليالي المغرورة في جدران  
سجون الهياكل البشرية، لكي أروي هذه الحكاية الطويلة فوق جسد في  
صلاصة شفق صيفي مفتوح على برية من النار.

وهج مشتعل يلوح الآن عبر كوة القبو، من شارع تركض فيه الريح  
والمطر وأشباح الضباب وكتل الثلج ومصايح سيارات قادمة أو ذاهبة،  
عربات تزلج، نساء مراقص منتصف الليل، أيائل مرتبكة، صفيح باخرة،  
رائحة بشرية تنبثق من جسدين، تحت الأرض، كرائحة عشب مبلل  
بالمطر أو كرائحة شعر حيوان صغير يخرج رأسه تَوّاً للعالم.

كانت تمن كغزالة في حالة طلق أمام وهج المدفأة، وزئير الريح، عارية  
كشجرة سرو تحت المطر، وكنتُ، في الظلام العاري، والوهج الشفاف،  
أحاول الولوج إلى عتمتها البعيدة كحيوان يحفر في الأرض، والشجر،  
والغابة، الضوء، العشب، الصخر، كرمح بابلي يخترق الليل الذهبي

الموغل في القدم، كضوء يصل الآن من نجوم متلاشية، في حين شرعت هي في الاحتضار المؤقت، على برق مباغت ضرب القبو الذي أخذ شكل الرحم، وكنتُ في العرق والشحوب والدم والنبض المصعوق واختلاجات الجسد قد بدأت أحبو كحيوان مشع ومغسول بالماء والدم وبقايا الدغل والوحد على حافة سهل مغمور بفراغ بدائي موحد وقاحل رغم العراء المعطر بسكون الأراضي البدائية في طفولة الكون.

فجأة، كرعد مطري وحشي، اندلعت من أعماقي البدائية ، تحت حريق الجسد والفراغ وسهول الغابات المتشابكة والوعول الهاربة والقفر الموحد، صرخة وحشية عبرت القنطرة والأشجار والرياح والجبال وغابات السرو والصنوبر والجسور والمحطات والحدود والحروب والأسلاك الشائكة والفنادق والنجوم القديمة المطفأة والوحد والبشر والأحلام والرماد، كصرخة حيوان مجروح في برية الليل:

هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم  
ليس بالضوضاء، بل بالنشيج.

كُتبت 2000

ونُشرت 2001